
نجيب محفوظ
الحب فوق هضبة الهرم

الحب فوق هضبة الهرم

تأليف
نجيب محفوظ



الحب فوق هضبة الهرم

نجيب محفوظ

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: سامح عرفة

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٣٢ ٧

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

نور القمر

١

تَجرِبةٌ جنونية، انتشر نبضها في زمان الوداع، وانغرست جذورها في طمي النيل، تحت ظلال النخيل واللبلاب والجازورينا، مُهومة في الحي الرنَّان ذي الإيحاءات اللانهائية، روض الفرج. اهتدائي إليه مصيرٌ حتمي؛ فهو مصيف من يبهظه الرحيل إلى الإسكندرية أو رأس البر. وهناك وجدت مقلدًا لكشكش بيه، وآخر لبربري مصر الوحيد، ثم قادتني قدماي — من باب العلم بالشيء — إلى كازينو «الواق الواق» فقضيت سهرة سماع لصوت «نور القمر».

لعله أصغر المسارح، يقع في نهاية الخط، مرسوم على هيئة سفينة، تُطوِّق جانبَيه أشجارُ الياسمين والحنَّاء واللبلاب، ومقاصير أهل الخلوة، وتشغل وسطَه صفوفُ الكراسي الخيزران. يُقدِّم أول ما يُقدِّم تواشيح عريقة، فرقصة شرقية، ثم يُرفَع الستار عن «نور القمر» وتختها المُكوَّن من القانون والعُود والكمان والرق وأربعة من السنِّيدة العجائز.

رفعت إلى المطربة عينَين فاترتين، شيء أرعشني كجرس تنبيه، انحصر وعيي كله في النظر، لم أسمع من الغناء إلا أصداءً مُتلاشية، انسحب مني الماضي وذاب، واتَّجهت بدفعة من المجهول نحو قبلة جديدة، منذ تلك اللحظة أمسى «الواق الواق» مقصدي كل ليلة طوالَ فصل الصيف، لم أهجره ولكنه هجرني بانتهاء المصيف وإغلاق المسارح والكازينوهات، وتحول روض الفرج إلى مرفأ لسفن الغلال.

٢

من هي «نور القمر»؟

امرأةٌ ناضجة، تتألق بأبَّهة الأنوثة الكاملة؛ لعلها في الثلاثين، تختلف الآراء في تقدير سنها بحسب الأهواء، لا تجد عند أحد معلومةً شافية عنها. قوًى مجهولة تعزلها عن الناس

في موسم العمل ثم سرعان ما تختفي بقية العام. جميع السكارى يتكاشفون بعذوبة جمالها، ولكنني — فيما بدا لي — خُصصت بالهيام بها لحد الجنون. ماذا جرى؟ إنهم مُنهمِكون في الأكل والشرب والضحك والطرب، وإعجابهم بها عابر، على حين سلبت مني — بشراهة — الروح والجسد. ويقول من يدَّعون الخبرة: صوتها رقيقٌ محبوب.

فأقول: ولكنها لا تُغنِّي إلا الأغاني القديمة، وفي اعتقادي أن أي مُلحِّن معاصر يسرُّه أن يُلحِّن لها.

– ولمَ تدفن نفسها في روض الفرج؟

– من يدري؟

من يدري حقًّا؟ إنها سرٌّ مُغلَق. عِلمي بها — كالآخرين — محدود جدًّا، أما هيامي فلا حدود له. على أي حال لم أعرف في حياتي الانطواء أو السلبية.

٣

ولكن من أنا؟

من ذوي المعاشات، في الخمسين من العمر، أعزب، ليس بيني وبين المرآة التي تعكس صورتي أي ضيق أو اعتراض. أحب الطعام الجيد، أكول، أُحسنُ طهي ألوان من الطعام كأمهر الطهاة، ضحوك، صافي السريرة غير أن عزوبتي ركَّزت اهتمامي في ذاتي فعَلِقت بي أنانيةٌ طفولية. كنت ضابطًا بالجيش، أدركني المعاش وأنا صاغٍ في الخامسة والأربعين من عمري. خدمت في السودان والصعيد والسلوم. وكنت طوال عمري جامح الأهواء، مُغرَمًا بالنساء، سيِّئ السمعة. في صِباي وشبابي خيَّبت أمل والديَّ رغم أني كنت وحيدهما. بذلا جهدًا طموحًا ليجعلا مني طبيبًا أو وكيل نيابة، ولكنني لم أظفر بالابتدائية إلا بطلوع الروح وقد جاوزت الخامسة عشرة. لذت بالمدرسة الحربية كآخر معقل للأمل كي تجعل مني شيئًا ما، وكنت بدينًا مُفرِطًا في البدانة. رمقني ناظر المدرسة الإنجليزي بدهشة كأنه يتساءل عما جاء بي، ولكني أظهرت من البراعة في السباحة والعَدْو ما سرَّه وفتح قلبه لي، فقَبِلني أو أصرَّ على قَبولي وهو الأصح. كان الفشل هو ما يدفعنا إلى المدرسة الحربية، لا الوطنية ولا الروح العسكرية، غير أن الروح تتولد بطريقةٍ ما. أما الوطنية فقد تكفَّلت بها ثورة ١٩١٩. وقد اشتركت في مظاهرة المدرسة الحربية المشهورة، وأصابني جندي إنجليزي بالسونكي في وركي، ولولا العفو العامُّ لفُصلت من المدرسة وخابَ آخر رجاء في وظيفة محترمة نوعًا ما. وتخرَّجت مُلازمًا ثانيًا في نهاية أربعة أعوام دراسية، منها عام

عقوبة لاشتراكي في المظاهرة. وفي الترام سمعت أحدهم يهمس: كل هذا البدن ومُلازم ثانٍ فقط؟!

فهمس آخر: إنه في وزن لواء.

وكان اللواءات في تلك الأيام ذوي كروش وبدانة، تحسبهم قصَّابين لا عسكريين. ومات والداي، وامتدَّت خدمتي خمسة وعشرين عامًا، ثم أدركني المعاش فوجدت نفسي ضخمًا وحيدًا ضائعًا يعيش في زنزانة انفرادية في صورة شقة. رسمت خطة لإنقاص وزني فصِرت مقبولًا، وفترت بهجة الطعام والنساء، وكان الشِّعر يستهويني فقرَّرت أن أتَّخذ من حافظ إبراهيم مثالًا على نحوٍ ما، وشغلت وقت وحدتي بالقراءة في شتى المعارف الدنيوية والدينية، وبتُّ من رُوَّاد قهوة المالية — قهوة أصحاب المعاشات — ألعب النرد والدومينو، وأتكلَّم في السياسة وأعلق على الأحداث، أُفلسفها مُستعينًا بثقافتي المُتنامية، ثم أنضمُّ لكثيرين لأداء صلاة الجمعة. ورحم كثيرون وحدتي فاقترحوا عليَّ أن أتزوَّج.

– الخمسون مقبولة، صحتك جيدة، لم تشب شعرةٌ واحدة في رأسك بعد، والجنس يعيش في مثل هذه الظروف حتى آخر العمر.

فكَّرت في ذلك باهتمامٍ فاق تصوُّري، ولكن ثبَّط هِمَّتي أن ظروفي لن تُرشِّحني إلا لامرأةٍ يائسة، وقد أبَيت ذلك. الحق أني اعتدلت في شهواتي؛ ربما كردِّ فِعل لما سبق، وقنعت أكثر الوقت بمراقبة الهوانم من موقعي في القهوة، ونادرًا ما وجدت الدافع القويَّ لمطاردة إحداهن. أصبح لهن في قلبي أكثر من مُنافس كالكتاب والمسرح والسينما والأصحاب المدنيين، حتى اقتادني مصيري المحتوم إلى «الواق الواق».

٤

عرفتُ الحب لأول مرة في حياتي. إنه كالموت تسمع عنه كل حين خبرًا ولكنك لا تعرفه إلا إذا حضر. وهو قوةٌ طاغية يلتهم فريسته، يَسلبُه أيَّ قوة دفاع، يطمس عقله وإدراكه، يصبُّ الجنون في جوفه حتى يطفح به. إنه العذاب والسرور اللانهائي. تلاشى شخصي القديم تمامًا وحلَّ محلَّه آخرُ بلا تراث ولا مبادئ، ينقضُّ على مصيره بعينَين معصوبتين.

وجعلت أتساءل: «كيف الوصول إلى نور القمر؟»

إنها تُغنِّي وصلتَين ثم تختفي حتى مساء اليوم التالي، لا تُرى إلا فوق المسرح. لم تذهب إلى مقصورةٍ قط. الراقصة وجوقتها يفعلن ذلك، ويسعين إليه، أما هي فما إن تفرغ من الغناء حتى تتلاشى في الكون. وإني رجل في الخمسين، محدود الدخل، لا جاه ولا مركز،

لا قدرة لي على حيازتها، ولا أدري إن كانت تقبل علاقةً عابرة، أما ابتغاء الرضا والحب فما أبعده عن تصور من كان في مثل سنِّي وحالي، وأما الزواج فماذا يعني لها إن لم يعنِ الأبهة والرفاهية؟!

أشار عليَّ العقل بأن أقتلع فِكرتها من نفسي المُعذَّبة، ولكن ليس للعقل صوت يُسمَع في ضجة أهازيج الهوى، وصخب أمواجه العاتية، وأزيز أعاصيره الهوج.

وأعجب من ذلك كله أن يتحول خبير الأطعمة المُتقَنة، زير النساء، إلى مجنونٍ مُلهَم، يهيم في دنيا الحب المُترَعة بالأسرار، يُخاطب بأنينه المجهول، ويجدُّ في البحث عن لا شيء في كل شيء، في ضياء الشمس، بهاء القمر، وهج النجوم، ثراء السُّحب، أريج الأزهار، سلاسة الماء؛ فقد غطَّت نور القمر على حياتي وحياة الكون من حولي.

٥

وفي بوتقة الهجران يُبعَث القلب ويتطهَّر ولو كان في الأصل غليظًا مُشبعًا بالإثم. وقد خبرت الضحك والسخرية والشهوات فآن لي أن أعرف الشجى وأترنَّم بألحان الأسى.

مضيت أنسحب برفق من جو أصحاب المعاش، من الثرثرة والمقامرة والشراب والخوف من الموت. ملأتْ نور القمر وجداني واستأثرت بوعيي. أبَيت الاستسلام للقهر والهزيمة. جعلت أشجِّع نفسي وأضرب لها الأمثال من ماضيَّ؛ استهتاري الفائق، ومغامراتي الجريئة، واقتحاماتي المُذهلة. عبدت دائمًا ما أهوى وأريد، واستهنت دائمًا بالتقاليد والسمعة والقيل والقال. وموقفي يوم المظاهرة المشهورة هل يُنسى؟ لقد أضربنا وذهبنا إلى مدرسة الشرطة، هتفنا بالإضراب. ولما وجدنا ترددًا أطلقت رصاصة في الهواء، وتحدَّيت بدانتي فكنت أعدو بسرعة الريح كأني برميل بخاري. مُحالٌ أن أتقاعس يا نور القمر.

٦

وصمَّمت ذات ليلة، سمعت الوصلة الأولى وكانت:

كادني الهوى وصبحت عليل.

ثم غادرت مجلسي ماضيًا إلى الباب الخلفي للكازينو. اعترضني البوَّاب فقلت بكبرياء: أعرف طريقي.

سرعان ما جاءني الجرسون حمُّودة مُبتسمًا مُتسائلًا: أي خدمة يا بيه؟

– حمودة، أرغب في مقابلة نور القمر لأُهديَها إعجابي.

– الجميع يُعلِنون الإعجاب بالتصفيق.

– ولكني أريد أن أُقدِّمه بنفسي.

– ممنوع.

فتساءلت بحدة: من صاحب هذا الأمر السخيف؟

– أصحاب الشأن في الكازينو، ما أنا إلا عبدٌ مأمور.

– ولكن لماذا؟

– لا أدري يا سيدي، جميع الزبائن يعرفون ذلك.

فقلت بعجرفة: ولكنني سأدخل.

فقال بتوسل يليق بزبون دائم مثلي: أرجوك يا بيه.

– على مسئوليَّتي.

– هناك سنجة الترام.

أفقت من غضبي. سنجة الترام هو فتوة المحل وحاميه. لا قِبَل لي به فضلًا عن أنني في الخمسين من العمر، تراجعت مُتسائلًا في استنكار: لهذا الحد؟

– أنت بيه محترم ولا يليق بك الشغب.

تنهَّدت لأُروِّح عن غيظي وقلت له: إذَن فعليك أن تُبلِّغها إعجابي.

فقال بأسف: ولا هذا.

– أمرٌ غريب حقًّا.

– ما باليد حيلة.

– لماذا لا تفعل كما تفعل الراقصة وجوقتها؟

فقال وهو يحني رأسه: الراقصة وجوقتها تحت أمرك.

٧

إن هي إلا جولةٌ خاسرة، ولكنها ليست كل شيء. الطريق طويل والزمن طويل. ها هو صوتك الحنون يتسرَّب إلى أعماقي مُعطَّرًا بالفتنة وليس بيني وبينك إلا خطوات. لو كان لي أنف كلب لشممت أنفاسك. لو كان لكِ قلب لركزت بصرك على عابدك. ولو أعيَتني السُّبل المادية في الوصول إليك فثَمَّة قوة الحب ستصنع معجزةً فائقة للعقل في الوصول إليك هازئةً

بأعيُن الحراس. في تلك الليلة تعمَّدت التأخير حتى استقللت الترام الأخير، واخترت مجلسي إلى جانب الجرسون حمُّودة، دفعت عنه ثمن التذكرة فاستعدَّ الرجل للحديث المُتوقَّع. ولما غاص الترام في الظلام شاقًّا طريقه بين الحقول تساءلت: ما معنى هذا يا حمودة؟

– تسأل عن نور القمر؟ ... هذا هو الواقع.

– أهي سيدةٌ مَصُونة حقًّا؟

– هي كذلك فيما نرى.

– وما السر؟

– لا عِلم لي به.

– يوجد سر ولا شك.

– عِلمي عِلمك.

– إنك تعرف السر ولكنك تمكر بي.

– صدِّقني، ليس عندي أكثر مما قلت.

– هل تؤمن بالخرافات؟

– إنها حقيقة لا خرافة.

– هل تُصدِّقها؟

– فلْنُسلم بأنها شاذَّة، ما الفائدة؟

– عندك تفسير لها؟

– لا أشغل نفسي بالتفكير في ذلك.

– وراءك أشياء ولا شك.

– أبدًا، صدِّقني.

– هل تذهب نور القمر عقب العمل وحدها؟

– كما ترى فإني أذهب قبل ذلك حتى لا يفوتني الترام الأخير.

– بأي وسيلة تذهب هي؟

– ربما تاكسي، حنطور المدير موسى القبلي، فورد صاحب الكازينو حفني داود، من يدري؟

– الآن فهمت.

– ماذا فهمتَ يا سيدي؟

– إنها عشيقة أحد الرَّجلَين!

– الله وحده يعلم.
– ألا يعرف أحد شيئًا عن سيرتها الخاصة؟!
– نحن نتجنَّب الفضول حفظًا على رزقنا.
– أين تسكن المرأة؟
– لا أدري.
فتنهَّدت وقلت بنبرة اعتراف: حمودة، أنت تدرك ولا شك ما وراء أسئلتي المُلحَّة.
– أجل يا بيه.
– والعمل؟
– ما باليد حيلة ... النساء كثيرات ... وكلهن في النهاية طعامٌ واحد.
أهديت إليه سيجارة، غمزته ببريزة، ولكنه قال: إني لا أخدعك، وليس عندي مُقابل.
– حمودة!
– صدِّقني، لقد وقع في هواها عمدة صعيدي واسع الثراء، ولكن ماذا أفاد؟
فهتفت بغيظ: إن ملكة مصر أيسر منالًا من ذلك.
– هذا هو الواقع.
وتفكَّرت مليًّا ثم سألته: سنجة الترام رجلٌ قوي، هل يمكن الاستعانة به؟
– لا أدري، جرِّب إن شئت.
حقًّا إن مجرد الاتصال به مهانةٌ ما بعدها مهانة، ولكن ما الحيلة؟ سألته: هل تُساعدني في ذلك؟
– إنه صاحب غرزة تبدأ عقب التشطيب.
ازددت امتعاضًا وأنا أسأل: أين؟
– قارب شراعي ...
– ممكن تُمهِّد لي السبيل باعتباري من أصحاب المزاج؟
– هذا ممكن.

٨

لم أكُن يومًا من أصحاب المزاج. إني من أصحاب الأمزجة الفوَّارة التي لا تتلاءم مع المُخدِّرات. وقد دخَّنت مرةً البانجو في السودان، وسرعان ما غشيَني النوم فتوكَّد نفوري من المُخدِّرات. وفي مثل الحال التي أنا مُقبِل عليها بوسعي أن أُمثِّل وأن أتجنَّب

التدخين الحقيقي. ما العمل وجنوني يستفحل؟ لقد ضاعت مني نفسي. جعلت أنظر إليها — كغريب — بعين الرثاء والأسى، وهان عليَّ أن أسعى لمصادقة سنجة الترام. وهو ربعةٌ متين البنيان ضخم الرأس والوجه، في جبينه ثلاث ندبات وفي أنفه اعوجاج، واسع الأشداق كأنه من أكَلة الأحجار. وسرعان ما حسبت تكاليف السهرة فوجدتها — مع الإكرام — تستهلك خمسين قرشًا، وهو قدر لا يُستهان به، مع الاستمرار الذي يقتضيه توثيق العلاقة.

تسلَّلت إلى القارب فصافَحني على ضوء شعلة عربة ترمس وتمتم: أهلًا.

فشددت على اليد الغليظة وأنا أقول: مساء الخير يا معلم سنجة.

وانغرست على جانب وسط تكتُّل من الأوباش، وانساب القارب فوق الماء الرزين واهبًا ذاته المُتأرجحة لظلامٍ دامس تُشعشعه أضواء النجوم كالهمسات. لعلهم من تجار الغلال والبصل، يُنكِّتون ويُقهقهون بفظاظة. ودارت علينا الجوزة لدى امتلاء الشراع بالهواء، ولاطَفتنا نسائم مُعطَّرة برائحة النيل. ورغم حذري ثَقُل رأسي، وناء قلبي بالحزن. ومن حسن الحظ أن أحدًا لم يهتمَّ بأحد؛ فلم أُضطرَّ إلى الخروج من صمتي وأفكاري. وعند الورَّاق غادرَنا البعض، وانفضَّ السامر عند الفجر.

٩

وُثِّقت المساهرة بيني وبين سنجة الترام؛ مساء الخير يا معلم سنجة، مساء الخير يا أنور بيه. دعوته للغداء عند الدهَّان فدعاني للغداء في المذبح. وجدتني أندمج في أوساط البلطجية وتجار المُخدِّرات. أرهقني الخزي والحزن، عجبت لتدهوري، وكيف ساقني إليه أنقى وأصدق عاطفة شدا بها قلبي. أجل طالما تحدَّيت التقاليد والحرص على السمعة الطيبة، ولكن عربدة العشاق شيء ومخالطة الأوباش شيءٌ آخر. ولم أعد أختلف إلى المقهى إلا في النادر. وخمَّن الصحاب أن في الأمر امرأة ولكنهم لم يتصوروا أي امرأة تكون، ولا أي تدهور دُفعت إليه بيد حبها الناعمة، وطبعًا كتمت سِري حتى لا أكون حديث الجاد والساخر. كذلك ندر الوقت الموهوب للقراءة، غير أن بعض الشِّعر الذي سبقت لي معاشرته امتلأ بحياةٍ جديدة وتبدَّى بحسنٍ جديد وتفجَّر عن قوًى جديدة، فأدركت أن جمال الشعر لا يكمن في ألفاظه وموسيقاه وصوره، ولكنه يكمن قبل كل شيء في القلب البشري.

وفي تلك الفترة من حياتي زارتني عمَّتي نظيمة، أرملة في الستين، بكريُّها مهندس مقاول قدُّ الدنيا، وشقيقه موظف دبلوماسي في سفارتنا بالحبشة. قالت: انقطعت عني منذ مدة ولكني لا أنساك.

فلثمت خدها النحيل مُمتنًّا، وجعلت تتفحَّصني باهتمامٍ أثار قلقي، ثم تساءلت: حتى متى ترضى بهذه الحياة المُقفِرة؟

أدركت أنها تعود إلى موضوعها المُفضَّل وهو «الزواج»، فقلت: اعتدت يا عمتي العزوبة.

فقالت بحرارة: عادةٌ سيئة، ضد مشيئة الله.

– كل شيء بمشيئة الله يا عمتي.

احتست الشاي وهي تفكر، ثم قالت بنبراتٍ جديدة تمامًا: أنور ... حدَّثني حمدي حديثًا لا يُصدَّق.

حمدي مأمور شرطة وزوج ابنتها الوحيدة، وقد اضطرب قلبي وتساءلت: ماذا؟

– قال إنك تُصاحب قومًا ليسوا من أصلك ولا مستواك.

فزعت، هل تتفشَّى الأسرار بهذه القوة؟ قلت مُدافعًا: كلنا أولاد حواء وآدم.

– ولكنهما أنجبا قابيل كما أنجبا هابيل.

وقرأتْ في وجهي ولا شك تحرُّجي وضيقي، فقالت برقة: أردت أن أحذِّرك فسامِحْني.

١٠

تألَّمت ولكني لم أُبالِ. عزمت على مزيد من الخطوات المُسدَّدة. ها هو سنجة الترام يتردد على شقَّتي في المنيرة رافعًا الكُلفة. يتناول الطعام أحيانًا، وأحيانًا يضطجع نائمًا، ومرَّات أودَعَ عندي حشيشه بعيدًا عن أي مظنَّة. أصبح البيت بيته ابن القديمة، وحُمتُ حوله مُتحيِّنًا الفرص. آنَس إليَّ فروى لي قصة حياته منذ نشأته في سوق الزلط؛ معاركه، سجنه، بلاءه في ثورة ١٩١٩، حتى اختير فتوة لكازينو «الواق الواق».

– موسى القبلي هو الذي اتفق معي.

– المدير؟

– نعم.

فقلت بمكر: يُقال إنه قريب لنور القمر.

– كلامٌ فارغ.

– بذلك يُفسِّرون عُزلتها الغريبة.

– سكارى وأغبياء.

– أصل عزلتها تُثير القيل والقال.

– إنها حرةٌ تفعل ما تشاء.

– تعني أنها هي التي ترفض المؤانسة؟

– عِلمي عِلمك، ما يهمُّني أنني مُكلَّف بإبعاد من تُحدِّثه نفسه بالاقتراب منها.

– بلا علم بسبب ذلك؟

– ليكُن ما يكون. هَبْها امرأةً مصونة، أو رجلًا مُتنكرًا في صورة امرأة، أو عشيقة للمدير أو صاحب الكازينو، ماذا يهم؟ من حسن الحظ أنني لا أرغب فيها.

وضحكنا طويلًا، ثم سألته: ماذا كنت تفعل؟

– كنت أقتحم الحارس والمحروس.

فقلت بدهاء: ظننت أن الأسرار لا تغيب عن رجلٍ مِثلك؟

– الأسرار التي تهمُّني فقط.

– ألستَ صديق المدير وصاحب الكازينو؟

– لك أن تعتبرني صديق الجميع، ولك أن تعتبرني بلا أصدقاء.

وكنت عرفت من طبعه أنه لا يُطيق سماع ثناء على أحد، فقلت: يبدو أن المدير رجلٌ محترم.

فقال ساخرًا: ما هو إلا قوَّاد.

– قوَّاد؟!

– صاحب بيت دعارة.

انبهر رأسي بضوء فوسفوري مُباغِت. هل يستغلُّ نور القمر بطريقةٍ مُحنَّكة؟ يا لخيبة الأمل إذا لم تكُن المرأة إلا مُومسًا؟! ولكن حتى هذا الفرض لم يُطفئ لمعة الوجد في قلبي، بل لعله أرَّثها بفتح باب يسير للوصول. وصبرت حتى دار رأس سنجة ورقص الانسجام في مخايله فسألته: ما رأيك في سهرة في بيت موسى القبلي؟

فقال بازدراء: أعوذ بالله.

– من باب العلم بالشيء؟

– ولكنك كهلٌ محترم وأب.

فقلت ضاحكًا: لست إلا أعزب.

– أعوذ بالله.

ثم مُستدركًا: وكيف تعيش بنصف دين؟

فقلت لنفسي بأسًى: «حقًّا ينقصني النصف الآخر.»

١١

قلت للجرسون حمودة وأنا أغمزه ببريزة: دُلَّني على بيت موسى القبلي.

ابتسم الرجل ابتسامةً عريضة، غمز بعينَيه، قال: بريزة أخرى.

فأثنيت في سِري على صدق فِراستي.

١٢

البيت في أول شارع مهران السندي المُتفرِّع من شارع دوبريه، شقة أنيقة صامتة، الأبواب مُغلَقة، كأنها خالية. قدَّمني حمودة إلى موسى القبلي فتلقَّاني بوجهٍ ودود غير الوجه الذي يُدير به الكازينو. وقلت لنفسي من بلطجي إلى قوَّاد يا قلبي لا تحزن. أما هو فقال بلا حياء: جنيهان من فضلك.

دفعتهما بلا تردد فقال: آخر حجرة في الدهليز، هل تريد شرابًا؟ ... زجاجة الأوتار بجنيه واحد.

اللص ... إنها في السوق بثلاثين قرشًا. قلت مُعتذرًا: ربما في المرة القادمة.

فقال بشيء من الفتور: الهدوء هنا مهم جدًّا.

١٣

كم لعب الأمل بقلبي أن أجدها عقب فتح الباب، ولكن المعجزة لا تقع بمثل هذه السهولة. ها هي امرأةٌ أخرى لا رغبة لي فيها، تنضمُّ إلى سلسلة المغامرات العقيمة المُتلاشية في العدم واللامُبالاة. وقرَّرت أن أحُوز ثقة موسى القبلي ورضاه، كما فعلت مع حمودة وسنجة الترام. وسطاء سوء ولكن بيد أحدهم مِفتاح الكنز. مثل هذا العناء تُكابده الشجرة حتى يتمخَّض ليلها الطويل عن زهرةٍ ضاحكة.

واقترحت عليه — موسى القبلي — في المرَّات التالية أن أُشاربه في حجرته الخاصة قبل الذهاب إلى حجرتي المقسومة. انبسط واعتبر ذلك تحيةً فريدة. وذات ليلة قال لي: علمت أنك من زبائن «الواق الواق»؟

– ألم تقع عيناك عليَّ؟ ... طالما رأيتك وأُعجبت بإدارتك.

– الأمر مختلفٌ غير أن وجهك بدا لي غير غريب وأنت تُطالعني هنا لأول مرة.

شجَّعته على الشراب وقلت: إني أشرب في اعتدال لأسبابٍ صحية.

– لكنها مفيدة للصحة.

فقلت ضاحكًا: الأمر مختلف.

– موظف؟

– على المعاش.

– لكنك ما زلت في طور الرجولة؟

– الضابط يُحال على المعاش في أي سن.

– كنت ضابط جيش؟

– كنت.

فضحك عاليًا وقال: حلمت في صغري بأن أكون ضابط شرطة.

– مصيرنا في الحياة لا تتحكم فيه رغباتنا.

وهو يضحك مرةً أخرى: على أي حال فعملي ذو علاقة وثيقة بالشرطة.

– فال الله ولا فالك.

– مُتزوج؟

– كلا.

– يندر أن يجيء أحد في سنك.

فقلت ساخرًا: الحياة دائمة التقدم.

– وكيف عرفتَ بيتي؟

– صاحب الحاجة مُستكشِف.

– حمودة؟

– نعم.

– رجلٌ غاية في الفطنة.

فرميت سهمي الأخير قائلًا: وقف مصادفةً على سر شغفي بنور القمر.

رفع حاجبَيه الخفيفين وقال: أنت من عُشَّاقها؟

فحنيت رأسي لبلوغي آخر الأبواب وانتظرت الفرج غير أنه قال: لولا عُزلتها ما أثارت شغف أحد.

– ولكن الشغف سبق اكتشاف عزلتها.

– لا تهتمَّ بالمُمتنع، عندي من هنَّ خير منها.

يا للداهية ... هل خاب المسعى أيضًا؟! ... وانطفأت الجمرات تحت كثافة الرماد.

١٤

وسألني سنجة الترام: كيف تُطيق هذه الوحدة؟

كان قد فرغ من قدح الشاي الرابع فاسترخيت جفونه من السطول، أجبته: العادة أقوى من الوحدة.

– وهل يليق بمثلك التردد على بيت دعارة؟

فلم أُجِر جوابًا، أما هو فقال: اعتزمت على أن أكمل لك نصف دينك.

فضحكت وقلت: إني الأعزب الأبدي يا معلم سنجة.

فقال بصراحةٍ مُخيفة: عندي بنتٌ مُطلَّقة.

لطمني قوله كنذير حريق، أما هو فواصَل: بنت ممتازة، هدية، أوقعها سوء الحظ في رجل لا قيمة له.

ما توقَّعت أن أتعرَّض لغضبه قط. لعنت في سِري الزمان والمكان. قلت: يلزمني تفكيرٌ طويل؛ فالتخلِّي عن عادةٍ مُزمِنة كالعزوبة ليس بالأمر الهيِّن.

١٥

بات الخطر تحتي تمامًا مِثل ظل منتصف النهار. انسحِب من التجرِبة كلها قبل أن يدهمك القضاء. هكذا حاوَرني عقلي، ولكني كنت أحلم بالنجاة وأنا أتدحرج نحو الهاوية. لم تعد قوةٌ بقادرة على صدِّي. الحب المستبدُّ الذي لا قاهر له، ذلك الغول الذي تُغْنيه فريسته عن المطاردة. الحُلم الذي يُزري بكافة الأحلام ويُحوِّلها إلى نُفاية. لم أنقطع عن موسى القبلي جريًا وراء المزيد من الأمل والعرفان. ولما ثمل وانبعث من قلبه الخيال قال: بيتي محترم، ليس بين زبائنه زبون واحد من الرعاع.

ابتسمت مُوافقًا فتساءل: ما رأيك في فتياتنا؟

فقلت بإصرار: اعترفت لك بأني مشغوف بالغناء.

– نور القمر؟

– هو الحق.

– أنت رجلٌ غريب.

– ألم تُحبَّها أنت؟

– كلَّا ... والحمد لله.

– الحمد لله؟!

– لو بدرت مني حركةٌ واحدة تنمُّ عن ميل لفقدت عملي في الحال.

– إذَن فهو حفني داود صاحب الكازينو!

– ماذا تعني؟

– هو العاشق الغيور.

– إنه عجوزٌ ذو وجه قرد.

– ذلك أدعى للغَيرة.

– صدِّقني إنني أتجاهل الأمر كله.

– ولكن عندك أفكار ولا شك.

– ليكُن عاشقها أو أباها ... من يدري؟!

– هل ...

– هل ...

– هل يعجز مثلك عن مساعدتي؟

– ولمَ أُكدِّر صفوي ومستقبلي بسببك؟

– كصديق.

ولكنه قاطَعني بجفاء: ما أنت إلا مُغرِض.

– لا تسئ بي الظن.

– لا تُحاول إقحامي في هذا الأمر، لا تكن أنانيًّا، غامر بنفسك إذا شئت وإلا فاصرف النظر.

فقلت بحرارة: أقدم لك الأسف والاعتذار!

مضيت أُشاربه دافنًا همِّي في الصمت، ومضى يذوب في النشوة وينفض عن نفسه الكدر، ثم سألني: هل أغضبتك؟

– الحق لا يُغضِب، ولكن كيف عرفت حفني داود؟

– كان ناظر مدرسة أهلية، وكنت كاتب حسابات عنده، وتحت ضغط مراقبة وزارة المعارف ومحاسبتها اضطُرَّ إلى تصفية المشروع، وبعد حين قدم مشروع «الواق الواق» وضمَّني إليه مُديرًا.

– ومتى عملت نور القمر عنده؟

– من أول ليلة، لعله لم يَقُم بالمشروع إلا من أجلها.

– وهو الذي فرض عليها العزلة؟
– على الأقل هو الذي أصدر الأوامر إلينا.
– أتصوَّر أنها تجيء معه وتذهب معه؟
– في الفورد.
– لا شك أنه أصبح ذا مال؟
– أعتقد ذلك.

لم أُهدر الوقت سدًى كما توهَّمت، لقد أثريت بمعلوماتٍ مُفيدة، وتحدَّد سبيلي كما لم يتحدد من قبل. ولن أقطع صلتي بموسى القبلي مُداراةً لنواياي الحقيقية.

١٦

واقتحمني سنجة الترام بزيارة توقَّعتها وخشيتها. وكنت قد تجنَّبت الانفراد به لعله يدرك موقفي من اقتراحه، ولكنه كان مُدمِن بلطجة، مُعتادًا للأخذ دون مُقابل. ورغم المجاملات ران الفتور على اللقاء، وبتخلِّي البشاشة عن قسماته أسفرت عن دمامتها وندرها. تساءل: ماذا جرى؟

إنه يتساءل عن سِر تباعدي رغم وضوحه فيَضطرُّني إلى اختلاق المعاذير. قلت: ليس المزاج على ما يُرام.

فقال بقحة: هذه عاقبة التردد على بيت قوَّاد.

فقلت باستياء: ليس الأمر كذلك.

فسأل ببرود: متى تفي بوعدك؟

– أي وعد يا معلم؟
– ألم نقرأ الفاتحة؟

حملقت فيه بذهول فقال: قُرئت بالقلب، أم وجدتنا دون المقام؟!

– أستغفر الله، المسألة بالنسبة لي قفزةٌ خطيرة.

فقال وهو ينهض: أم وجدتنا دون المقام!

غادرني مُضطربًا. كلا. لم أعرف الجبن في حياتي، ولا كنت ممن تُعرقلهم الخشية على حسن السمعة، لكني شعرت بأنني مُقبِل على عاصفة أو أن عاصفةً مُقبِلة عليَّ. وحتى هذه اللحظة فالنجاة ممكنة. ممكنٌ أن أُسدِل بيدي ستارًا على روض الفرج وبيت موسى القبلي وقارب سنجة، ثم أرجع إلى روتين حياتي السابق بين معاشرة الكتب وسمر قهوة المالية.

هذا ممكن نظريًّا، ولكنه مُستحيل في الواقع. الواقع أنني فريسة جنون طاغٍ يلفظ كافة قيم الحياة، ويتركَّز في هدفٍ واحد. ذاك يدفع بي في شبكة من العلاقات المُذهِلة والأخطار المُحدِقة، ويفتح لي طريقًا واحدًا إلى مصيرٍ محتوم.

١٧

تبادلنا الأنخاب، أنا وموسى القبلي. قال وهو يتفحَّصني: لعلك شُفيت من حبك؟

فهززت رأسي نفيًا. قال: إنه أمرٌ مُضحِك وعجيب.

– هل عندك نصيحة؟

– أأنت غني؟

– كلا.

– هذا يعني ضياع ٩٠٪ من الأمل.

– لا مؤهلات من مال أو شباب.

فقال بدهاء: ثَمة وسيلة للشفاء؛ أن تُكثِر من زيارتنا.

– يُخيَّل إليَّ أنك لم تعرف الحب يا موسى؟

– هذا حق.

ثم مُواصِلًا بقحة: الحق أنني لا أحب النساء؛ لذلك أتعامل معهن بمهارةٍ فائقة.

تفكَّرت مليًّا في معنى قوله، ثم سألته: أترى حالي ميئوسًا منها؟

– حدِّثني أولًا عن حبك؟

– ماذا أقول؟ إنها تفرض ذاتها على وجداني وخيالي، أقوى وأعز من الحياة نفسها، لا غنى عنها كما أنه لا غنى للحياة عن أشعة الشمس.

فضحك على رغمه وقال: ما أعجب هذا الكلام يخرج من فم ضابط مُتقاعد خبير بالناس والحياة.

– نحن نعرف معنى الأَسر أكثر من غيرنا.

فضحك مرةً أخرى وقال وقد ثمل: منظرك ضخم لا يُثير الرثاء أبدًا.

فغضبت وقلت له مُوبِّخًا: سكرت عليك اللعنة.

وقبل أن يفتح فاه دق جرس الباب الخارجي.

خفَّ مُسرِعًا مُغادرًا الحجرة. ترامت إليَّ ضجةٌ مُريبة، قمت إلى باب الحجرة وأخرجت رأسي إلى الدهليز. رأيت مجموعة تتدفق من رجال الشرطة والمخبرين.

١٨

لم أشعر — من قبل — بمثل الذعر الذي اجتاحني، تجسَّد لي وجه سنجة الترام وراء الكبسة. انقضَّ عليَّ مخبر فقبض على أعلى الجاكتة، صكَّني بكوعه في صدري وهو يقذفني بوابل من الشتائم. اجتيحت الحجرات، سيق الرجال والنساء عرايا أو شبه عرايا. من حسن الحظ أنني لم أُضبَط مُتلبِّسًا، ولكن أي حسن حظ؟ حاولت أن أهمس بهُويَّتي في أذن الضابط ولكن المخبر أرجعني بلكمة في عنقي. انغمست في العار حتى القمة. دُفعنا إلى السيارة كخراف تُشَد إلى الذبح.

وصلنا إلى القسم وقد استُلَّ مني الإحساس والفكر. وكان تحقيق مهين؛ حُجزت النساء وموسى القبلي، وحُرِّرت المحاضر للرجال ثم أُفرجَ عنهم. غصصت بذروة الألم وأنا أعلن هُويَّتي. غادرت القسم شخصًا جديدًا عاريًا تمامًا.

١٩

ذُكرت الحادثة في صفحة الحوادث الصباحية. لم تُعلَن أسماء — عدا موسى القبلي — وقيل عني: «وضابط جيش مُتقاعد في الخمسين من عمره.» خُيِّل إليَّ أنه إعلان كافٍ لفضحي في محيط الأسرة وفي قهوة المالية. انزويت في شقتي بالمنيرة غارقًا في القرف. طالت لحيتي وأهملت نفسي تمامًا. على تلك الحال زارتني عمتي، وأكَّد لي قلبي بأن صهرها أخبرها بكل شيء. أقنعتني — ما وسعها ذلك — بأن زيارتها عادية. سأصبح حديث الأسرة المحترمة. أبناء عمتي وعمي وخالي أناسٌ محترمون حقًّا، وطالما تبادلنا الازدراء الصامت. لا يُحبُّني في أسرتي أحد إلا عمتي. ها هي تعود إلى حديثها المُفضَّل؛ «الزواج».

– لا تكن عنيدًا.

حدجتها بارتياب فقالت: أهملت نفسك أكثر مما يتصور العقل.

فضحكت ضحكةً مُتكلَّفة وتساءلت: ماذا عندك من أخبار؟

فضحكت ضحكةً عصبية وتمتمت: تصور.

ثم اغرورقت عيناها وقالت: إنك صورةٌ طبق الأصل من أبيك، لك منزلة في قلبي لا نظير لها، ليتك تعمل بنصيحتي!

٢٠

لم أُفِد من الدرس ما يتوقَّعه العقلاء. قلت إن الجنون حقًّا هو الرجوع بعد ما كان. تخفَّفت من البقية الباقية من الحياء فمزَّقت أثوابي. من الآن وإلى الأبد سأنتمي إلى عالمٍ غير عالم الناس، سأفتح ذراعي للجنون والسفه وخمر النزق المُعتَّقة. الحياة لا تتكرر، والحب أغلى جوهرة في تاجها. وفي سبيل الجنون المُقدَّس تُستحلُّ كل حماقة. اقتلعت نفسي من مجرى الحياة المألوف المحفوف بالعقل والحكم. خفَّ وزني تمامًا وبتُّ قادرًا على الطيران والشيطنة، وليأخذ بزمامي نبض القلب الثمل بالبهجة والأسى.

وهداني الصوت الخفي إلى خاطرةٍ مُبتكَرة وجريئة، فقلت لحمودة الجرسون: سيُسجَن موسى القبلي، فهل يمضي الكازينو بلا مُدير؟

فقال وهو يرمقني بانتباه: هذا ما يشغل حفني بيه في هذا الوقت.

فقلت بهدوء: إني أرحِّب بهذا العمل.

– أنت؟!

– نعم أنا، لمَ لا؟

فتردَّد مُتفكرًا فقلت: قدِّم ما يسعك من معاونة وأنت مطمئن.

فقال حمودة بارتياب: إني أخمِّن الدافع وراء ذلك.

– إني أعرف الأصول.

– لدى أي خطأ تتورَّط فيه فسأُعتبر بالتبعية مُتورطًا فيه ومسئولًا عنه وأخسر رزقي.

– لا تخشَ شيئًا من هذه الناحية.

– ألا تُحاول الاستحواذ على المرأة؟

– كلا.

– إذَن لماذا ترغب في هذا العمل؟

فقلت باسمًا في ثقة وإخلاص: ربما لأعمل في رحابها.

٢١

دعاني حمودة ذات ليلة لمقابلة حفني داود صاحب كازينو «الواق الواق». وجدته وراء مكتب صغير وأنيق في حجرة تُطلُّ بنافذة على النيل، استقبلني بوجهٍ مُحايِد وراح يتفحَّص

هيكلي الضخم بلا انفعال. كان عجوزًا في السبعين أو فوقها، ضئيل الجسم، له سحنة قرد لانحدار جبهته وغور عينَيه وبُروز ذقنه. شعره الفضي مفروق ومُمشَّط بعناية، كذلك شاربه. أشار إليَّ فجلست على أحد مقعدَين جلديين مُتقابلين أمام المكتب. تبادلنا النظر في صمت مليًّا ثم سألني: اسمك؟

– أنور عزمي.

– أأنت ضابط جيش مُتقاعد حقًّا؟

– أجل.

– وترغب في العمل مُديرًا للكازينو؟

– نعم.

– ما الذي دفعك إلى ذلك؟

قلت ضابطًا مشاعري تمامًا: الفراغ فتَّاك، ثم إنني محدود المعاش.

– أتراه عملًا مُناسبًا؟

– لمَ لا؟ ... وهناك سببٌ آخر أن أحتفظ به لموسى القبلي لحين خروجه من السجن.

– صديقه؟

– نعم.

– ولكن العمل يحتاج إلى خبرةٍ خاصة.

– أكثر مدة خدمتي في الجيش انقضت في الفروع الإدارية؛ فأنا ذو خبرة بالإدارة والحسابات.

– العمل عندنا يتنافر مع الروح العسكرية.

– لا تنقصني اللباقة.

وساد الصمت مرةً أخرى ثم قال: لا بأس من تَجرِبتك، ولكن اعلم أن أهمَّ واجباتك أن تمنع المُتطفِّلين عن نور القمر.

– عليَّ الإقناع وعلى سنجة القوة عند اللزوم.

– عظيم.

ونادى سنجة الترام فجاء وقد دهش لمرآي، فقال له حفني داود مُشيرًا إليَّ: أنور عزمي المدير الجديد، تعاوَنْ معه كما تعاونت مع موسى القبلي.

٢٢

لي مجلس خاصٌّ بمحاذاة المسرح. وإلى جانب النسبة المئوية التي تُشكِّل مكافأتي عليَّ امتياز وهو أن أطلب من المشارب ما أشاء. عملي الأساسي المحافظة على النظام، مراجعة دفتر التذاكر، التصدِّي لأي خلاف ينشب بين زبون وزبون، زبون وجرسون، زبون وامرأة من نساء جوقة الراقصة، إلى المهمة المقدمة على غيرها، وهي صد المُتطفِّلين عن نور القمر.

ولكن ماذا فعلت بنفسي؟

أظن يحسن بي أن أدفن هذا السؤال وأمثاله. عملي أشرف من غشيان غرزة سنجة، أو التردد على بيت موسى القبلي، أو موقفي في القسم. فلتَدُر أسئلتي حول الحب نفسه؛ فهو السر الجدير بالبحث والفهم حقًّا. على أي حال فأنا لم أقع في هوى امرأة عادية، جمالها الفائق مُعترَف به من الجميع، وهي تتبدَّى في هالة من الغموض المُثير للفضول، تحدق بها العزلة والحراسة المُغْريتان بالجذب والضلال، ولكن هل اقتربت منها حقًّا؟ الجواب بالإيجاب بالحساب المادي؛ فها أنا أعمل لحساب حارسها الأخير، أقابله يوميًّا، أتلقَّى تعليماته، أُقدِّم له الحساب. إني أتحرَّك على بعد خطوات من استراحتها الخاصة. سألتقي بها ذات مرة، في حجرة حفني داود أو في الممشى وراء الكواليس، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث بعد، لم يحدث لقاء ولا تعارف ولا تلامس، كأني بذلت ما بذلت وضحَّيت بما ضحَّيت لأصِل في النهاية إلى القرد العجوز. وإلى هذا كله جعلت أرقب سنجة الترام بحذر، وأخاف جانبه. وقد أعطاني حقي وزيادة، بل سألني مرةً: ألم تحنَّ من جديد إلى قاربنا الشراعي؟

فشكرته بقلبٍ يفيض بمقته وقلت: ستجمعنا الأيام بإذن الله.

لا شك أنه كان وراء الكبسة، ولكن لم يخطر بباله أن يجدني — نتيجةً لها — مُديرًا عليه، ولا خطر ببالي أن عملي الجديد سيُبعدني عن نور القمر خطوة بدلًا من أن يُقرِّبني منها خطوات. كنت وأنا زبون أراها من مقدمة الصفوف وفي مواجهتها، أتملَّى طلعتها البهية طيلة الوصلتَين، وأسبح في تيَّار أنغامها المُنسرِب، أما الآن فلا أراها إلا من زاويةٍ جانبية، ويشغلني العمل كثيرًا عن التركيز في عذوبة الصوت، وأسير أحيانًا في الممشى الفاصل بين جانبَي الصالة كأنما لأتفقَّد النظام. وفي الحقيقة لأملأ عينيَّ منها، وبأمل أن ألفت عينَيها إلى عابدها المُعذَّب، ولكنها كانت تهيم في النعمة ولا ترى السامعين. وبات عزائي الوحيد أنني أنتمي إلى العالم الغامض المُنوَّر بنور القمر.

٢٣

ثَمة علاقةٌ عجيبة بين حفني داود ونور القمر، ما هي؟ هو الذي يُسيطر على ظهورها واختفائها، ويرسم الحدود التي لا يجوز تخطِّيها، وهي تجيء وتذهب، تُغنِّي وتسكت، تنزوي وتصمت، بإملائه وتوجيهه، فأي قوة خفية يملكها هذا العجوز القرد؟! وإلى هذا كله فهي تتبدَّى هادئةً وسعيدة، لمَ لا؟ ما دام لا تبدُر منها بادرة غضب أو تمرُّد، وهو ليس أباها؛ فالقرد لا يُنجب ملاكًا، وليس زوجها وإلا لعُرِف ذلك على أوسع نطاق، ولا يُتصوَّر أن يكون عشيقها بقبحه وعجزه؛ فما سر هذه العلاقة العجيبة؟! وهَبْه ثريًّا فما قناعته بهذا المسرح الصيفي؟ لمَ لم يجعل منها نجمة من نجوم عماد الدين؟! ومهما يكن من أمر سيطرته عليها ألا يُشكِّل هذا الوجه الآخر لسيطرتها هي عليه؟! هذا مُؤكَّد فيما أرى، لا شك أنها القوة الحقيقية في هذه العلاقة الغامضة، وما جنيت حتى الآن من مغامرتي إلا زيادة في اضطرام عواطفي وهياج أحلامي وحوماني بجنون حول الخطوة التالية. إني أقبع في مجلسي، رفيقي قدح من البيرة مُكلَّل بالزبد، أُناجي طيلة الوقت أحلامًا طائشة. أتصوَّر أنها علمت بالمدير الجديد، عرفت اسمه وهُويَّته، لمحته مرةً أو أكثر، راقها مَنظره، لمَ لا؟ حدست السر وراء سعيه، وحتمًا سيُصاب حفني داود مرةً بوعكة تمنعه من المجيء، أو سينقضي أجله، أو أجد حيلة للتخلص منه، عند ذاك تنسرب أضواء الأمل في هذا الليل البهيم، وينفسح المجال أمام الحب ليصنع معجزاته، إني أتمزَّز البيرة، وأحلم، وأتذوَّق النشوة، أُعاني العذاب المُقدَّس، ومن ناحية تُلاطفني نسمةٌ مُفعَمة بأريج الياسمين.

٢٤

الظاهر أنني شغلت بال حفني داود كما شغل بالي، فعقب المحاسبة والتشطيب في ذات ليلة قال لي: لا تذهب.

فلبثت في مقعدي الجلدي لعبةً بيد الاحتمالات المُتناقضة، ونهض قائلًا: تعالَ.

خرج من الباب الخلفي وأنا ظله. رأيت الفورد قابعةً في الظلام المُتفشِّي عقب التشطيب وإطفاء الأنوار. فتح الباب الخلفي قائلًا: تفضَّل.

واتخذ مجلسه في المقعد الأمامي أمام عجلة القيادة. سرعان ما تبيَّنت وجودها إلى جانبه فكاد قلبي يثب من صدري. هكذا جاءت الخطوة التالية بلا سعي مني أو تدبُّر، جاءت كضحكة الشروق مُسربلةً ببهجةٍ سماوية، واندفعت تلقائيًّا إلى تحيَّتها فقلت: مساء الخير يا هانم.

فغمغمت بردٍّ غامض، وخِفت عواقب خرقي للتقاليد. ركَّزت بصري عليها لائذًا بالظلمة. تملَّيت رسم خلفية رأسها وأعلى منكبَيها، ميَّزت قبَّعتها العريضة وشَمْلتها المُطرَّزة بالترتر، وثملت بعطرها الفوَّاح. شبران هما ما يفصلان بيني وبينها. انسابت السيارة في الظلام مُمزِّقةً هدوء الحقول بأزيز مُحرِّكها. انسبت معها في بحر الهيام بأمواجه المُتلاطِمة وحواره الشجي. وددت أن أسمع صوتها وهي تُحادِثه أو أن تمتدَّ الرحلة إلى الأبد.

وجدت السيارة تدخل حي المنيرة؛ الحي الذي وُلدت وما زلت أقيم فيه. ودارت إلى شارع أصلان فوقفت أمام فيلا صغيرة مُكوَّنة من حديقة ودور واحد تقع خلف العمارة التي أسكن فيها مباشرة. لم أتمالك أن قلت بدهشة: إني أسكن العمارة خلف الفيلا مباشرةً.

فأجاب حفني بصوتٍ مُحايد أطفأ حماسي: عظيم.

أُدخلت إلى حجرةٍ أنيقة مُؤثَّثة على الطراز العربي. جلست على ديوان رانيًا إلى القنديل بإعجاب، مُناديًا إرادتي لجمع شتات فكري والسيطرة على هوج انفعالاتي. لبثت وحدي عشر دقائق، استقرَّ بقلبي خلالها إحساسٌ مُطمئن بالانتماء.

وجاء حفني داود في روبٍ صيفي مُزركَش مثل جدران الحجرة يحمل مِدفأة مُشتعلة الجمرات وجوزة. رمقتها باعتبارها أدوات صداقة وأُلفة. أتقع المعجزة وتهلُّ نور القمر بطلعتها السنية؟!

ذهب إلى الباب فأغلقه ثم اتخذ مجلسه بادئًا النشاط المعهود. خاب الأمل. صمتت بلابل السرور. ما الذي دعاه إلى استصحابي معه؟ رغم طعونه في السن فهو مُدخِّن شَرِه. جارَيته رغم نفوري الطبيعي من المُخدِّر. مهما يكن من عبثية الرحلة فقد اهتديت إلى المقام وأمسيت جليسًا لصاحبه. وإذا به يقول: لا شك أنك تتساءل عن سر الدعوة ولك حق، اعلم أني رجلٌ صريح وواضح، وأنت بدورك رجلٌ عسكري لا يُناسبه اللف والدوران.

فرنوت إليه مُتسائلًا فقال: المسألة تتلخص في الآتي؛ سفر إلى السويس، نزول في فندق الفردوس، يدخل عليك صباحًا خادم بالفطور، يترك في الحجرة لفةً مُعيَّنة، يذهب، تضع اللفة في حقيبتك، ترجع بالسلامة، توتة توتة فرغت الحدوتة.

إزاء كل عبارة تقهقرت ميلًا مُنغمِسًا في مُستنقَع الخيبة. تمتمت: تهريب؟!

– سَمِّه ما تشاء من الأسماء، أربع مرَّات في الشهر، مائة جنيه مكافأة عن كل مرة.

– لكنه تهريب.

– الشك لا يمكن أن يرتقيَ إلى شخصٍ محترم مِثلك.

– عندك ولا شك من يقوم بذلك خيرًا مني.

– أنت خير من يقوم به حتى يخرج صديقك من السجن.
فقلت باستياء: لن أكون مُهرِّبًا.
– ألا يُغْريك الثراء؟
– بلى ولكن الوسيلة يجب أن تكون شريفة.
– أنت حر طبعًا، ولكن العمل لا مساس فيه للشرف.
– هو كذلك في نظري.
– لعله الخوف؟!
فقلت بحدة: لست جبانًا.
– أنت حر يا أنور بيه.
وخطرت لي فكرةٌ ماكرة فسألته: أنت رجل محترم فلِمَ لا تقوم بالمهمة بنفسك؟
– وقتي لا يسمح بذلك.
فقلت بإصرار: لا أُحبُّ الأعمال المخالفة للقانون.
– أنا لا أعترف إلا بالقانون الإلهي.
– آسف جدًّا يا حفني بيه.
صمت. رجعنا إلى التدخين المُتواصل. تنهَّد أخيرًا وقال: على أي حال لنفترق أصدقاء.
ظننته يُطالبني بالانصراف فهممت بالقيام، ولكنه قال بسرعة: لا أعني هذا، أعني أنه عليَّ أن أختار مُديرًا جديدًا.
وقفت مادًّا يدي، صافَحني وهو يقول: فكِّر، إني مُنتظرٌ جوابك النهائيَّ غدًا.

٢٥

نجح في أن يُبقيَني صاحبًا حتى صباح اليوم التالي. إني مفقود بحسب التعبير العسكري. وقلت بصوتٍ مُرتفع في حجرة الجلوس بشقَّتي: لا ... لا ... لا.

إن يكن القرب نارًا فالبعد موت. ومهما يكن الثمن فلن أرتضيَ هجر «الواق الواق». فيمَ التردد وقد انتهى أنور عزمي من زمان؟! لقد هجر الأقارب والأصدقاء، تخطَّى العُرف والتقاليد، تمرَّغ في السمعة السيئة، حُمِل في سيارة الشرطة بين المومسات، يعمل في وظيفة بينها وبين القوادة نصف خطوة. فيمَ التردد؟ لمَ اللغو بمنطق العقلاء وأنت مجنون؟! حقًّا إني أتدهور إلى غير ما حد، ولكن ما أحوجني إلى رحمتك يا إله المُعذَّبين!

ومضيت إلى حجرة حفني فرمقني ببرود وتساءل: يبدو أنك اتخذت قرارًا؟
فحنيت رأسي في تسليم، فسألني: تُرى كيف تغيَّر رأيك؟

فقلت غاضًّا بصري: الثراء، أليس هو بالإغراء الكافي؟!

ورجعت إلى مجلسي بخاطرةٍ جديدة من الشك. هل فطن الرجل إلى غرامي بنور القمر؟ العاشق تفضحه أحواله. وهناك أيضًا حمودة المطَّلِع على سِري، وكان موسى القبلي كذلك قبله. ولعل العجوز لم يقبلني مُديرًا إلا لعلمه بحالي واعتزامه استغلالي إلى أقصى حد. لو صحَّت ظنوني فعليَّ أن أتوقَّع البطش بي لدى أول بادرة تهديد من ناحيتي، ولكن لعلها مجرد ظنون ووساوس لا أساس لها.

٢٦

ذهبت وجئت وقبضت. لأول مرة يمتلئ جيبي ويصير لي حساب في البنك، من أعماق الظلمات التي أتردَّى فيها صَعِد إليَّ شعورٌ مليء بالثقة والنشوة، ينتشر مثل الشذا الطيب، أملى عليَّ بأنني أسير في الطريق الصحيح وأنني بالغ شجرة طوبى؛ شعورٌ داخلي كنشوة الخمر، ذو قوة تتفتَّت حيالها صخورُ الواقع المُتحدِّية. ولم يكن مجرد شعور باطني فحسب؛ فالمنطق آزَره بطريقته الخاصة مُعتبرًا ما تردَّيت فيه من درجات السقوط مما لا يمكن أن يضيع عبثًا، ولكنه الثمن الفادح يؤدى مُقدَّمًا، وإن حسن الختام آتٍ لا ريب فيه. هكذا علَّلت نفسي بالأماني لأتزوَّد بالصبر وأُلطِّف من نذالة الجو. وحسبي الآن أنني أمكث في هالتها كل ليلة في الفورد مقدار نصف ساعة تُضاف إلى رصيد الوصلتين بـ «الواق الواق»، وحسبي أيضًا أني صِرت عضوًا خارجيًّا في الأسرة وجليسًا دائمًا في الحجرة العربية ومُغامرًا يحمل إليها كل أسبوع كنز نعيمها الوفير، ولديَّ بعد ذلك عزاء الإنسان — أحلامه المُتهوِّرة — التي تُحلِّق به في الفضاء بلا أجنحة.

وفي إحدى سهرات الليالي الزرقاء بالحجرة العربية سألته: لمَ تقنع بفصل نشاط محدود في ملهًى ثانوي بروض الفرج؟!

فأجاب باقتضاب: فيه ما يكفي.

– ولكنَّ ثَمة مُلحِّنين مُعاصِرين مُتفوِّقين وألحانًا جديدة جميلة وملاهي عامرة بعماد الدين؟

فثقبني بنظرةٍ كريهة وسألني: ماذا يهمُّك من ذلك؟

فرجف قلبي غير أنني ضحكت قائلًا: يبدو أنني أصبحت من رجال الأعمال.

فقال ببرود: كلا أنت موظف يا جنرال.

تضاعف حنَقي عليه، تمنَّيت تحطيم جمجمته، تساءلت: ألا تحب الذيوع والتوسع والشهرة؟

فأجاب بصوتٍ أبرد من الأول: كلا.

المسألة أنك أناني وجبان، حريص على حبس العصفور المُغرِّد في القفص، تخاف عليها من المُلحِّنين ومن الجمهور الحقيقي، ولكن لماذا لا تُحكِم قبضتك المعروقة المدبوغة فتُبقيها في الفيلا مثل جواري الحريم؟!

٢٧

الحياة تمضي في طريقها لا أجني منها إلا أمرَّ الثمرات، أحترق مثل الشمعة فيترسَّب ذوبي في ماءٍ آسن، وأُسرِّي عن نفسي فأقول لها إني خليفته، لا خليفة له غيري، ولكن هل أقنع بالصبر كالعجائز؟ ألا يجدر بي أنا المُغامِر بالتهريب أن أُغامر بالاقتحام؟! ولكن كيف وهو مُتصدٍّ لي مثل كلب الحراسة؟! حقًّا إني لمجنون، أسيرُ قوًى غامضة تترامى خيوطها حتى تتشابك بمدارات الأفلاك أو تنعقد في مركز الأرض. ويؤكد جنوني وأسري الحفيفُ والنسمة والخوار والضجة والتغريد والألوان والضوء وكل شيء.

وتتوقَّف الحياة فجأةً عندما تدقُّ الساعة الثامنة مساءً فلا يجيء الفورد كعادته كل ليلة ... انتظرت مُتابعًا عقارب الساعة. اقترب ميعاد الغناء فاتصلت بالفيلا بالتليفون. رد عليَّ صوتها: آلو.

– أنور عزمي ... ماذا أخَّركم؟

– لن نأتي الليلة.

– ولكن الجمهور مُنتظِر.

– تصرَّفْ ... مع السلامة.

قطعت الخط. وجدتني في دوَّامة من الابتهاج والانفعال والحيرة. إنه أول حوار يدور بيني وبينها وإن لم تُمازِجه نبرة طيِّبة أو كلمة مجاملة. أين حفني داود؟ لمَ لم يُبلِّغني بالأمر؟ لمَ لم يردَّ بنفسه؟

وكان عليَّ أن أُواجه الجمهور مُعتذِرًا عن غياب نور القمر.

٢٨

عند منتصف الليل وقفت أمام الفيلا بشارع أصلان؛ نائمة مُغلَّفة بالظلام ولا بصيص نور في الداخل. إنها تطرد الزائر بصرامةٍ مُوحِشة. مضيت إلى شقَّتي فلم يَطرُق عينيَّ نومٌ حتى الصباح. تُرى هل جاءت المعجزة؟ عمَّ ينكشف الستار الأسود؟!

ورجعت إليها حوالَي التاسعة صباحًا. سألت البوَّاب: حفني بيه موجود؟

أجاب الرجل: البيه مريض.

تصرَّفت كفرد من الأسرة فدخلت بثبات. وجدت في المدخل ممرضة فقلت لها: إني مدير أعمال حفني بيه ... كف حاله؟

– لعله أحسن.

– ماذا به؟

– تعب في القلب.

– هل أستطيع رؤيته؟

غابت دقيقة ثم رجعت وهي تُشير إليَّ بالدخول. رأيته راقدًا لا يبدو من الغطاء إلا وجهه. لمحت مخايل الموت في نظرة عينَيه الغائمة الخالية من نبض الحياة وهمومها. الحجرة خالية بخلاف ما توقَّعت.

– لا بأس عليك، شد حيلك.

أجاب بصوتٍ خافت: شكرًا.

– لن أُرهقك بالحديث.

– لا أهمية لذلك ... إنها النهاية.

أشار إليَّ بالجلوس على مقعدٍ قريب من الفِراش وقال: لم أتوقَّع حضورك.

فتساءلت في دهشة: كيف؟ ... لقد جئتك عند منتصف ليلة أمس، ولكني وجدت البيت نائمًا تمامًا.

قال باقتضاب: ذهبَت.

جفل قلبي، تساءلت: من؟

– لم تُضيِّع لحظة ... هربَت.

– نور القمر؟

– المُتوحِّشة.

فترت انفعالاتي كلها كشعلةٍ ضئيلة رُدمت بكوم تراب فلم أدرِ ماذا أقول، أما هو فقد تحطَّمت مُغالَبته وتدفَّق الاعتراف بلا ضابط.

– إنها عذراء، إنه الحب، إنه الجنون، أنت تفهم معنى ما أقول.

حدجته بنظرةٍ مُحرجة وبائسة فقال: توهَّمت وقتًا أنه أنت.

– أنا؟!

– إنك بريء، وأحمق مثلي، إنها ابنة المرحومة زوجتي، شبَّت تُناديني بالأبوَّة، ماتت أمها وهي عروس في السادسة عشرة، حاولت محاولةً يائسة ثم قرَّرت الاحتفاظ بها مهما كلَّفني جنوني، بسببها خسرت مشروع مدرسة أهلية كانت تُدرُّ عليَّ رزقًا لا بأس به.

وعيت كل كلمة، ولكن ما الفائدة؟ ... سألته: أين تظنُّها ذهبت؟

تجاهل سؤالي وواصل اعترافه: حصلت على المال بأي ثمن كما تعلم لأُوفِّر لها أسباب السعادة، أنشأت مشروع روض الفرج لأُشبع رغبتها في الغناء والفن، تجرَّعت العذاب ليلةً بعد أخرى، فعلت المستحيل.

تساءلت بِحيرة: ألم يكن بوسعها أن تتمرَّد عليك؟

– كلا.

– لمَ؟

وهو يتنهَّد: موهبة إذا شئت.

– أي موهبة؟

– في عيني، لا تفسير لذلك.

أيخرف الرجل؟ ... أيؤمن بالسحر؟ ... هل يتمتع بقوةٍ تسلطية خاصة؟

– بمجرد أن اقتحمني المرض طارت.

– متى؟ ... لقد ردَّت على مكالمةٍ تليفونية في منتصف التاسعة من أمس.

– لم تنتظر النهار ... ربما عند منتصف الليل أو عقب ذلك.

كان من الممكن أن أُصادِفها في موقف أمام الفيلا ... يا للحسرة المُعذِّبة ... وعُدتُ أتساءل: أين تظنُّها ذهبت؟

فتمتم: يا له من سؤالٍ أحمق!

٢٩

مات حفني داود في نهاية الأسبوع. أغلق «الواق الواق» أبوابه ولمَّا ينتهِ الموسم. توارت عن عينيَّ الحياة الجديدة بأضوائها وأُناسها فوجدتني منبوذًا خارج الأسوار؛ أنا وحبي الشهيد. هل خدعني الشعور الباطني الملهم كما خدعني المنطق؟! هل أرضى من الغنيمة بالإياب سالمًا من قبضة الشرطة؟ الحياة قفراء لدرجة الرعب. لا شيء ولا معنى ولا طعم، وهذا الإحساس المُتغلغِل في الأعماق بالإحباط والحزن وخيبة الأمل. هل أستطيع أن أُواصل

الحياة بخواءٍ شامل وقلبٍ مُعذَّب؟ وإني لأتحرَّى كلما وجدت إلى التحري سبيلًا. أستجوب بوَّاب الفيلا وحمودة وسنجة الترام. أغشى الملاهي ملهًى بعد ملهًى. أمشي في الأسواق والشوارع كالمُخبِرين. فعلت أكثر من ذلك. قصدت قسم المنيرة. ادَّعيت أن لي دينًا في عنق الفتاة المختفية. أعطيت أوصافها وما لديَّ من معلوماتٍ قليلة عنها، طالبت بمعاونتي في العثور عليها. اندفعت في كل سبيل بقوة جنوني وألمي.

ولما بلغ بي الألم حده الأعلى قرَّرت أن أُقاوم ما دمت أرفض فكرة الانتحار. تجنَّبت زنزانتي ما وسعني ذلك، ولكن قهوة المالية لم تشغل إلا بعض وقتي ولم تُجدِ كثيرًا في تسليتي. خطر لي أن أقامر؛ فالقمار يُنسي الإنسان النوم والطعام؛ فلعله يُبرئه من الحب. وجدت فيه مهربًا محمومًا، ولكنه لم يستطِع أن يستغرقني، وأساء إلى أعصابي إساءةً حملتني على إعادة التفكير. والتمست الشفاء في الكتب الروحية، ولا أُنكر أنها فتحت لي باب أمل، ولكنه لا يؤتي ثمرته بلقاء المحبوبة إلا بعد الموت، ويجعل من الحياة فترة تسهيد وتعذيب وانتظار. وخطوت خطوةً جديدة تمامًا فاستشرت طبيبًا نفسيًّا، قصصت عليه قصتي، رأيته يُصغي بعناية وحدب. ولما وجدته يرمق هيكلي الضخم قلت له مُردِّدًا قولًا قديمًا: منظري لا يُثير الرثاء.

فقال بجدية: إنك إنسانٌ مُعذَّب.

ثم واصَل بعد هُنَيهة: لا أعتقد أنك مريض إلا إذا اعتبرنا الحب مرضًا.

فسألته بتوسل: ألا يوجد علاج لحالي؟ ... أعني عقاقير مفيدة مثلًا.

– العقاقير مفيدة ولكني لا أنصح بها إلا عند اليأس.

– أظن أن حالي ميئوس منها تمامًا.

– ليس الأمر كما تصور ... إنك سجين ذاتك، وعلاجك في أن تخرج منها.

ارتبكت أمام أقواله فصمتُّ مُبتهلًا، فقال بوضوح: أنصحك أولًا بالزواج، أنصحك ثانيًا بالاندماج في نشاطٍ اجتماعي أو سياسي، إذا لم يُجدِ معك فلدينا آخر وسيلة وهي العقاقير.

بقدر ما أُعاني من ألم بقدر ما أُصمِّم على المقاومة، أزمتي تكشف لي عن جوانب ظلَّت خافية في نفسي بلا استغلال. زرت عمَّتي نظيمة وعالَنتُها برغبتي في الزواج. صادفتنا عراقيل غير يسيرة؛ السن مثلًا والمعاش المحدود وأجزاء من سيرتي الماضية، ولكن ثَمة نساءً فُضليات يُعانين ظروفًا سيئة ويُرحِّبن بالزواج بقلبٍ مُتسامِح وعقلٍ مُتفتِّح. وجدت بينهن أرملة في الحلقة الرابعة، أمَّا لفتاةٍ مُتزوجة، متوسطة الحال والمنشأ والتعليم، تُدعى

فائزة. جدَّدت شقَّتي بالترميم والتجديد والطلاء ثم استقبلت بها عروسي. الأمر بالنسبة لي علاج، في نظر عمَّتي رغبة في الاستقرار والإنجاب. ليس زواج حب، ولكنه زواج للشفاء من الحب أو تخفيف حدة جنونه، عناصره الأساسية الطِّيبة والمودة والتعاون والحياة النظيفة المطمئنَّة. سرعان ما لمحت مخايل الأبوة، تلقَّيتها بقلق وحب استطلاع ونوع من السرور، ولكن أسير الحب ما زال يرزح تحت أغلاله الصلبة. ثَمة شعور بالذنب كدَّرني أني في الحياة الأخرى سأُطلِّق زوجتي المُخلِصة لأتزوَّج من الأخرى. من يدري؟ فلعل زوجتي ترجع وقتذاك إلى زوجها المتوفى أو إلى من يروق لها من الأرواح الخالدة.

ثم خضتُ تَجرِبة الانتماء السياسي؛ تجربة مُثيرة للعب عندما يشرع فيها إنسان جاوَز الخمسين من عمره بلا انتماء حقيقي، غير أنني لم أكُن بلا انتماء؛ ألم يتقرَّر لي ميلٌ مُحدَّد مذ اشتركت في المظاهرة وأطلقت الرَّصاصة في فِناء مدرسة الشرطة؟ ولكن الوطن يموج بتيَّاراتٍ جديدة أيضًا؛ تيار ديني عنيف، تيار يساري مُتطرف، تيار فاشستي حاد. تحيَّرت طويلًا بين المبادئ. في كل واحد على حدة وجدت عنصر جذب وعنصر رفض، وبدافع من ميولي القديمة اتجهت نحو الوفد، وبخاصة نحو جناحه اليساري. فيه يطمئنُّ إيماني الراسخ بالله وحماسي العقلي الجديد للعدالة الاجتماعية، وهو محطة تأمُّل حتى أكتسب مزيدًا من الخبرة والضوء وأُفيد في الوقت نفسه من نفوذ الحزب الشعبي. سرعان ما انضممت إلى لجنة الوفد بالمنيرة. انغمست في الزوجية والسياسة. رغم ذلك ظل الأسير الكامن فيَّ يُناضِل سلاسله. طالبت بترشيحي في الانتخابات، ولكن مطالبتي رُفضت لحداثة عهدي الرسمي بالوفدية. رشَّحت نفسي على مبادئ الوفد. وجدتني أُنافس مُرشَّح الوفد الرسمي ومُرشَّحًا آخر من الإخوان. وعند احتدام المعركة وُزِّعت منشوراتٌ غريبة استهدفت نسفي تمامًا، فيها كلام عن محضر الشرطة إثر القبض عليَّ في بيت موسى القبلي، وكلام عن وظيفتي كمُدير لـ «الواق الواق»، وتعليقات ساخرة وجارحة. وخسرت التأمين، ولكني كعادتي توثَّبت بكل قوتي لمواصلة المعركة السياسية؛ خطبت، حرَّرت في الصحف، وثَّقت علاقتي بالزعماء، تبرَّعت من مدَّخَرات التهريب للجهاد. مضى الأسير على مضيِّ الأعوام يتخفَّف من آلامه ويتحول ألمه إلى أسًى مُقدَّس وهادئ لا يموت ولا يحيا بعنف وعربدة.

وفي صيف أحد الأعوام سافرت ضِمن وفد برلماني إلى مؤتمر البرلمانات العربية ببيروت. وفي ذات ليلة، في رحاب الجبل الأخضر والينابيع العذبة، وجدتني أمام نور القمر. كنت وبعض

أعضاء الوفد في جلسة سمَر تضمُّ صحفيًّا لبنانيًّا عائدًا لتوِّه من باريس. تحدَّث بحماس عن مُغنِّية من أصل مصري، تشدو بأغاني «فرانكو أراب» وتُحقِّق نجاحًا مُتواصلًا تنبَّأ له بالعالمية، تُدعى نور القمر.

زُلزِل قلبي لدى ذكر الاسم بعنف يقظة كاسحة. اندفعت في مجال التذكر والاستجواب مُتحررًا من الجاذبية. انقلبت طفلًا يلهو باللعب العقيمة والأحلام المُتهوِّرة ويُناجي مرةً أخرى المستحيل. وعلمت من الصحفي أيضًا أن مدير أعمالها يرسم خطة لرحلة فنية لها، لزيارة القارة الأوروبية كخطوة أولى، فبادرت — في الفندق — إلى تحرير رسالة لها، قلت:

«عزيزتي الفنَّانة الكبيرة نور القمر،

هل تَذكُرين أنور عزمي مدير «الواق الواق»؟ … لقد جاءتني أنباء نجاحك في مكان لم تخطر لي من قبلُ زيارته، وعند رجل لم أتصوَّر أن أعرفه يومًا أو أن يمدَّني عنك بخبر، وقد سعدت بنجاحك سعادةً يعجز القلم عن وصفها، سعادة موصولة بتراث قديم من الإعجاب والحب لك في قلبي. أملي أيتها الفنَّانة الكبيرة أن تضعي مصر في أعز مكان من رحلتك الفنية المُقبِلة؛ فهي الأصل، وفيها أول قلب نبض بحبك.»

وفي مصر تلقَّيت الرد على عنواني باللجنة. الحق أنه لم يكن ردًّا بالمعنى المفهوم، كان كارت بوستال تتألَّق فيه صورتها الخالدة، وعلى ظهره دُوِّن بخط اليد:

تحية شكر وتقدير.

نور القمر

جعلت أقرأ المُدوَّن بعناية. كلا لم أسعد به السعادة المُتوقَّعة. ليست رسالةً شخصية من أي نوع كان. إنه أكلشيه للرد على المُعجَبين. لعلها أمرت بإرساله دون الاطلاع عليه ولا حتى إمضائه، إنه يدفعني إلى عالم الأرقام والتجريد ويتجاهل عواطفي وآلامي المقدسة، ولكن ها هي صورة لنور القمر بين يدَي، بكل بهائها وعذوبتها، بين يديَّ رغم انشغالها الواضح بمجدها ورغم حيادها القاسي إزاء المُعجَبين.

سأحتفظ بالصورة ما حييت. ومن يدري؟ … فربما رجعت صاحبتها ذات يوم إلى مصر للزيارة أو الإقامة. ماذا يعني هذا بالنسبة لي؟ لا أدري أيضًا، ولا أحب أن أحسم

الموضوع بفكرةٍ مُحدَّدة لن أجنيَ من ورائها إلا العذاب. وإذا داخَلني شكٌّ ذات يوم في حقيقة مغامرتي العجيبة فما عليَّ إلا أن أستخرج الصورة من حافظتي، وعند ذاك تنطرح أمامي الحياة بكل ألوانها المتضاربة، وما يندُّ عن مفاتنها من جنون مُقدَّس.

أهل القمة

١

قبيلة من النساء. خاطرة تُراوِده كثيرًا وهو ينظر نحوهن. سفرة الغداء معدَّة، مُغرِية للجائع. الصحاف والملاعق والشوك والسكاكين، وعاء البلاستيك المملوء بأرباع الأرغفة، الدورق والأكواب ... هُرِعت زهيرة إلى المطبخ لتُحضِّر الطعام. من باب الشُّرفة المفتوح لاح ميدان السكاكيني والجانب الأبعد من البستان الذي يتوسَّطه تحت سماء الخريف المنقوشة بسحائب بيضاء مُتناثرة ... نزع قبَّعته وألبسها فازةً فوق البوفيه واتخذ مجلسه، فعلت هامته بصورةٍ ملموسة فوق مستوى المائدة لطوله الفارع. جاءت زهرة بأواني الطعام، بالكوسة والشواء والأرز والمخلل. تحلَّقت النساء السفرة، سناء زوجته (٣٠ سنة) ... وكريماته الثلاث؛ أمل (١٠ سنوات) ... سهير (٨ سنوات) ... لمياء (٦ سنوات) ... زهيرة شقيقته (٤٠ سنة وتكبره بخمس سنوات) ... كريمتها سهام (١٧ سنة).

تناول خيارةً مُخلَّلة فدمعت عيناه السوداوان الصافيتان. ما أمهر شقيقته زهيرة! طاهية ماهرة؛ تُضفي على الطعام لذةً تُعوِّض ما ينقصه من ترف. يتجنَّب الثناء عليها إشفاقًا من إثارة سناء، يتحاشى قوتها أو بالأحرى عصبيَّتها. إنه قوي في القسم، أمام الخارجين على القانون، ولكنه يتحلَّى بالحكمة في شقته. السخط لا يُفارِق سناء منذ اضطُرَّت زهيرة وابنتها للإقامة معه. ورغم أنها تقوم بأعباء البيت كلها، رغم أنها تعمل كطاهية وخادمة، فإنها لم تستطِع أن تفوز برضا سناء. لسهام كريمة أخته جمالٌ بديع، «إنه يحب جمالها»، لم تحظَ بمثله كريمة من كريماته، رغم أن سناء لا بأس بها، وهو أيضًا لا بأس به، رغم ندبة في صدغه الأيسر من مسِّ رصاصة نجا منها في أثناء مطاردة عصابة في الدلنجات.

انتظمت السفرة حركة نشيطة في جو يسوده الصمت حتى خرقته سناء بصوتها الرفيع: عندنا أخبار.

فتساءل في توجس: ماذا عندكم؟

– بعد الانتهاء من الطعام.

حدثت مشاحنة من المشاحنات التي لا تنتهي. زهيرة وسهام يمكثان هنا بلا ترحيب. لمَ لا يعترف بأنه هو نفسه لا يُرحِّب بالزحام وأنه يُعاني منه من الناحية الاقتصادية، ولكن الواجب هو الواجب. انقلبت الشقة فأصبحت ثلاث حجرات للنوم ... ألغى كارهًا حجرة الاستقبال وأحلَّ مكانها السفرة ... وجعل من الصالة الصغيرة حجرة استقبال وجلوس. يومها قالت سناء: بيتي تهدَّم.

فتساءل بامتعاض: هل أرمي بهما في الطريق؟

– لمَ لم تذهب إلى أحد من أخواتك؟

– لا متسع لها، وكيف تذهب إلى بيت رجل غريب وأنا موجود؟!

– أنت ضابط ... ابحث لها عن شقة ... ولها معاش الأرملة.

فضحك ساخرًا وقال: شقة في هذا الزمان! ... أما المعاش فهو بضعة جنيهات ... لقد مات المرحوم بعد خدمة قصيرة.

– وما ذنبي أنا؟!

– لا حيلة لي أو لك.

من بادئ الأمر شعرت زهيرة بالحرج أكثر مما شعرت بالترمل. ومما يزيد الأسى أنها كانت في زواجها مُوفَّقة ... ولكن الموت عاجله. إنه يدرك تمامًا. يعرف أنها على يقين من أنها غير مرغوب فيها ... لا هي ولا ابنتها الجميلة. وسناء عصبية، لا تُحسِن إخفاء مشاعرها أو لا يهمُّها ذلك. ولم يُخفِّف من حدتها إقبال زهيرة على العمل اليومي الشاق. وطالبتها بالمعاش، ولكن زهيرة قالت بذل: إنه تافه، ولا بد من أن تظهر سهام بمظهرٍ لائق في المدرسة ... وأنا أيضًا ... وهو لا يكاد يفي بهذا أو ذاك.

ولاحظ أن شقيقته مُستوصية بالصبر والاستسلام ... تسمع وتتجاهل ... تتلقَّى الأحجار صامتةً واجمة ... تُحذِّر كريمتها من الانفعال، وأدرك أن سهام مُتمردة نوعًا ما. وقد نما إلى أُذنَيه يومًا صوت سهام وهي تقول لأمها: متى أُنقذك وأُنقذ نفسي؟

فتقول الأم: زوجة خالك لها عذرها، ألم تكن لطيفةً قبل أن نُضطرَّ للإقامة معها؟

– لكن خالي ... إنه ممتاز ولكنه ضعيف.

– ليس المفروض أن يكون ضابطًا في بيته أيضًا ... الغلاء نار يا سهام، كان الله في عونه.

وأشد ما يُزعج سهام هو موقف سناء من مستقبلها. قالت يومًا لزهيرة على مسمع منه: متى ما حصلت سهام على الثانوية العامة فعليها أن تعمل.

ولم تُحِر زهيرة جوابًا، أما سهام فقالت: هذا يعني ضياع مستقبلي.

فقالت سناء بحدة: إنك لا تُدركين حقيقة الوضع.

فقالت زهيرة: لمَ نتعجَّل الأمور؟

فقالت سناء بغضب: نحن نُربِّي ثلاث بنات، نحن نُعاني، عليك أن تفهمي ذلك.

فقالت زهيرة باستسلام: لتكُن مشيئة الله.

وكان محمد فوزي — الضابط — يقول لنفسه إن القبيلة مُمزَّقة ... ما منهن واحدة إلا وهي ظالمة ومظلومة ... الحياة تبدو أحيانًا لعنةً طويلة. ويتذكر كم أحبَّ أخواته فيما مضى وخاصةً هذه الأخت. وهي ليست أسوأ حظًّا منهن ... كلهن مُتعبات ... ووراء كل سرب من الذكور والإناث.

وتقول له زوجته سناء مُتحديةً: عليك منذ الآن أن تستعدَّ لزواج بناتك.

فيتساءل ضاحكًا: من الآن يا سناء؟

– عليك أن تشتريَ شقة لكلٍّ منهن.

فيضحك ضحكةً عالية ويهتف: أتحدَّى وزير الداخلية أن يفعل ذلك.

– ألا تسمع عن الذين يحتفلون بالزواج في هيلتون وشيراتون؟

– كما سمعت عن أغا خان رحمه الله.

ويُداعب أمل كبرى بناته ثم يتساءل: ماذا ندري عن الغد؟!

٢

عقب الغداء جلسوا في الصالة، وسأل محمد زوجته: ماذا عندكم من أخبار؟

ساد صمتٌ غامض كأن كل واحدة تدعو الأخرى للكلام، وقالت زهيرة: أحدهم يطلب خطبة سهام.

ارتسم الاهتمام في صفحة وجهه الأسمر. هذا الخبر قد يعني نكتةً سخيفة، وقد يَعِد بفرجٍ غير مُتوقَّع: من هو؟

– من نفس الحي، طالب بكلية العلوم، يُدعى رفعت حمدي.

نكتةٌ سخيفة لا فرج قريب كما يُوحي به الجو. تساءل: ماذا تعرفون عنه أيضًا؟

فقالت زهيرة: أسرةٌ طيبة.

فقالت سناء: ولكنها فقيرة.

فقالت زهيرة: سيكون مُوظَّفًا بعد ثلاثة أعوام، وتكون سهام قد وجدت عملًا أيضًا.

فقالت سناء: الجملة ثلاثون جنيهًا على أكثر تقدير.

فتساءلت زهيرة: هل نتجاهل سعادتها؟

فقال محمد فوزي مُتهربًا: أعطوني فرصة للتحرِّي والإحاطة.

فقالت سناء: المسألة واضحة، لن يملك مهرًا، لا بد من جهاز ولو حجرة واحدة، ثم لا بد من شقة، لسنا في زمن العواطف، وهذا يجب التفكير فيه من الآن.

فقال محمد مُتحرِّجًا: أعطوني فرصة.

وعند ذاك قالت سهام بجفاء: فلنعتبر الموضوع مُنتهيًا.

فرمقها خالها بحنان وسألها: لا شك أنك تعرفين أكثر مما نعرف؟

– أبدًا.

– أودُّ أن أسمع رأيك يا سهام.

– لقد أوضحت أبلة سناء الحقيقة.

فقالت سناء: ربنا يرزقك برجل قادر، لا فائدة من الشباب، هذا رأيي.

فقال محمد مُجاملًا: المهم رأيك أنت يا سهام.

فقالت سهام بضيقٍ واضح: لا رأي عندي يا خالي.

– العواطف وحدها لا تكفي.

– نعم.

– إني على استعداد لفعل ما تُشيرين به.

فقالت سناء: سهام جميلة وسوف تسنح لها فرصةٌ أطيب.

وسألته زهيرة: ما رأيك أنت يا أخي؟

فتفكَّر قليلًا ثم قال: رأيي أن تُصارحه سهام بما سمعت وتسمع رأيه.

فقالت سناء: معقول هذا الرأي.

هنا غادرت سهام الصالة إلى حجرتها، أما زهيرة فاغرورقت عيناها على رغمها.

سألتها سناء: هل أخطأنا؟

وبادَرها محمد: سأفعل ما تُشيرين به.

فقالت زهيرة: لا خطأ هناك البتة ولكني حزينة. البنت راغبة في التعليم ولن يُتاح لها ذلك، وراغبة في الشباب ولن يكون نصيبها. لا خطأ هناك ولكني حزينة.

٣

قرَّب مقعده من نافذة تُطلُّ على ميدان السكاكيني ليستردَّ أنفاسه. أي حظ هذا؟ إنه غير راضٍ عن نفسه ولا عن أي شيء. وحسن ألا يكون شابًّا. إنه زمن المودِّعين، ولكن ... وانقطعت أفكاره فجأةً. استقرَّت عيناه فوق البستان. هذا الوجه يعرفه تمامًا، كان صاحب الوجه يتربَّع على الحشائش مُسنِد الظهر إلى جذع نخلة. هو هو دون غيره؛ زعتر النوري. ماذا جاء به إلى هنا؟ هل يتربَّص به الأحمق؟ ... لا ... لا ... ثَمة سببٌ آخر. شعره حليق، ما زال حليقًا. مفهوم. لن أُمهله.

تناول قبعته وغادَر الشقة.

بعد دقيقة واحدة كان يقف أمام المتربع. وثب الرجل واقفًا مُتهلِّل الوجه. طويل القامة ولكنه دون محمد بقبضة. وجهه نحيل طويل ... حادُّ البصر ... نابت شعر اللحية ... يرتدي بلوفرًا بنيًّا قديمًا وبنطلونًا رماديًّا رثًّا وصندلًا. ابتسم عن أنيابٍ قوية مُلوَّنة وهتف: أهلًا بحضرة الضابط العظيم.

فسأله محمد فوزي: متى خرجت من السجن؟

– خرجت من السجن الذي دخلته بفضلك منذ شهر واحد.

– وماذا جاء بك إلى هنا؟

– جئت لأشمَّ الهواء النقي؟

– اسمع يا ابن الثعلب، ماذا جاء بك إلى هنا؟

فقال باسمًا: لماذا تكرهني يا محمد بك؟ ... لولاك ما كان الجن الأحمر نفسه يستطيع ضبطي مُتلبسًا ويُدخلني السجن. إنك ضابطٌ شريف ولكن ربنا أمر بالرحمة، ولا تنسَ العلاقة الحميمة التي تجمع بين الضابط والنشَّال، نحن معروفون لكم من قديم، نحن نتبادل التحية، وفي بعض حوادث النشل الحرجة تُطالبني بردِّ الشيء الثمين فأستردُّه من صاحبه خدمة لك. عظيم. أين الرحمة إذَن؟

فسأله بصرامة مُتجاهلًا مرافعته: لماذا تجلس أمام مسكني؟

– صدِّقني فإني أحبُّ هذه الحديقة.

– زعتر، حذار من المزاح.

– عظيم يا حضرة الضابط العظيم، فلأبحث عن حديقةٍ أخرى.
وتفحَّصه بدقة مليًّا ثم سأله: كيف تحصل على رزقك؟
– حتى الساعة لا رزق لي.
– هذا يعني أنك مُتشرد؟
– كلا.
ثم وهو يضحك: لا مؤهل لي، والحكومة لا تستخدم إلا ذوي المؤهلات.
فهتفت به: حذارِ من المزاح يا زعتر.
فقال زعتر بجدية: يلزمني رأسمال يا حضرة الضابط.
– هذا ليس من شأني، وإذا عثرت عليك مرةً أخرى بلا عمل فسوف أقبض عليك كمُتشرد.
– الله معنا.
– ادعُ الشيطان فهو إلهك.
– أستغفر الله رب العالمين.
– أجِبني، ماذا أنت فاعل؟
فتنهَّد قائلًا: سأبحث عن عمل.
فقال بهدوءٍ مُخيف: ابعد عن وجهي قبل أن أُقرِّر القبض عليك.
رفع زعتر يده تحية ومضى في خطوات سريعة كأنه مشترك في سباق المشي. وقف محمد فوزي يتبعه بعينَيه حتى واراه شارع ابن خلدون.

٤

حظه من النجاح في قسم الشرطة أضعاف حظه منه في بيته، إنه ينتصر عادةً على اللصوص والنشَّالين، ولكنه ينهزم في غشاء الهموم العائلية. وقد أبلغته زهيرة أن الشاب رفعت حمدي يرجو لقاءه فرحَّب بذلك. واقترحت أن تحضر سهام اللقاء فلم يُمانع. ولأنه لا يوجد في الشقة مكان استقبال مُناسب فقد تم اللقاء في حديقة الشاي بحديقة الحيوان. وجده شابًّا معتدل القامة بشوش الوجه واضح الرجولة. قال لنفسه ومن واقع خبرته العريقة إنه يوحي بالثقة ويمكن التفاهم معه. قال الشاب: إني معجب بشخصية آنسة سهام، جادَّة ومحترمة، وحضرتك رجل ذو سمعة طيبة جدًّا.

فشكره محمد فواصَل حديثه: ما يهمُّ العلاقةَ المقدسة متوفرٌ لدينا.

فابتسم محمد قائلًا: للأسف الشديد فإنه تُغطي ظروفٌ جانبية على الشروط الجوهرية.

فقال الشاب بحماس العاشق: علينا أن نتغلب عليها.

– هات ما عندك.

– أمامي ثلاثة أعوام، عملي مضمون في التدريس أو المعامل.

– لعل التدريس أفضل فيما يُقال.

– وأمامي فرصة للعمل في الخارج أيضًا.

– جميل ذلك، ولكن يجب أن تعلم أننا لا نملك تكاليف الزواج.

– أعرف ذلك، المهم أن تُكمل سهام تعليمها.

– زدني إيضاحًا.

– إنها أيضًا ترغب في دراسة العلوم، وستجد فرصة للعمل في الخارج.

دخلت سناء زوجته في إطار الجلسة، فقال بحزم: ظروف حتمية توجب علينا توظيفها حال حصولها على الثانوية العامة في نهاية العام.

– ألا يمكن …

فقاطَعه: غير ممكن. إني آسف.

فتفكر رفعت مليًّا مغمومًا ثم قال: فلنُعلن خطبتنا الآن، ولنؤجل الهموم للمستقبل.

وكان محمد يلحظ سهام من آن لآن ويقرأ موافقتها الصامتة، ولكنه لم يرَ بدًّا من أن يقول: تصرفٌ غير مقبول.

– لماذا؟

– إنه يعني انتظارًا طويلًا وغير مضمون العواقب.

– أرى أنه ما دامت النية الطيبة مُتوفرة فالعقبات تذوب عادة.

– لا أُشاركك الرأي، سهام كريمة شقيقتي، ولا أريد أن أُعلِّق مستقبلها على المجهول.

– إنه ليس مجهولًا.

– ولكن عندي رأي أفضل.

– ما هو يا سيدي؟

– أن يسير كلٌّ منكما في سبيله دون التزام بعلاقةٍ ما، أنا شخصيًّا لا أحب الخطبة أن تطول بلا حدود، فإذا وُجدت ظروفٌ ملائمة في المستقبل فلا بأس من الموافقة عند ذاك.

فقال رفعت حمدي بقلق: قد يتقدم لها في أثناء ذلك رجلٌ ما.

– أُصارحك بأنني سأعمل ما أراه في صالحها و...

وتوقَّف مُتمهلًا ثم قال عادلًا عما كان في نيَّته قوله: ما أراه في صالحها.

فقال رفعت بهدوء: أظن من الإنصاف احترام رأيها.

– طبعًا ... طبعًا.

وساد صمتٌ مُثقَل بالخيبة ... وكانت سُحبُ الخريف مُنبسطة فلم يهبط من الشمس شعاعٌ واحد، غير أن البرودة كانت وانيةً مُحتملة ... وابتسم محمد فوزي وقال: هناك رجاء لا مَفرَّ منه.

فنظر إليه الشاب مُستفهمًا، فقال بحزم لا يجد مشقة في دعوته في أي وقت: ألَّا يقع بينكما في الهدنة المقترحة لقاء من أي نوع كان.

لحظ الرجل سهام في طريق العودة مرَّات ... قال لنفسه إنها ستجهش في البكاء حالما تنفرد بنفسها ... لعن نفسه ... ولعن أشياء كثيرة.

٥

كان مُنفردًا بنفسه في مكتبه عندما استأذن زغلول رأفت في مقابلته ... نهض باهتمام فاستقبله عند الباب. شدَّ على يده باحترام، وأجلسه أمام مكتبه وهو يقول: شرَّفت يا أفندم.

الرجل في الأربعين، ولكنه يتمتَّع بحيوية شاب في العشرين ... بَدِين مع ميل إلى القِصر، كبير القسمات، داكن السُّمرة ... معروف أنه رجل أعمال، وأنه ذو صلات، ويتردد اسمه أحيانًا عند التبرع لمشروعاتٍ خيرية في الحي.

قال الرجل بصوتٍ مبحوح قليلًا: كان يجب أن نتعارف من قديم؛ فأنت ضابط ذو سمعة هائلة.

– كانت ستكون فرصةً سعيدة لمعرفة وجيه من مُحبِّي الخير.

– شكرًا، ها هي الفرصة ولكنها ليست سعيدة.

وضحك، فابتسم محمد فوزي وقال: حادثٌ سخيف؟

– ثمنه عشرة آلاف.

وقدَّم سيجارة؛ فلما اعتذر لعدم التدخين أشعلها وقال: نُشلت حافظة النقود، بمائة جنيه غير الفكة، ولكن توجد بها علَّاقة مفاتيح ذهبية وذات فص من الماس.

فتساءل محمد: كيف يُنشَل رجل مثلك؟ ... لا بد أنك كنت في حفل.

– هو ذلك ... في جامع القبة الفداوية.

– آه.

– أعتقد أنه ليس من الميسور بيعه إذا وزَّعنا نشرة بأوصافه.

– سنفعل ذلك على سبيل الحيطة، ولكن النشَّال يبيعه بثمن بخس لمن يُصادفه.

فقال الرجل مُبتسمًا: إنه عزيز لأسبابٍ شخصية. ما نسبة الأمل في استرداده؟

فقال محمد فوزي باسمًا ابتسامةً أسيفة: لا سبيل إلى نشَّال إلا إن ضُبِط مُتلبِّسًا. نحن نعرفهم ولكن من أين لنا الدليل، وثَمة تنبيهاتٌ مُتلاحقة بوجوب احترام القانون.

– إذَن أقول عليه العوض؟

– توجد وسيلةٌ مُجرَّبة في الأحوال النادرة. أعطِني فرصة أربعًا وعشرين ساعة.

– وإذا لم تنفع؟

– سنسير في الإجراءات العقيمة.

– لكم ولا شك وسائل سحرية أقرأ عن أخبارها أحيانًا في الصحف.

٦

أمر الضابط باستدعاء زعتر النوري ... جميع المخبرين يعرفون مقهى النشَّالين المعروف بمقهى حنش في خلاء الحدائق فيما تتَّصل بالحقول، وهو الذي أطلق عليه المعلم حنش اسم «مقهى الأمراء» بعد الثورة ... ودخل زعتر حجرة الضابط تبوح عيناه الحادَّتان بنظرةٍ قلقة مُتوجِّسة وهو يقول: ستجعلني لعبتك يا حضرة الضابط؟

لم يرفع رأسه عن أوراق بين يدَيه. تركه وحده في دوَّامة التوقعات المُزعِجة. قال زعتر: أعطِني فرصة.

نظر إليه ببرود وسأله: أعتقد أنك مُصمِّم على تغيير حياتك، قد أصبحت من المُصلِّين.

– نعم؟!

– رآك البعض وأنت تؤدي فريضة الصلاة.

– أنا ما دخلت جامعًا قطُّ طيلة حياتي.

– جامع القبة الفداوية.

– سيدي الضابط أنا لا أفهم شيئًا.

– ولا أنا.

– أنا تحت أمرك.

قال بهدوء: أريد علَّاقة المفاتيح.

تراجَع رأسه قليلًا. اختفت نظرة القلق. أدرك أنه مطلوب لمفاوضة. تشجَّع قائلًا: أي علَّاقة مفاتيح؟

– نحن نفهم بعضنا يا زعتر.

– مذ خرجت من السجن وأنا أعيش عالة على المعلم حنش.

– نَشْل حافظة الوجيه زغلول رأفت عملٌ لا يُقدِم عليه سِواك.

فابتسم زعتر وقال: إنك تطلب مساعدتي.

– حذار من الغرور.

– لقد قدَّمت أكثر من خدمة، ولكن صدري ينقبض في جو القسم.

– لا تخشَ شيئًا. إنك تعرف ما تعنيه كلمتي.

– كلام رجال؟

– نعم يا ابن الثعلب.

– عظيم ... لنبدأ من الأول، ماذا تريد؟

– علَّاقة رأفت زغلول.

– لم أنشلها.

– لا أصدِّقك.

– أُقسم لك بشرفي.

فضحك محمد فوزي قائلًا: يا ابن الثعلب.

– أُقسم لك بشرفك أنت.

قال الضابط بحدة: عليك اللعنة، أتعرف ما يعنيه هذا القسم؟

– أعرف.

– فمن نشلها؟

فهزَّ رأسه قائلًا: سؤالٌ غير جدير بذكائك.

– عندك علم بالموضوع؟

– غير جدير بذكائك أيضًا.

فنظر إليه مُقطِّبًا وقد اكفهرَّ وجهه.

قال زعتر: يلزمني وقت للعمل.

– متى تُحضِرها لي؟

– لا أدري، وربما ضاعت إلى الأبد.

– اسمع يا ابن الثعلب ...
– أعدك بأني سأبذل جهدي.
– في ظرف يوم.
– على الله الجبر.
تمهَّل الضابط قليلًا ثم قال: ربما نالك خير، الرجل ثري لدرجة الخيال.
قال زعتر بحماس: لا يهمُّني المال، ما يهمُّني حقًّا هو خِدمتك.
تمتم محمد فوزي باسمًا: يا ابن الثعلب!

٧

المفاجأة أن زعتر طرَق باب الضابط عصر اليوم التالي. كانت سهام هي التي فتحت الباب، وهي التي أبلغت خالها بقدوم زائر يُدعى زعتر. انفعل محمد انفعالًا شديدًا ولعنه ألف لعنة، غير أنه اضطُرَّ لاستقباله ومجالسته في الصالة، بل وقدَّم له القهوة. بدا زعتر مُفعَمًا بالحيوية والسعادة. قال: لا تؤاخذني على حضوري إلى بيتك؛ إذ إنني أكره القسم.

– ماذا فعلت؟
دسَّ يده في جيبه فاستخرج منه العلَّاقة والمحفظة. تمتم محمد: والنقود أيضًا؟
– عن آخر ملِّيم، إذا لم تكن في الاتفاق فدعها لي.
فقال محمد مُداعبًا لأول مرة: الغنى غِنى النفس.
فقال الآخر بتسليم: أمرك.
– من الذي نشلها يا زعتر؟
– لماذا تسأل يا حضرة الضابط؟
– العلم بالشيء ولا الجهل به.
فابتسم الآخر قائلًا: لم أخُن زميلًا في حياتي.
– حقًّا؟! ... يا لك من رجلٍ عظيم في الشر.
فضحك زعتر واشتدَّ لمعان عينَيه وقال: وشرف ربنا لولا الحظ السيئ ...
– هه ... لكنت من رجال الأمن؟
– كلا ... لا يُعجبني عملك.
– حقًّا؟ ... ولِمَه؟
– أقول لك، إنك تُطارِد اللصوص لحساب الحكومة بينما الحكومة أكبر لص في الدولة.

– يا ابن الثعلب!

– إنكم تكرهون قول الحق يا محمد بك.

– هه ... إذَن ماذا تُفضِّل من المهن؟

فتفكَّر قليلًا وقال: أقرب عمل لعملي الراهن أن أكون مدير بنك.

فلم يتمالك محمد فوزي نفسه من الضحك، فقال زعتر: أريد رغيفًا محشوًّا باللحم المُحمَّر.

– طلب غير هيِّن، ولكن سيكون لك ما تريد.

فقال زعتر وهو يتنهَّد: ورغم العيش والملح سترجعني إلى السجن غدًا إذا وقعت في قبضتك؟

– طبعًا ... لا مَفرَّ من ذلك.

– الأمر لله ... من صاحب العلَّاقة؟

– زغلول رأفت من رجال الأعمال والبر.

– رجل أعمال؟ ... طبعًا لص، ولكن ما تخصُّصه؟

– كل الناس عندك لصوص؟!

– اسمع يا محمد بك ... ستندم ذات يوم على تمسُّكك بالشرف.

– على فكرة يجب أن أزفَّ إليه البشرى.

وأدار قرص التليفون: زغلول بك رأفت؟

– ...

– مُبارك ... العلَّاقة والحافظة معي.

– ...

– وهو أيضًا موجود.

– ...

– ولكن ... فكِّر قليلًا ... إنه قادر على أن يخطف الكحل من العين.

– ...

– إلى اللقاء يا إكسلانس.

والتفت نحو زعتر قائلًا: إنه مُصمِّم على رؤيتك.

فقال زعتر باهتمام: تحت أمره.

– كن عاقلًا ... وكن حكيمًا أيضًا في الإفادة مما يجود به عليك.

– طبعًا ... ولن أنسى المالك الشرعي للمحفظة.

– المالك الشرعي؟
– الذي نشلها يا محمد بك.

فابتسم الضابط وقال: احذر أن تجعلني أندم على الموافقة. الحظ يفتح لك بابًا شريفًا يا زعتر ... والآن دعني أُعدُّ لك الرغيف.

ولكن زعتر نهض في لهفة وقال: لا تضيِّع الوقت. شكرًا. بنا إلى الرجل، وسوف أشتري اللحم بنقودي الحلال لأول مرة.

٨

مضت حياة الضابط بهمومها الشخصية وتوفيقها العام. البيت يسوده غالبًا التوتر، وقد استغرقت سهام في دراستها ولكن في تعاسةٍ ملحوظة. من يدري؟ فقد ينتصر الحب في النهاية، سيَجد لسهام عملًا في نهاية العام، وسينضمُّ مُرتَّبها إلى معاش أمها، وربما حقَّق رفعت حمدي حلمه، وهاجرت الأسرة الجديدة — سهام، رفعت، زهيرة — إلى الخارج مجبورة الخاطر. عند ذاك يطمئنُّ على أخته وتحظى أسرته بالاستقلال وتستكنُّ أعصاب سناء زوجته. ما أجمل الأحلام المُلطِّفة للآلام!

وحصلت سهام على الثانوية العامة، وراح يسعى لإلحاقها بعمل، ولكن التوفيق في ذلك بدا بعيد المنال. وفي ذلك الوقت جاءه المخبرون بنبأ مُثير، وهو أن مقهى الأمراء أو مقهى النشَّالين قد خلا منهم. وكان قد لاحَظ قلةً ملموسة في حوادث النشل، حتى مضت أشهُر لم يتلقَّ فيها بلاغًا واحدًا. وأمر بالبحث عن مجمعهم الجديد ولكن لم يُعثَر لهم على أثر، ولم يجد أحد من المخبرين عند المعلم حنش صاحب المقهى تفسيرًا، وفسَّره هو على هواه فقال إنهم ضاقوا بصرامته ويقظة المخبرين فهاجروا من الحي. وسُرَّ المأمور بتلك النتيجة غير المتوقَّعة، وهنَّأ محمد فوزي عليها.

وكان يُغادِر نادي الشرطة ذات يوم عندما رأى شابًّا وشابَّة في غاية الفخامة يُغادِران سيارة ويتَّجهان نحو برج القاهرة. نال من الشاب نظرةً عابرة وهو يمضي في طريقه، ولكنها لم تتلاشَ كما توقَّع. التفت وراءه فرأى الشخصَين يصعدان سُلَّم البرج، جعل يتأملهما حتى غابا في المدخل.

ما معنى هذا؟ هل سبق له أن رأى هذا الشاب؟ لقد التقت عيناهما لحظةً خاطفة؟ لم تكن عينا الآخر مُحايِدتَين. أم هكذا خُيِّل إليه؟ لمح فيهما معنًى ما، حياة من نوعٍ ما تشي

بنوع من المعرفة، وضرب الأرض بقدمه، مستحيل. توقَّف عن المشي. استدار مُتجهًا نحو البرج. تفَّحص الكافتيريا ثم صعد إلى الشرفة العليا. رأى الشخصَين يُطلَّان على القاهرة ونسمةٌ عليلة من نسمات الصيف تُداعبهما. اقترب حتى وقف وراءهما. سمع الشاب يقول للشابة بصوتٍ يسمعه هو كأنما هو المقصود به: ألم أقُل لك إن له عينَين لا تُخدعان؟

فهتف محمد فوزي: زعتر النوري.

فاستدار نحوه باسمًا عن أسنانٍ بيضاء وهو يقول مُحتجًّا: محمد زغلول من فضلك؟

وأشار إلى الفتاة قائلًا: صديقتي بهية.

فتمتم الضابط: جلجلة!

– قلت بهية من فضلك.

جعل ينظر إليها بريبة، فضحك زعتر وقال: بهية اسمٌ اختارته بنفسها، أما أنا فكوَّنت اسمي الجديد من اسمك «محمد» واسم البك زغلول، بصفتكما صاحبَي الفضل الأول.

فقطَّب محمد فوزي مُتسائلًا: ما معنى هذا؟

– عن أي شيء تسأل؟

– أنت تفهم ما أعنيه تمامًا يا زعتر.

وضح له عن قربٍ أن فخامة الملابس وصقل الوجه والأطراف لم تُغطِّ تمامًا عن الابتذال في الحركة والهيئة، وتقدَّمت بهية (جلجلة) خطوة بجمالها الشعبي الصارخ وتساءلت مُحتجَّةً: ماذا فعلنا لتُحقِّق معنا؟

وسأله زعتر النوري بشيء من العظمة: بأي حق تتعرَّض لنا يا حضرة الضابط؟

فقال الضابط: أريد أن أكتشف الجريمة المُستترة وراء هذا التغيير.

– إنك تُخاطِب رجلًا من رجال الأعمال، وهذه امرأة من نساء الأعمال.

– نحن نعمل في ضوء النهار.

– لن يخفى سر.

فضحك زعتر وقال: يؤسفني أن يكون أول لقاء لنا على هذا النحو، لنا ماضٍ مشترك، وفضلك عليَّ عميم، أنت الذي سلَّمتني مفتاح السعادة، فماذا يُثير عليَّ الآن؟ دعني أدعوك لفنجان شاي … وليطمئنَّ قلبك … وهاك بطاقتي الشخصية إذا شئت.

فقال محمد بذهول: إنه عامٌ واحد.

– ما قيمة الزمن؟ … صفقةٌ واحدة تُحوِّلك من دنيا إلى دنيا، الفضل لك ولزغلول رأفت أيضًا، ما زلت أُعَد من رجاله، ولي أيضًا رجالي.

– تهريب؟!

– رجعنا نُردِّد ألفاظًا لا معنى لها، اسمها الوحيد «تجارة» ... حتى لو أصررت على الألفاظ الميري فربما كانت تهريبًا قبل أشهُر، لكننا اليوم في عصر الانفتاح، لا تهريب ولا دياولو ... تفضَّل بزيارتنا ... وانظر إلى تلميذك بنفسك.

فقال الضابط ببطء: زعتر ...

فقاطَعه بسرعة: محمد زغلول من فضلك.

– أنت تعرف من هو محمد فوزي.

– طبعًا ... أعرف أنك ستتحرَّك ... أعرف أنك تحلم بإرجاعي إلى السجن ... ولكن الحقيقة ستتكشَّف لك ... ستعرف أنني رجلٌ شريف ... آمل أن نكون أصدقاء ... لست دون زغلول رأفت استحقاقًا لذلك.

وقالت بهية بدلال: وأنا أيضًا أريدك أن تكون صديقًا لي.

وتساءل زعتر: البضائع المُهرَّبة كانت تملأ الطرقات فلِمَ لم تُصادروها؟ ... لمَ لم تقبضوا على مُروِّجيها؟ ... كنا نجول في الميدان يحرسنا رجال الأمن ... ووراء كل واحد منا شخصٌ ذو مقام ... انتهى عصر المغامرة، وما نحن اليوم إلا تجارٌ شرفاء ... ثم إنك صاحب الفضل.

– أضجرتني بقولك هذا.

– لمَ يُغضبك قول الحق؟ ... أنا أيضًا نُشلت ذات يوم، ولكني استرددت مالي بقوتي الذاتية، لم ألجأ إليك لتستردَّ بقوتك مال لص كبير من نشَّالٍ مسكين.

وهتفت بهية: صديقك زغلول رأفت لصٌّ عظيم.

فانتهرها زعتر قائلًا: اقطعي لسانك. إنه بحكم القانون الجديد تاجرٌ عظيم.

فقالت مخاطبةً محمد فوزي: نحن ندعوك إلى فنجان شاي.

فقطَّب الضابط مُتحولًا عنهما، فقال له زعتر: يؤسفني ألا تُلبِّي دعوتنا، ولكن لا تُبدِّد قوتك في لا شيء.

٩

اقترب من الخلاء المُشارِف للحقول فتبدَّى له مقهى الأمراء في عزلته ورثاثته؛ حجرة حجرية يتقدَّمها فِناءٌ ترابي مُسوَّر بالصبَّار. بدا كالخالي بعد أن تخلَّى زبائنه الأصليون عنه. وقف في الفِناء المهجور فلمحه الحنش — العجوز الأحدب — وسرعان ما هُرِع إليه مُرحِّبًا وقلقًا

في آن. جلس محمد وهو يُشير للكرسي المُقابل داعيًا العجوز للجلوس وهو يقول: لا تُقدِّم شيئًا، لي معك حديث يا حنش.

جلس الحنش، لم يُزايله القلق. قال: لم أرَك منذ زمن، آخر مرة كنا في عاشوراء.

– أذكر ذلك ... ولكن أين أصحابنا؟

أخذ يطمئنُّ نوعًا ما فقال: ذهبوا ولم يرجعوا ... اختفَوا تمامًا.

رماه بنظرةٍ طويلة وقال: عرفت ذلك، ولكن أين ذهبوا يا حنش؟

– الله وحده يعلم.

– ولكنك تدري أشياء ولا شك.

– هل وقعت حوادث نشل؟

– كلا.

– ماذا يهمُّك من أمرهم بعد ذلك؟

– هذا شأني يا حنش.

– والله ...

فقاطَعه بنبرةٍ آمرة: هاتِ ما عندك.

اطمأنَّ العجوز تمامًا وشعر بأهميته، قال: لقد أقلعوا عن النشل، غدًا سيختفي اللصوص جميعًا.

– هات ما عندك.

فضحك العجوز عن فمٍ خالٍ وقال: أنت السبب يا حضرة الضابط.

– ذلك بالنسبة لزعتر النوري. إني أسأل عن الآخرين.

– قيل إن زعتر ذهب للقاء الرجل الذي نشله.

– أعرف ذلك طبعًا.

– وإذا بالحال يتغيَّر تمامًا، لم يعد عتريس النوري إلينا. انتظروا، انتظروا طويلًا ولكنه لم يعد، وكادت جلجلة تُجَن.

– ثم؟

– ظنوا أنه قُبِض عليه ... أخذوا يتناسَونه ... حتى جلجلة بدأت تستجيب لعُشَّاق آخرين ... حتى كان يوم.

وسكت الرجل ليشحن الضابط بالشوق، فقال هذا باستياء: استمِرَّ يا عجوز.

– كانوا في الداخل يُقامرون حين دخل فجأةً سمسون العفش مُضطربًا بفرحةٍ طاغية، لوَّح لهم بحافظة نقود فاخرة وتساءل: «لمن هذه؟» فأجابه أحدهم مُتفكهًا: للسفير

الأمريكي. ولكنه قال بهدوء: إنه عتريس النوري. ملَكهم ذهولٌ شامل. أقبلوا نحوه وفي مقدمتهم جلجلة، أقسَم لهم على صدقه. أين هو؟ لماذا لم يعد؟ وكيف نشلته؟ وراح الرجل يقول: «رأيته في ميدان رمسيس. كان يُغادِر سيارة. ليس عتريس الزمان الأول، شخص آخر تمامًا، أي وجاهة وأبهة، شككت فيه طويلًا حتى عرفت مشيته وسمعت صوته. إنه عتريس النوري. ماذا حصل له؟ كل شيء تغيَّر حتى جلده. تغيَّر لونه أيضًا كأنه نُقِع في الماء عامًا. هل استولى على ثروة الرجل الذي دعاه ليُكافئه؟ هل نشل البنك الأهلي؟ وهو يقصد دكان غيار، إنه محترم ابن الدائخة. في الحال رسمت خطة لنشله، نشلته في الدكان. هذه هي الحكاية.» وصاحت جلجلة: الخائن ابن الخائنة. أين يُقيم؟ ماذا يعمل؟ ولكن سمسون العفش لم يكن لديه مزيد. وصاحت جلجلة: لا بد من العثور عليه ... وأكثر من صوتٍ صاح: لن يفلت ولو اختبأ في جبال «الواق الواق». وفيما هم يتبادلون الرأي إذ بدا عتريس النوري في مدخل الحجرة وهو يرمقهم بنظرةٍ ثقيلة مُحتدمة بالسباب والسخرية.

وسكت العجوز ليستريح ويسعل ما شاء له السعال، فصبر محمد فوزي حتى استطرد: دخل منفوخًا بالأبهة. تبادلوا النظرات في صمتٍ هادئ، حتى خرقته جلجلة مُتسائلةً: «من سعادة الباشا القادم؟» فقال بهدوء: الحافظة أولًا ثم نتكلم، فسأله سمسون العفش: عن أي حافظة تتكلم؟ فثقبه بنظرة من عينَيه الحادَّتَين وقال: هو أنت يا ابن الخائنة! قلبي قال لي ... فقالت جلجلة: «قلب المؤمن!» فقال زعتر لسمسون: «الحافظة واعتذر لعمك.»

– أنت خائن.

– زعتر خائن!

– أين كنت؟ ... تقطعنا للنقود ... من أين لك هذا؟

– العمل الشريف.

هزَّت جلجلة وسطها وهتفت: ادعوا له ... ادعوا له.

– العمل الشريف ... عمل الناس الأجلَّاء ... هات الحافظة.

– أقسم لك بشرفي ...

قاطَعه مُقهقهًا: احتفِظ بشرفك وهات المحفظة.

فقال سمسون بتسليم: لي مكافأة.

– دع ذلك للنساء، هات الحافظة لنتكلم في المفيد.

فرمى بها إليه سمسون وهو يقول: نار في جثة الخائن.

– الله يسامحك ... كان في خطتي أن أزوركم في الوقت المناسب.

فتساءلت جلجلة: وما الوقت المناسب؟

– هو وقت الخير، لا يتقدم ولا يتأخر.

– ومتى يجيء؟

– عما قريب جدًّا.

– ما هو العمل؟

– تجارة ... بضائع تجيء من أوروبا.

– تهريب؟!

– الصبر ... موعدنا بعد شهر واحد.

وفي الميعاد يا حضرة الضابط ذهبوا جميعًا ولم يرجع منهم أحد.

– ترامقا صامتَين، ثم تساءل الضابط: أين هم الآن؟

فقال العجوز بقلق: إنهم خارج منطقتك.

– نعم ... هل تُعلمني واجبي؟ أين هم الآن؟

– إنهم يعملون في ضوء النهار وتحت حماية الشرطة.

– ألم أقل لك إنك تعرف أشياء كثيرة؟

فضحك العجوز وتساءل: ألم تسمع عن سوق ليبيا؟

– كلا.

– إنه في القلعة يا حضرة الضابط.

١٠

يموج سوق ليبيا بالخلق والحركة والأصوات، يغمره ضوء الكلوبات الأحمر المُدلَّاة أعمدة من رءوس مغروسة في الأركان؛ أمواج تتلاطم من النساء والرجال مصبوغة الوجوه بالأضواء المُركَّزة. قال الضابط إنهم اختاروا مكانًا مُناسبًا بين القلعة والمساقي القديمة. وتابَع بعينَيه الأكشاك القائمة في محيط السوق مُكتظَّة بالصابون والقوارير والعُلب والبرطمانات والأدوات الكهربائية والإلكترونات. وراء كل كشك صُفَّت الفريجيديرات والسخَّانات ومُكيِّفات الهواء والنجف في سرادقات. بُهِر الضابط بألوان البضائع، بجنون البيع والشراء، بالمهد الذي يلد أناسًا جددًا. ها هي وجوه العصابة التي اختصَّ دهرًا بمراقبتها، خُلقوا من جديد. إنهم يرمقونه بدهشة لا تخلو من قلق ثم ينسونه تمامًا. الشرطة تحفظ الأمن، والنشَّالون أصواتهم مُرتفعة. سيَختفي اللصوص ويُستغنى بالتالي

عن رجال الأمن. ما علاقة زغلول رأفت بهذا كله؟ أصبح هؤلاء من الأغنياء، أما هو وأضرابه فيغوصون في غمار الفقراء. ها هو زعتر، محمد زغلول أستغفر الله، معه جلجلة في كشك واحد. وجم الرجل عندما رآه. ها هو يُقبِل نحوه مرحًا مُرحبًا: أهلًا محمد بك ... خطوة عزيزة.

– أهلًا بك.

– انتقلت إلى منطقتنا؟

– كلَّا.

– جئت للشراء؟

– للفُرجة.

فتحت له جلجلة علبة كوكاكولا مستوردة وقدَّمتها مُبتسمةً. قال: شكرًا، لا أحبها.

تناولها زعتر وراح يشرب قائلًا: إني أعرف ما يحرجك ... لعلك سُرِرت بما ترى، تاب الله علينا.

– حقًّا؟ ... من النشل إلى التهريب؟

فضحك زعتر قائلًا: عملُنا مشروع، انظر إلى الشرطة، نحن تجار، أناس يحتجون إذا الفقراء اغتنَوا.

– الحال مَعدِن.

– سمسون دفع أمس خلوَّ رجل لا يُستهان به وأصبح من سكان المنيل.

وقالت جلجلة: عندنا بضائع تجنن ... شاهد بنفسك.

فقال في هدوء: لست في حاجة إلى شيء.

فسأله زعتر بقلق: لمَ شرَّفتنا؟

– العلم بالشيء ولا الجهل به.

– اسمع يا حضرة الضابط، ما كان تهريبًا أصبح بفضل الانفتاح تجارةً مشروعة.

فضحك محمد فوزي ولم ينبس، فواصَل زعتر: سيكون أبناؤنا ضباطًا ووكلاء نيابة.

– ولمَ ترجعهم إلى الفقر؟

فتمادى الآخر في حماسه قائلًا: ماذا كان الأمراء والباشوات قبل أن يصيروا أمراء وباشوات؟ ... كانوا لصوصًا؛ فنحن أصل الوجود يا محمد بك ... ولكن أناسًا يكرهون أن يفعل أبناء الشعب مثل الأمراء والباشوات.

– يا لها من آراء!

– دعنا من هذا كله ... ألا يلزمك فريجيدير ... معصرة ... ريكوردر ... مقويات؟ كل شيء تحت أمرك، ومن غير فلوس.

– إنك لكريم ولكني لا أريد شيئًا.

فمدَّت جلجلة عنقها بدلال وإغراء وتساءلت: ألا يُعجِبك شيء؟

فتساءل الضابط: هل تزوَّجتما؟

فقال زعتر: كلا ... إنها تُهدِّدني بالقتل.

– لمَ؟

– رأيي أنه يجب أن أتزوَّج من أسرة ... وعليها أن تبحث هي أيضًا عن عريس لقطة.

قال محمد فوزي لنفسه إنها جميلة، حتى ابتذالها جذَّاب، ليس في بيته من يُضارعها في جمالها إلا سهام.

وقالت بهية (جلجلة): إنه وغد يستحقُّ الإعدام.

فقال الضابط: إنها لمشكلة.

فقالت جلجلة: لا أهمية لذلك، المهم أن نُقدِّم لك هدية.

– شكرًا، لا عودة إلى هذا الحديث.

فقال زعتر: صدِّقني لا يقضي بالفقر على الإنسان إلا عقله.

وقالت له جلجلة: لو عثرت على رجل قوي مِثلك لزهدت فورًا في هذا الوغد.

فتجاهَل قولها ضاغطًا تأثُّره الباطني.

فعادت تقول: إذا لم تقبل هدية مستوردة فخُذني أنا هدية محلية ... ما رأيك؟

فقال زعتر: وتهديني حلًّا لمشكلتي معها.

فسأله محمد فوزي: هل صادَفتك متاعب أيام التهريب؟

– لا تكاد تُذكَر، كل كشك يكمن وراءه رجلٌ هامٌّ يحميه من بعيد.

– لا تُبالغ.

– هي الحقيقة، أنت نفسك رجَّعت إلى زغلول رأفت ماله الضائع.

– رجل لا غبار عليه.

– صدِّقني ليس في ثروته مليم حلال واحد.

– ماذا فعل معك؟

– وظَّفني عنده في أعمال تهريب تحتاج إلى جرأةٍ خاصة، تعلَّمت أشياء وأشياء، استعملت بدَوري العصابة، اليوم العمل كله مشروع.

وسألته جلجلة: هل لو كنت في منطقتنا أيام التهريب كنت قبضت علينا؟

– طبعًا.

– رغم الحماية؟

– بلا تردُّد.

فقال زعتر ضاحكًا: يعملها ولو تعرَّض للنفي، أنا عارفه.

فقالت جلجلة: يا لك من حبيبٍ قاسٍ، وهل كنت تقبض على زغلول رأفت؟

– ربما قبلكم.

فثنَت رقبتها في مرح وقالت: ستصبح المدينة بلا لصوص، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

– أو ستصبح كلها لصوصًا.

– النتيجة واحدة.

وقال زعتر بحرارة: بودِّي أن أغرقك في السعادة.

فتمتم في فتور: شكرًا ...

تصافحا، هتفت جلجلة مخاطبةً زعتر: قل له إني مستعدة أن أوصله بسيارتي إلى أي مكان.

لوَّح لهما مُودِّعًا ومضى.

١١

ما معنى ذلك؟ ها هو العبث يتأبَّط ذراعه مُتدثرًا بالبسمات الحمراء. لاحَظ الضابط أن صوت مُرافقه مبحوحٌ مثل صوت حنش. سأله عن السبب فأجاب بأن صوته بُحَّ من كثرة الخُطب، ولأنه يُؤذِّن كثيرًا داعيًا المُصلِّين إلى سوق ليبيا. وأشار إلى الشجرة الضخمة تتوسط الميدان الصغير في شارع البرج وقال للضابط: أي ضخامة، ما عمرها؟ ستعيش بعدك طويلًا، إنها لا تعرف القيود، تحيا حياةً مطلقة.

وأشار أيضًا إلى كلبَين يتلاعبان وتمتم: يعيشان مثل الشجرة، حياة مطلقة، لا يعرفان الضمير ولا يخافان الموت.

فقال الضابط: ولكنه الإنسان، وحده.

– حماقة مُقنَّعة بالجلال.

– الجلال!

– هو السجن.

– لكنه الإنسان، لا يعرف ذلك إلا الإنسان. ألا يعني ذلك شيئًا؟
– لا يعني شيئًا.
– هو وحده.
– الإنسان الحقيقي مثل الشجرة، مثل الكلبَين.
– إنه وحده، هنا يكمن سِره.
– هَبْك مُشرِفًا على الغرق ولا نجاة لك إلا بالتضحية بآخر، ماذا تفعل؟
– ساعة الغرق يُسيطر الحيوان.
– هذه هي الحياة.
– كلا، إنها جريمة يجب التكفير عنها.
– هل تعرف الجريمة بالفطرة؟
– كفى، على أحدنا أن يتلاشى.

تهبط النقود بلا حساب في ميدان ليبيا، السماء تُمطر هدايا. بالوقاحة تُصان الهيبة. طيب، ها قد تغيَّر كل شيء. ستُسيطر على الحياة بدل أن تُسيطر هي عليك. تتحسَّن علاقات الكائنات. تستقلُّ سناء ببيتها ثم تنتقل إلى بيتٍ أفضل، يتورَّد مستقبل أمل وسهير ولمياء. تُغدِق البركة على سهام وزهيرة. تنطلق سيارة بالأسرة يوم العطلة. الفضلاء يعملون بالرذيلة، الأرذال يحلمون بالفضيلة.

كان بالنادي عندما رأى زغلول رأفت قادمًا نحوه. انتحى به جانبًا فجلسا في جانب من الحديقة.

– فقدت شيئًا ثمينًا؟

فقال زغلول باهتمام: كلا، الأمر أجلُّ.

– ماذا فعلت بزعتر؟
– كافأته بعملٍ شريف مُربح ... ولكنه طمَّاع.

فضحك محمد فوزي وسأله: ما عدد الأعمال الشريفة في نظرك؟

فقال باهتمامٍ مُتزايد: محمد بك ... إني هنا لغرضٍ هام ... إنك رجلٌ شريف، صاحب جميل ... حسن ... عليَّ أن أردَّ الجميل.

– خير؟

– الأمر يتعلق بزعتر.

– سرقك؟

– كلا ... لكنه شرع في سرقتك أنت.

– ماذا تعني؟

– الأمر يتعلق بكريمة أختك.

قطَّب محمد في حيرةٍ شديدة: كريمة أختي؟

– إنه يحوم حولها ... يحوم حولها باعتباره الوجيه محمد زغلول.

تغيَّر وجهه تمامًا. ارتفق الخوان بساعدَيه مُتسائلًا: ماذا؟

– إني على يقين مما أقول.

– كريمة شقيقتي آية في العقل والأخلاق.

– لم أقل خلاف ذلك.

– لو تعرَّض لها بإساءة لشكَته إليَّ.

– لا يتعرض لها بما يسوء ... إنه يحوم حولها كرجل شريف.

– الوغد.

– خِفت أن تُخدَع الفتاة به ونحن لا نملك قلوبنا.

– شكرًا لك تحذيري.

١٢

بدا محمد فوزي كئيبًا مُتجهمًا. من أول نظرة لاحظت ذلك سناء وزهيرة وسهام، أما الصغيرات فيئسن من ملاعبته. ونطق بنبرةٍ مُفعَمة بالغضب: سهام.

نظرت إليه الفتاة بذهول فقال: ما هذا الذي يُقال عنك؟

وسكت من شدة الانفعال ثم قال بازدراء: عن رجل له مظهر الوُجهاء يدَّعي أن اسمه محمد زغلول.

فقالت زهيرة: لا شيء يستحقُّ الغضب يا أخي.

وتمتمت سناء زوجته: فعلًا.

فتساءل بحدة: آخر من يعلم؟

فقالت سناء: إنه رجلٌ غني، غرضه شريف، لم تُخفِ سهام عنا شيئًا.

قالت زهيرة: لم أُرِد أن أُزعجك قبل أن أتحقَّق بنفسي، وافقتني سناء على رأيي، قالت لي سهام إنه رجاها أن يُحدِّثها، ذهبت إليه بنفسي لأقول له إن الطريق الوحيد أن يُحدِّثك أنت.

– ماذا قال؟

– قال إن ثَمة سوء تفاهُم بينكما قد يُخيِّب رجاءه.

– أكان في نيَّتك أن تُزوِّجيها من وراء ظهري؟

فقالت سناء: اتفقنا أن أحدثك ولكنَّك سبقت.

فنظر إلى سهام مُتسائلًا: هل أعجبك؟

فقالت زهيرة: إني أبحث عن حلٍّ يُرضي الجميع.

أدرك أبعاد الموقف. أدرك أيضًا دور زوجته التي تحلم بالتخلص من زهيرة وسهام. ضحك بمرارة وقال: ما هو إلا نشَّال قضى في السجن عامَين.

فوَجمنَ في ذهول. تذكَّر هو يوم رآه رابضًا في البستان تحت البيت. قال بأسًى: لقد رويت لكُنَّ حكاية سوق ليبيا، وحكاية زعتر النوري، محمد زغلول هو زعتر النوري.

قرأ وجوههن بنظره الثاقب. سهام يغمرها شعور بالنجاة. زهيرة مطبوعة بالخيبة. سناء مَغِيظة مُحنَقة، ولكن قُضي عليها بالهزيمة. تمتمت زهيرة: ما تصوَّرت ذلك قط.

فقال بسخرية: هو هو لم يتغير إلا مَظهره، كان لصًّا غير قانوني فأصبح لصًّا قانونيًّا.

١٣

التقت عيناه بعينَيه رغم الضجيج والزحام. رسالة خفيَّة سرَت منه إلى الآخر. غادَر موقفه أمام الكشك نحوه. بدا أنه استشعر الجو كله. قال بتسليم: قلب المؤمن دليله.

سار محمد فوزي خارجًا من نطاق السوق والآخرُ يتبعه حتى وقفا تحت جدار القلعة الشاهق، وعند ذاك هتف به الضابط: إنك وغد كالعهد بك.

فتمتم وهو يُواجهه بثبات: الحِلم سيد الأخلاق.

– كيف تُسوِّل لك نفسك التعرُّض لبنت أختي؟

– بالشرف تعرَّضت لها.

– لا تنطق بهذه الكلمة يا زعتر.

– محمد زغلول.

– كذَّاب.

– هذا كل شيء.
– سأعتبر الموضوع مُنتهيًا، وحذار ...
– محمد بك ... ربنا قَبِل التوبة.
– أنت لص لا أكثر ولا أقل.
– إني رجلٌ شريف وغني، ومن حقي أن أفتح بيتًا شريفًا.
– اللعنة على شرفك المزعوم.
– لا داعيَ للغضب.
– فليَنتهِ كل شيء، إني أكره الاستمرار في هذا الحديث.
وتركه دون تحية.

١٤

أول ما صنعه أن كلَّف مُخبرًا بمراقبة زعتر. وانهمك في العمل أكثر وأكثر لينسى هموم المطاردة، وقال لنفسه: سأبقى شريفًا ولو لم يبقَ في الحومة سِواي. ولم يُترَك طويلًا للنسيان؛ فقد زاره في النادي من جديدٍ زغلول رأفت. في ذلك المساء رجع إلى بيته بالسكاكيني مُتفكرًا ولكن يُصاحبه أملٌ جديد. وبدا وسط قبيلة النساء مرحًا، وقال: عريس له وزنه يطلب يد سهام.

فتطلَّعت إليه الأبصار، وقالت سناء بنغمة أمل واضح: ما أكثر العرسان!

فقال بهدوء: هذه المرة زغلول رأفت.

فبادرته سهام: قلت إنه لص أيضًا يا خالي.

– لا أُنكر، ردَّدت ما سمعته من لص محترف، ولكن لا دليل على ذلك.

– لن يغيِّر ذلك من الواقع.

فقالت سناء: فرقٌ بين النهار والليل، إنه رجل شريف برأي الجميع.

وقال محمد فوزي: عرفته ثريًّا ومن رجال البِر.

فقالت سناء: رجل له وزنه حقًّا، وهو الحُلم المطلوب.

فقال محمد: إنه في الأربعين، أرمل، ولا أولاد له.

– عزُّ الطلب. لا خير في الشُّبان.

ونظر محمد فوزي إلى سهام وسألها: ما رأيك؟

ونظرت إليها أيضًا زهيرة كأنما تستوهبها الموافقة، ولكنها لاذت بالصمت حتى ضاقت سناء بصمتها فقالت: من واجبك أن تكوني سعيدة.

فقالت سهام بنبرةٍ مُتوترة: صبركم حتى أجد عملًا، عند ذاك سأذهب أنا وماما.

فقال محمد مُقطِّبًا: قولٌ غير لائق.

واجتاح الغضب سناء فهتفت: جئناكِ بالسعادة حتى مَوطئ قدمَيك ولكنك ما زلت تحلمين بالمستحيل. إنها فرصة لا تتكرر، وأنا بصراحة لم يعد بي صبر.

وقال لها محمد مُعاتبًا: سناء!

فصاحت بصوتٍ يهدر بالغضب: دعني أُنفِّس عما في صدري.

فقالت زهيرة: أعطونا فرصة، سهام ذكية وتفهم كل شيء، ستسير الأمور كما نود.

١٥

أبلغ الضابط زغلول رأفت بموافقة الأسرة. كان التفاهم بين الرجلَين كاملًا. لم يترك صغيرة ولا كبيرة. اطمأنَّت سناء تمامًا إلى أن زوجها لن يُغرَّم مليمًا واحدًا وأن حلمها يتحقق بكل أبعاده. وتصدَّى محمد فوزي لموجة امتعاض زاحفة في أعماقه بأن جعل يؤكد لنفسه شرف العريس، ويقول لضميره القلق إن أحدًا لم يتَّهمه في شرفه إلا الوغد زعتر. أجل لقد تصرَّف مع سهام بطريقةٍ قاسية، فما من شك أن الموافقة انتُزعت منها على رغمها، غير أنها ستحظى بالسعادة والجاه. إنه قرارٌ حكيم، وستُثبت الأيام صدقه وإخلاصه. وسارت الأمور في سبيلها المرسوم حتى خرجت سهام ذات يوم إلى زيارةٍ قريبة ولكنها لم تعد. طال الوقت وغرق الانتظار في مستنقع الشك القاتل. تحرَّى عنها في جميع مظانها، ولكن لم يسمع لها عن خبر ... تجسَّد واقع لم يخطر على بال. تقوَّض البنيان كله وتلاشت الآمال مخلفةً الرعب والأسى. جُنَّت سناء كما جُنَّت زهيرة، أما محمد فقد ثار ثورةً هائلة. قصد من توِّه رفعت حمدي ولكنه وجده على حال يُرثى لها، وصاح به غاضبًا: إنك مسئول عما حدث. أنت ... أنت المسئول الأول.

وفي الحال استغلَّ الضابط خبرته في الخدمة وإمكاناته الغزيرة في البحث عن الُمختفية، ولكن مرَّت الأيام تباعًا دون نتيجة.

ورنَّ التليفون في بيته ساعة الغداء عند اجتماع الأسرة، فتناوَل محمد السماعة: آلو.

– أنا سهام يا خالي.

– سهام ... أين أنت؟

– أُكلمك من الإسكندرية.
– ماذا تفعلين هناك؟
– إني أعمل ... وبخير ... اطمئنُّوا ... أريد ماما أن تلحق بي.
– أعطِني عنوانك، أريد أن أقابلك.
– ممكن أحضر بنفسي.
– وماذا يُؤخِّرك؟
– عِدني أن تلقاني بهدوء واحترام.
– لك هذا يا سهام.
– سأحضر غدًا.
– احضري الليلة أرجوك.
– ليَكن ... إلى اللقاء.

أقبلت عليهم في ثبات كأنما قد نضجت في أيام غيابها أعوامًا. تلقَّتها أمها باكيةً. تساءلت سناء: ماذا فعلتِ بنا يا سهام؟

وقال محمد بهدوء: آخر ما كان يُتوقَّع منك.

فقالت باسمةً: الدفاع عن النفس حقٌّ مشروع.

– ليس بهذه الوسيلة.
– الأفضل أن تسمعوا حكايتي.

صمتت مليًّا لتجمع شتات أفكارها ثم راحت تقول: بلغ مني اليأس مداه، صمَّمت على التحدي والانتقام. قلت إنهم يريدون أن يُزوِّجوني من لص مُغطًّى آخر، سأتزوَّج من اللص المكشوف. وذهبت إلى محمد زغلول أو زعتر النوري.

صاح محمد في جنون: كلا.

– هو ما حصل، كنت يائسةً عمياء. رأيت في كشكه امرأةً جميلة، فلوَّحت له من بعيد، فجاءني وهو لا يُصدِّق عينَيه، فقلت له أريد أن أُحدِّثك حديثًا هامًّا. أخذني في سيارته إلى مدينة المقطم. في مكانٍ شِبه خالٍ يُطلُّ على القاهرة. كان من العسير جدًّا أن أبدأ ولكن كان لا بد أن أبدأ. سألته: ألا زِلت تريدني؟ أجاب ذاهلًا بالإيجاب، فقلت له إني موافقة. سألني: هل أفضيت برغبتك إلى محمد بك أو والدتك؟ أجبت بالنفي. سألني: ماذا دفعك إلى المجيء إليَّ؟ فقلت له: إني لا أريد استجوابًا، وإني مستعدَّة وكفى. قال: إني رجل لا

يهمُّني شيء، لا يهمُّني خالك نفسه ... أستطيع أن أفعل ما يحلو لي ... ولكن لا بد أن أعرف ما حملك على المجيء ... قلت: لا جواب عندي ... واتركني إذا شئت. قال: إني أعرف أن الوغد زغلول خطبك ... هذه هي المسألة ... ما قولك؟ قلت: إني أرفض الاستجواب. قال: يبدو أنك لا تُوافقين عليه ... ربما لسنه وسوء سمعته ... إن ما جاء بك إليَّ هو الرغبة في الانتقام أو الرغبة في الانتحار، فلم أُحِر جوابًا، ولمعت عيناي، قال إنك عنيدة مثل جلجلة ... إني أُحبُّ هذا ... ولكني لا أعرف العبودية في الحب. قلت: فلنرجع. قال: أرفض أن أجعل من نفسي أداة انتقام في يدك. قلت: إذَن فلنرجع. قال: هذا يعني أن أُسلِّمك للوغد زغلول رأفت ... كلا ... لقد وقعت في شبكة من المنافقين واللصوص، ومن الشهامة إبقاؤك. قلت: ولكن كيف؟ قال: خالك يحسبني شيئًا قذرًا ... كلا ... أنا لم أَخُن زميلًا في حياتي ... حتى جلجلة فإني مُرتبط بها رغم شبعي منها ... وقد جعلت عصابة من النشَّالين عصبة من الأعيان ... معجزة تحتاج لثورة كاملة ... وإني أرفض أن يستعملني أحدٌ أداة انتقام، ولكنني سأنقذك ... خالك رجلٌ فقير لأنه شريف ... لذلك يهمُّه أن يتخلص منك على خير ... لذلك وافَق على تسليمك للصِّ قانوني ... اسمعيني جيدًا ... أنتِ مُتعلِّمة ... سأُلحقك بعمل يحفظك من المنافقين واللصوص.

ساد صمتٌ تجلَّى فيه صوت الأنفاس المُترددة ... ثم تساءلت أمها: أي عمل؟

– موظفة في كشك يملكه في الإسكندرية بأجرٍ بسيط ونسبة في الأرباح.

– أهو يكفيك يا بنتي؟

– فوق الكفاية يا ماما ... لا بد أن تأتي معي ... ستجدين حياةً معقولة جدًّا.

وقالت سناء: إنه رجلٌ مُذهِل.

استمرَّ الحديث بعد ذلك، ولكنه — محمد — لم يُتابعه. غَرِق في أفكاره بعمق وحزن وذهول. أي هزيمة مُنِي بها؟ إنه يتلاشى من الوجود، ويَحسُن به أن يتوارى عن الأعين. وغادَر الشقة صامتًا. ولما اقترب من ضجيج السوق أثارت الأصوات في صدره شجنًا ثقيلًا، ولمحه زعتر فهُرِع إليه مُتهللًا. تصافحا. وقفا يترامقان في صمتٍ طال حتى ضاق به محمد، فتمتم: شكرًا لك يا زعتر.

فقال الرجل ضاحكًا: محمد زغلول من فضلك.

فقال محمد فوزي بهدوء ويقين: زعتر النوري، اسمٌ طيب لرجلٍ طيب، ماذا يخجلك منه؟!

السماء السابعة

١

سحابةٌ مُعتِمة تقتحم الوجود وتنغمس في الفضاء. كل شيء يموج بحضورٍ كوني غريب، لا شبيه له من قبل، يُحلِّل الكائنات إلى عناصرها الأولى، يُنذِر بالعدم أو بخلقٍ جديد. رغم ذلك ما زال يملك وعيًا بما يحدث أو أنه يعيش اللحظات الأخيرة من الوعي. سيطر عليه شعورٌ فائق الإلهام أنه يشهد ما لم يشهد من قبل، ولكنه ما زال رءوف عبد ربه، رءوف عبد ربه بلا خوف ولا وساوس ولا مُبالاة. يقف خارج أسوار البوَّابة التاريخية، في الخلاء، في الظلام، بلا وزنٍ البتة. هو والصديق عانوس قدري راجعان من سهرة الليل، أين أنت يا عانوس؟ لا يسمع صوتًا، لا يُحسُّ بمس الأرض، وثَمة شعورٌ عجيب بانعدام الوزن، والغوص في السحابة المُعتمة المُقتحمة. وعندما يُنادي صديقه لا يندُّ عنه صوت، إنه موجود وغير موجود، وهو حائر ولكنه غير خائف، وقلبه يتوقع إجابة قريبة وصريحة. وترقُّ السحابة وتمضي في التلاشي، ويقف التموج ويختفي. عند ذاك تتَّضح ظلمة الليل المُشعشعة بإشعاعات النجوم. أخيرًا تتراءى يا عانوس، ولكن ماذا تفعل؟ ثَمة أناسٌ يحفرون في الأرض حفرةً بهمة ونشاط، وثَمة شابٌّ مطروح على ظهره ينزف الدم من رأسه. إنه يرى ذلك بشيء من الوضوح أكثر بما تسمح أضواء النجوم. يا للعَجب! ما الشاب المطروح إلَّاه، رءوف عبد ربه نفسه. إنه أنا دون غيري. وهو مُنفصل عنه تمامًا، يراه من بعدٍ قريب. ليس شبيهًا به ولا توءمًا له، إنه جسمه، وهذه بدلته، وهذا حذاؤه. عانوس يحثُّهم على العمل، لا يراه البتة فيما يبدو، يظن أن الجسم المطروح يحوي بالكامل صديقه رءوف، لا يفطن إلى الكائن الذي يُراقبه بلا انفعال. أدرك أنه غير مرئي مثل جسده المطروح. هل انقسم إلى اثنين؟ هل غادَر الحياة؟ هل قُتِل وعانى الموت؟ قتلتني يا عانوس؟ ألم نقضِ معًا سهرةً مُمتعة؟

متى شرعت في قتلي؟ كيف نفَّذته؟ وأين كان رجال أبيك الذين يحفرون قبري؟ هانت صداقتي عليك لتستأثر برشيدة؟ ألم تقُل لي بأنك ستعتبرها شقيقة لك من الآن فصاعدًا؟! ها هم الرجال يحملون جثَّتي ويرمون بها في الحفرة. ها هم يُهيلون عليها التراب ويُسوُّون سطح الأرض. عاد وجه الأرض إلى صورته المألوفة، وغاب رءوف عبد ربه كأن لم يكن، ولكنني موجود يا عانوس. أحسنت صنعًا بدفن أداة الجريمة الصلبة. زال كل أثر. لماذا أنت مُتجهِّم هكذا؟ أين نظرة عينَيك الساخرة؟ أعترف لك — ولو أنك لا تسمعني — أنني طالما أحببتها. أتظنُّ أن علاقتنا انقطعت وانتهت؟ الصداقة أقوى مما تظن، حتى الموت يعجز عن محقها. كذلك الحب؛ رشيدة لي أنا وليست لك، ولكنك مُتهوِّر وسيئ التربية. نشأت في محيط أبيك المعلم قدري الجزَّار، مُحتكِر اللحوم، ناهب الفقراء والمساكين، راشي الرجال وشاري الذمم، فلقَّنك أن تطمع فيما ليس لك وأن تناله بقوة الجريمة. ماذا أنت فاعلٌ الآن؟ لم يكن يطيب لك الجلوس في المقهى بدوني، ولا المذاكرة، ولا الذَّهاب والإياب من الجامعة، أكبر صديقَين في الحارة رغم الفارق اللانهائي في المال والجاه والسطوة؛ فإن نسيتَني أنت فما أنا بناسيك. واعلم بأنني لا أحمل نحوك رغبة في الانتقام أو حتى الإيذاء، لقد دُفنت جميع هذه العواطف والانفعالات في الحفرة مع جثَّتي، حتى العذاب الذي تُعانيه حارتنا من ظلم أبيك وأمثاله لا ينعكس الآن في صدري غضبًا وحنقًا وحقدًا وثورة، ولكنه صورةٌ شائهة مرفوضة بقوة الحب، ويُشكِّل رغبةً سامية مُبرَّأة من الأوشاب لتغييرها تغييرًا كليًّا. إني أرثي لك يا عانوس. لم أرَك في هذه الصورة القبيحة من قبل. إنك هيكلٌ عظمي تسكنه الخفافيش. الدم المسفوك يلطخ وجهك وجبينك. عيناك تقدحان شررًا وتتدلَّى من أُذنَيك حيَّتان. رجال أبيك يسيرون خلفك على حوافر حمير وبرءوس غربان يرسفون في أغلال مغروسة بالشوك. إنه ليحزنني أن أكون السبب المباشر لتشويه صفحتكم لذاك يغشاني الأسى وتفتر فيَّ أشواق البهجة.

٢

من خلال تنهُّدة وجد نفسه في مدينة جديدة، تُضيء بلا شمسٍ مُشرِقة، مسقوفة بالسُّحب البيضاء، أرضها تنضح بالخضرة على هيئة أزهار وفواكه، تتخلَّلها على مدًى لا نهائي أكواخٌ بيضاء كالورود، وثَمة جموعٌ تتلاقى وتفترق في خفة الطير. وجد نفسه في بقعةٍ خالية. عانى غربة الوافد الجديد. وعلى حين فجأة تجلَّى أمامه رجلٌ يتدثَّر بسحابةٍ بيضاء. ابتسم إليه وقال: أهلًا بك يا رءوف في السماء الأولى.

فهتف رءوف بفرحةٍ مُتألِّقة: هي الفردوس؟

– قلت السماء الأولى لا الفردوس.

– إذَن فأين الفردوس؟

– بينك وبينها طريقٌ طويل يقطعه سعيد الحظ في مئات الألوف من السنين الضوئية.

فندَّ عن رءوف صوت كالأنين، فقال الرجل: دعني أُقدِّم لك نفسي أولًا، مُحدِّثك آبو الذي كان يومًا كاهن طيبة ذات المائة باب.

– تشرَّفنا يا سيدي، من حسن الحظ أني مصريٌّ مثلك.

– لا أهمية لذلك، لقد فُقدت هذه الجنسية منذ آلاف السنين، وإني الآن مُوفَد كمُحامٍ للدفاع عن القادمين الجُدد.

– ليس ورائي تهمة ولكنني شهيد.

– صبرًا، دعني أُحدِّثك عن موطنك الجديد، هذه السماء تستقبل الوافدين الجُدد، فيها يُحاكَمون وأتولَّى أنا الدفاع عنهم. الأحكام تتراوح بين البراءة والإعدام؛ في حال البراءة يقضي البريء عامًا واحدًا هنا يتأهَّل فيه روحيًّا للصعود إلى السماء الثانية …

فقاطَعه رءوف مُتسائلًا: لكن ما معنى الإعدام؟

– معناه أن يُقضى عليه بأن يولد من جديد في الأرض ليُمارس الحياة مرةً أخرى لعله يلقى قدرًا أكثر من النجاح، أما ما بين البراءة والإعدام فيُقضى على المتهَم عادةً بأن يعمل مُرشدًا روحيًّا لشخص أو أكثر في الأرض، ويكون صعوده إلى السماء الثانية رهنًا بتوفيقه أو تُمَد مدة تَجرِبته وهكذا.

فقال رءوف باطمئنان: على أي حال فإني واثق من البراءة؛ فقد عشت طيبًا ومت شهيدًا.

فابتسم آبو وقال: لا تتعجل، ولنبدأ الحديث في قضيتك … أخبِرني بهُويَّتك.

– رءوف عبد ربه، السن ثمانية عشر عامًا، طالب تاريخ بالجامعة، يتيم الأب، أمي أرملة تعيش على منحةٍ خيرية من الأوقاف.

– لماذا أنت راضٍ عن نفسك هكذا يا رءوف؟

– رغم فقري الشديد فإني طالبٌ مجتهد يحب العلم ولا يكفُّ عن النهل منه.

– جميلٌ هذا من ناحية المبدأ، ولكنك كنت تتلقى كثيرًا وتفكر قليلًا.

– التفكير يُكتسَب بالعمر والمران، وعلى أي حال لا يُعَد ذلك تهمة؟

– هنا يُحاسَب الإنسان على كل شيء، أُلاحظ مثلًا أنك كنت تُبهر بالأفكار الجديدة.

– للجديد سِحره يا سيد آبو.

– أولًا لا تقُل سيدي. ثانيًا نحن لا نُحاسب على التفكير ولو كان خاطئًا، ولكننا ندين التسليم بأي فكرة ولو كانت صحيحة.

– إنها محاكمةٌ قاسية، العدل في الأرض أرحم.

– ننتقل إلى العدل، كيف وجدت حارتك؟

– بشعة ... أكثرها فقراء مُتسوِّلون ... يُسيطر عليها فتوة يحتكر الغذاء ... اشترى شيخ الحارة ... يسرق ويقتل ويعيش مُطمئنًّا فوق القانون.

– إنه وصفٌ دقيق، ماذا كان موقفك؟

– الرفض والتمرد والرغبة الصادقة في تغيير كل شيء.

– تُشكَر. ماذا فعلت لتحقيق ذلك؟

– لم يكن بوسعي أن أفعل شيئًا.

– وتريد أن تصعد إلى السماء الثانية؟

– لمَ لا؟ كان عقلي وقلبي رافضَين لما يجري.

– ولسانك؟

– لو نطق بحرفٍ مُتمرِّد لكان جزاؤه القطع.

– ولكن حتى الكلام وحده لا يُرضي محكمتنا المقدسة.

– يا لها من محكمة! وهل كنت إلا فردًا وحيدًا؟!

– حارتك مكتظَّة بالتُّعساء.

– واجبي الأول كان تحصيل العلم.

– الأمانة لا تتجزأ، ولا عذر عن التخلي عنها.

– لم يكن من المحتمل أن يؤدِّي ذلك إلى العنف؟

– لا تهمُّنا الصفات، ما يهمُّنا هو الحق.

– ألا يشفع لي أني قُتلت في سبيل الحب؟

– حتى هذا لا يخلو من عنصر في غير صالحك.

فتساءل رءوف بدهشة: أي عنصر هذا؟

– إنك منحت عانوس ثقتك وهو صورة من أبيه الطاغية.

– لم أتصوَّر أنني مُذنِب لهذا الحد؟

– ثَمة ظروفٌ مُخفَّفة، ولكن مَهمَّتي في الدفاع عنك ليست يسيرة.

– هيهات أن يظفر أحد بالبراءة في ساحة هذه المحكمة.

– صدقت، قلةٌ نادرة أدَّت واجبها الكامل نحو الأرض.

– أعطِني مثالًا أو مثالَين.

– خالد بن الوليد وغاندي.

– إنهما نقيضان!

– للمحكمة تصورٌ آخر، والعِبرة بالواجب نفسه.

– الآن لم يعد لي أمل.

– لا تيئس، ولا تستهِن بخبرتي الطويلة، سأفعل المستحيل لإنقاذك من الإعدام.

– ماذا يمكن أن يُقال؟

– أقول إنك بدأت بداية لا بأس بها في ظروفٍ بالغة المشقة، وإنه كان يُرجى منك خير لو امتدَّ بك العمر، وإنك كنت محبًّا صادقًا وبارًّا بوالدتك.

– إذَن فغاية ما أطمع إليه أن يُقضى عليَّ بأن أكون مُرشدًا روحيًّا؟

– وهي فرصة لاستدراك ما فاتك، في عالمنا هذا لا يصعد الإنسان إلا بفضل توفيقه في الأرض.

– أيها المحامي الجليل، لمَ لا تُرسلون مُرشدًا للمعلم قدري الجزَّار؟

– ما من أحد إلا وله مُرشده.

فهتف رءوف بذهول: وكيف يستمرُّ الشر إذَن؟

– لا تنسَ أن الإنسان حر، كل شيء يتوقف في النهاية على قوة تأثير المرشد وحرية الفرد.

– لم يكن من الخير أن تُلغى هذه الحرية؟

– قضت المشيئة بألا يُقبَل في السموات إلا الأحرار.

– كيف لا يُقبَل في السماء وليُّ حارتنا الطاهر الشيخ عاشور؟ إنه لا يُمارِس الحرية؛ فكل ما يقول أو يفعل من إملاء إلهامه الصادق؟

فابتسم آبو وقال: ما هو إلا صنيعة لقدري الجزَّار؛ يُؤوِّل الأحلام لمصلحته، وينقل إليه همسات الضمائر من البيوت التي تُرحِّب ببركته.

فصمت رءوف مغلوبًا على أمره. غاب قليلًا في الخضرة اليانعة المُزركَشة بأكواخ الورود، استسلم للملاحة وعذوبة الجو، ثم تنهَّد قائلًا: ما أتعس أن يُجبَر الإنسان على هجر هذه الجنة!

فهتف به آبو: حذار من الرغبة الآثمة في الهروب من الواجب.

فتساءل رءوف: متى أمثُل في ساحة المحاكمة؟

فأجاب آبو: لقد تمَّت المحاكمة.

فرَنا إليه رءوف بدهشة، فقال: تم الاستجواب ومرافعة الدفاع فيما جرى بيني وبينك، وصدر الحكم، وهو يقضي بندبك مُرشدًا روحيًّا، تهانيَّ.

٣

تقرَّر استبقاء رءوف عبد ربه في السماء الأولى فترةً قصيرة ليتطهَّر من أي شائبة وليُؤهَّل لَمهمَّته. وبُغيةَ تدريبه وتثقيفه أبقاه آبو إلى جانبه في الوقت الذي يستقبل فيه المرشدين عادة. وقال له رءوف: أودُّ أن أرى أدولف هتلر، هل يجيء الآن؟

– لقد قُضي عليه بالإعدام فوُلِد في حارتكم من جديد، وطالما رأيتَه.

– هتلر؟

– هو المعلم قدري الجزار.

فصمت رءوف مليًّا من الدهشة ثم تساءل: إذَن فمن يكون شيخ الحارة شاكر الدرزي؟

– لورد بلفور.

– والشيخ عاشور الولي الكذَّاب؟

– إنه خنفس خائن الثورة العرابية.

– أراهم لا يتغيرون، ولم يستفيدوا من إعادة التجربة.

– ليس الحال كذلك دائمًا، أتدري من تكون أمك؟

– إنها ملاك يا آبو.

– ما هي إلا ريَّا السفَّاحة المشهورة، فانظر كم تقدَّمَت.

فذُهِل رءوف وصمت على حين استقبل آبو أول الوافدين. قال الوافد: إني أبذل أقصى ما أستطيع.

فقال آبو: أعلم ذلك، ولكن يلزمك مضاعفة الجهد؛ فقد آن لك أن تصعد.

ولما اختفى الوافد قال رءوف: إني أعرفه جيدًا. أليس هو إخناتون؟

– هو عينه، إنه سيئ الحظ، فطال مُقامه هنا آلاف السنين.

– ولكنه أول من بشَّر بالله الأحد.

– هذا حق، ولكنه فرض إلهه على الناس بالقوة لا بالهداية والإقناع، فتيسَّر لأعدائه من بعده أن ينتزعوه من القلوب بالقوة، ولولا صفاء سريرته لقُضي عليه بالإعدام.

– ولمَ طال به المُقام هذا الدهر؟

– لم يُوفَّق مع أحد ممن نُدِب لإرشادهم مثل فرعون موسى والحاكم بأمر الله وعباس الأول.

– ومن رجُله اليوم؟

– كميل شمعون.

وجاء الوافد الثاني، قدَّم تقريره، تلقَّى كلماتٍ مُشجِّعة ثم اختفى. عند ذاك قال رءوف: إنه الرئيس ويلسون.

– أجل.

– حسبته من القلة السعيدة التي صعدت إلى السماء الثانية.

– أنت تُشير بلا شك إلى مبادئه السامية، ولكنك نسيت أنه لم يستغلَّ قوة أمريكا في تنفيذها، بل إنه اعترف بالحماية على مصر.

– ومن رجُله؟

– الأستاذ توفيق الحكيم.

ولما اختفى الوافد الثالث قال رءوف: إنه لينين بلا شك.

– نعم.

– حسبت أن الإعدام كان نصيبه لإلحاده. ماذا قلت دفاعًا عنه؟

– قلت إنه من خلال ثرثرة فكرية غيَّر الأسماء ولم يُغيِّر الجوهر، سمَّى إلهه المادة الأزلية وأضفى عليها من صفات الله القِدم والخلق والسيطرة على مصير الكون، وسمَّى الرسل بالعلماء، والملائكة بالعمال، والشياطين بالبرجوازيين، ووعد أيضًا بالجنة في تحديدٍ أكثر لزمانها ومكانها، ونوَّهت بقوة إيمانه وبلائه في خدمة الكادحين وروح تضحيته وتقشُّفه، وقلت أيضًا إن ما يهمُّ الله سبحانه هو ما يُصيب الناس من خير أو شر. أما هو — جل جلاله — فمُستغنٍ عن البشر، لن يزيده إيمانهم ولن ينقص من شأنه كفرهم به ... هكذا خُفِّف الحكم وعُيِّن مُرشدًا روحيًّا.

فتساءل رءوف مبهورًا: ومن رجُله؟

– الأستاذ مصطفى محمود.

– وهل نُدِب ستالين مُرشدًا أيضًا؟

– كلا، ستالين أُعدم لقتله الملايين من الكادحين بدلًا من أن يُعلمهم ويُدربهم.

– لعله يعيش اليوم في حارتنا؟

– كلا، إنه يعمل في أحد مناجم الهند.

بانتهاء استقبال لينين فرغ آبو من مقابلات الساعة، استصحب رءوف لنزهة في السماء الأولى. لدى تفكيرهما في النزهة انطلقا مباشرةً استجابة للرغبة الداخلية، بلا حاجة إلى استعمال القدمَين، كطائرَين ثملَين بنشوةٍ باطنية انعكاسًا لمفاتن الحركة المُنسابة في يسر وعذوبة. غاصا في جوٍّ فِضِّي ذي أرضية خضراء مُزركَشة وسماء مُضيئة بألق السحائب البيضاء. مرَّا بوجوهٍ كثيرة تُمثِّل شتى الأجناس والألوان، مُنهمِكين في الظهور والاختفاء ما بين السماء الأولى والأرض، كلٌّ مُستغرق في مَهمَّته الرفيعة. يستهدفون للأرض وأهلها رقيًّا ونصرًا، يأملون من ورائها تكفيرًا وتطهيرًا لأنفسهم ليُواصلوا صعودهم في مراقي الروح والإبداع والقرب من الحقيقة العظمى. يعملون بإصرار، تدفعهم الأشواق الحارَّة اللانهائية إلى الكمال والحق والخلود. قال رءوف: يُخيَّل إليَّ أن العناء هنا لا يقل عن نظيره فوق الأرض؟

فأجاب آبو باسمًا: هما عناءٌ واحد مُتصل، غير أن الإنسان يُمارسه ها هنا بقلبٍ أنقى وعقلٍ أذكى وهدفٍ أوضح.

– زدني وضوحًا يا آبو.

– أنتم تحلمون في الأرض باليوم الذي تتحقق فيه المدينة الفاضلة المؤسَّسة على حرية الفرد وعدالة المجتمع والتقدم العلمي والسيطرة الظافرة على قُوى الطبيعة، وفي سبيل ذلك تُحارِبون وتُسالمون وتتحدُّون القُوى المضادَّة المسمَّاة في اصطلاحاتكم بالرجعية. هذا جميل وطيب، ولكنها ليست الهدف كما تتصوَّرون، إن هو إلا الخطوة الأولى السديدة في طريقٍ طويل من الرُّقي الروحي يبدو حتى للذين يُقيمون في سمائنا الأولى بلا نهاية.

فاستغرق رءوف في التأمل حتى سأله آبو: فيمَ تفكر يا رءوف؟

فقال بأسًى: أفكر في مدى بشاعة الجريمة اليومية التي تُواصل اقترافَها القوةُ المضادَّة.

– وهي جريمة يُشارك فيها الطيِّبون بالسلبية والقعود عن الجهاد خوفًا من الموت، وما الموت إلا ما ترى.

– أي حياة؟!

– إنها معركة بلا زيادة ولا نقصان.

وتفكَّر رءوف طويلًا حتى أرهقه التفكير، فعاد إلى تشوُّفه السابق لمعرفة مصائر الشخوص الذين يهتمُّ بهم، فسأل آبو: أودُّ أن أعرف مصائر زعماء وطني؟

– انتظرْ حتى تراهم أو سَلْ ما بدا لك.

– ماذا عن السيد عمر مكرم؟

– إنه اليوم مرشد أنيس منصور.

– وأحمد عرابي؟

– إنه مرشد لويس عوض.

– ومصطفى كامل؟

– مرشد فتحي رضوان.

– ومحمد فريد؟

– مرشد عثمان أحمد عثمان.

– وسعد زغلول؟

– هو وحده الذي صعد إلى السماء الثانية.

– بسبب تضحياته؟

فابتسم آبو قائلًا: بسبب انتصاره على ضعفه البشري.

– زِدني إيضاحًا يا آبو.

– لعلك تعلم بأنه عانى هفوات الطموح قبل الثورة، ثم سما عقب الثورة إلى رؤيةٍ رفيعة من الشجاعة والفداء فاستحقَّ البراءة.

– ومصطفى النحاس؟

– كان مرشد أنور السادات، وعقب ٦ أكتوبر وعودة الحرية صعد إلى السماء الثانية.

– وجمال عبد الناصر؟

– إنه اليوم مرشد القذافي.

في نهاية التدريب القصيرة قال آبو لرءوف: كن مرشدًا روحيًّا لقاتلك عانوس قدري الجزار.

فامتثل رءوف الأمر بحماس وعزيمة، فقال آبو: اعتمدْ في الإيحاء على فِكرك، وإنه لقوةٌ عظيمة إذا أحسنت استخدامها، واستعِن عند الضرورة بالأحلام، والله معك.

٤

هبط رءوف عبد ربه إلى الحارة. يرى ويسمع على السرائر على حين لا يُرى له طيف ولا يُسمَع له صوت. ينتقل من مكان إلى مكان كالنسمة المُنسابة، في حارته المحبوبة بصورتها

المتكاملة الثابتة، وأناسها المُنهمِكين في شئون الحياة. إنه يملك كافة ذكرياته، وضمنها آماله وآلامه السابقة، ويتمتع بصفاء ذهن مثل الضياء الساطع. عشرات وعشرات من الكادحين والكادحات يعملون بأعيُن خابية وسواعد مفتولة. الضحكات تطفو فوق الشتائم كالزبد المُتألق الممزوج بالحموضة. ها هو المعلم قدري الجزار في وكالته، لا شبه بينه وبين هتلر في ملامحه، لكن جسمه ترهَّل من مص دماء البشر. ها هو لورد بلفور، أو شاكر الدرزي شيخ الحارة، الذي أهدر القانون تحت قدمَي الجزار، وها هو الولي الماكر عاشور الذي يستلهم الغيب لتأييد سيده ومولاه. لكِ الله يا حارتنا. كيف ومتى تمرقين من هذه الأغلال المُحكَمة؟ ويبدو أن اختفاءه — رءوف — قد حرَّك ألسنة الحارة وقلوبها. النسوة يُحطن بأمه الباكية: هذا ثالث يوم يمرُّ على اختفائه.

– بلِّغي القسم يا أم رءوف.

– بلَّغت عم شاكر الدرزي شيخ الحارة.

ويجيء صوت شيخ الحارة مُتهكمًا: ألاعيب شباب هذه الأيام.

فهتفت الأم الباكية: ابني لم يغِب ليلةً واحدة بعيدًا عن بيته.

وها هي رشيدة راجعة من معهدها. جمال وجهها الأسمر مُكتسٍ بالكآبة. أمها تقول لها: اعتني بنفسك؛ فالصحة لا تُعوَّض.

فتقول وهي تختنق بالبكاء: إني أعرف، قلبي لا يكذبني.

رنا إليها رءوف بإشفاق. صدقت يا رشيدة. قلب المحب جهاز استقبال دقيق، ولكننا سنلتقي ذات يوم. الحب خالد يا رشيدة وليس كما يتوهم البعض. وها هو القاتل يخطر راجعًا من الجامعة، تُمسِك بيد كتابًا وتقتل بالأخرى. إني لا أغيب عن ذهنك، ولكنك لا تدري بأنني انتُدبت مرشدًا لك. هل تُطيعني اليوم أو تمضي في غيِّك؟ كل شيء يدعو للطمأنينة يا عانوس؛ أبوك يُلقي ظله على الجميع، الحكومة والولاية ملك يمينه، تحت أمرك أي شهادة زور تحتاج إليها، ولكن صورتي لا تبرح مخيلتك. لمَ لا؟ ألسنا صديقَين ضُرِب بمودتهما المثل؟! ثم إنك ما زلت شاديًا في الإجرام، لم تتمرَّس به كوالدك، ومن خلال ثقافتك تعلَّمت أو على الأقل سمعت عن أشياء جميلة. أتحلُم بأنك ستظفر بقلب رشيدة نتيجةً لتلك الجريمة؟ ما هذا الذي قتلته ودفنته في الخلاء؟ لا يعنيني أمره بأكثر مما يعنيك. إني رفيقك الأبدي كما سترى. اعترفْ يا عانوس، اعترفْ بجريمتك، اعترف والحقْ بي؛ فسيكون لك دورٌ أفضل. ها هي أمي التعيسة تعترض سبيلك: يا سي عانوس … أليس عندك خبر عن صديقك؟

– أبدًا والله.

– قال وهو يُودِّعني إنه ذاهب إليك.

– تقابلنا دقائق ثم أخبرني أنه ذاهب إلى مشوارٍ هام، وأننا سنلتقي مساء اليوم في القهوة.

– ولكنه لم يرجع.

– ألم أزُرك سائلًا عنه؟

– حصل يا ابني، ولكنني أكاد أُجَن.

– وإني مثلك في القلق.

صدقت يا عانوس. إني أرى القلق في روحك مثل النمش في الوجه، ولكنك قاسٍ وخبيث. إنك من القُوى المضادَّة يا عانوس، ألا تدرك خطورة ذلك؟ إننا نشكو طول الطريق الأبيض، فما بالك وأنت تنحدر في الطريق الأسود؟! إني مُلازمك. إذا لم تتذوَّق هذه الدجاجة المُحمَّرة فالذنب ذنبك، إذا لم تستطِع أن تُركِّز ذهنك في كتابك فالذنب أيضًا ذنبك. لن أتخلَّى عنك فلا تُبدِّد تعبي هباءً، واسهد طويلًا فلن يُدرِكك النوم قبل الفجر.

ولما صعد رءوف إلى السماء الأولى وجد آبو مُنهمكًا في حديث مع إخناتون، وكان إخناتون يقول: كلما قلت له يمينك أخذ يساره.

فقال له آبو: استعملْ قُواك كما يجب.

– ينقصنا استغلال القوة المادية.

فهتف آبو: ألا ترغب في الصعود؟ المسألة أنك لم تعتَد المناقشة والإقناع، ولكنك أَلِفت إصدار الأوامر.

والتفت آبو إلى رءوف وتساءل: كيف الحال عندك؟

– بدايةٌ حسنة.

– عظيم.

– ولكني أتساءل: أليس لكل فرد من العامة مُرشده؟

– طبعًا.

– إذَن لماذا هم مُستسلمون؟!

– يا لك من مُخطئ، إنك أحد أبناء عصر الثورات.

في تلك اللحظة هبط عصفورٌ أخضر في حجم تفاحة حتى حطَّ على منكب آبو. قرَّب مِنقاره الورديَّ من أُذنِ آبو فبدا هذا مُنصتًا، ثم طار مُدوِّمًا في الفضاء حتى توارى خلف

السحائب البيض. ورأى آبو نظرة التشوف في عينَي رءوف فقال: إنه رسول السماء الثانية، جاءني ببراءة الصعود للمدعو شعبان المنوفي.

– ومن شعبان المنوفي؟

– جندي مصري استُشهد في المورة على عهد محمد علي، وهو مُرشد لُمهرِّب نقود يُدعى مروان الأحمدي، فنجح أخيرًا في حمله على الانتحار.

وجاء شعبان المنوفي مشمولًا بثوبه السحابي، فقال له آبو: ستصعد مُجلَّلًا بالبركات إلى السماء الثانية.

وهُرِع إلينا جميع المرشدين كالحمام الأبيض حتى ازدحم بهم المكان الأخضر، وقف شعبان مُتهلِّل الوجه، وعُزفت موسيقى بلحنٍ سماوي، وقال آبو: اصعد يا وردة المدينة الخضراء وواصل جهادك القدسي.

فقال شعبان المنوفي بصوتٍ عذب: طوبى لمن يُقدِّم خدمة لأرض العناء.

ومضى يصعد بخفة الشذا الرشيق والموسيقى تعزف لحن الوداع البهيج.

٥

ها هو عانوس قدري الجزار يقف أمام ضابط المباحث. الضابط يسأله: متى رأيت رءوف عبد ربه آخر مرة؟

– عصر اليوم الذي اختفى فيه، زارني في البيت، سرعان ما غادرني لمشوارٍ هام واعدًا بمقابلتي مساءً في القهوة.

– هل أخبر شيئًا عن مشواره؟

– كلا.

– ألم تسأله عنه؟

– كلا … حسبته أمرًا يتعلق بالأسرة.

– رآكما البعض وأنتما تسيران معًا في الحارة عقب الزيارة؟

لا تضطرب. الأفضل أن تعترف. فرصتك الذهبية لو تعلم.

– أوصلته حتى خارج البوَّابة.

– إذَن ذهب إلى الخلاء؟

هذه فلتة لسان يا عانوس. ما أكثر الفلتات! لن يُنجيك إلا الصدق.

– نعم.
– ماذا فعلت بعد ذلك؟
– قصدت القهوة لأنتظره.
– حتى متى بقيت فيها؟
– حتى قُبَيل منتصف الليل ثم رجعت إلى بيتي.
– تستطيع أن تُثبت ذلك؟
– كان يجلس بالقرب مني طوال الوقت عم شاكر الدرزي شيخ الحارة ... وفي الصباح الباكر ذهبت إلى مسكنه وسألت والدته عنه فأخبرتني بأنه لم يعد.
– ماذا فعلت؟
– سألت عنه جميع الأصدقاء والمعارف في الحارة.
– ألك تصورٌ خاص عن اختفائه الطويل؟
– كلا، إنه شيءٌ مُحيِّر حقًّا.

ها أنت تنصرف من القسم يا عانوس. إنك تستعيد كل كلمة قيلت. تندم على ذكر البوَّابة. تتساءل عمن شهد مَسيركما معًا، كأنك تُفكر في مزيد من الشر. وتُعيد على مسامع أبيك ما جرى من حوار. إنه مطمئنٌّ جدًّا، في جيبه تستقرُّ النقود والقانون والشهود، جرمٌ محترف. أنصحك للمرة الثانية أن تُواجه جريمتك بشجاعة وتُصفي حسابك. ثم ما هذا؟ ألا تزال صورة رشيدة ترتسم في مُخيِّلتك؟ هذا هو الجنون عينه، ثم إنك تدرك أن التحريات ستجري عنك مثل الطوفان. شيخ الحارة يُقرِّر ذلك أيضًا. الغيب يُنذر بمفاجآتٍ مجهولة. إنك تفكر في ذلك كله وتُفكر أيضًا في رشيدة يا أحمق؛ لذلك قال رءوف لآبو: الخوف من الموت أكبر لعنة سُلِّطت على البشر.

فتساءل آبو باسمًا: ألم يكن ذلك خليقًا بأن يمنعه من ارتكاب جريمته؟

ولزم رءوف الصمت، فقال آبو: لقد انتُدبت مُرشدًا لا فيلسوفًا فتذكَّر ذلك.

٦

إنك تتساءل يا عانوس لمَ يستدعيك الضابط ثانية. حسن، الأمور لا تنتهي بالبساطة التي يتصورها أبوك. ها هو الضابط يسأل: ماذا تعرف عن حياة رءوف الشخصية؟

– لا شيء فيها يستحقُّ الذكر.

– حقًّا؟ ... وماذا عن حبه لرشيدة الطالبة بمعهد الفنون الطرزية؟

– كلُّ شابٍّ لا يخلو من علاقة كهذه.

– ألك أنت مثلًا علاقةٌ مثلها؟

– هذه شئونٌ خاصة ولا شأن لها بالتحقيق.

– أتظنُّ ذلك؟ ... حتى إذا كنت تحب الفتاة نفسها؟

– المسألة تحتاج لإيضاح.

– طيب ... ما هو؟

– كاشفته مرةً بأني أرغب في خطبة رشيدة فصارَحني بأنهما مُتحابَّان، وفي الحال اعتذرت واعتبرت الأمر مُنتهيًا.

– ولكن الحب لا ينتهي بكلمة.

– كانت مجرد عاطفة عابرة ... لا أدري ماذا تقصد.

– إني أجمع معلومات، وأتساءل: تُرى ألم تتغير عواطفك نحو صديقك ولو قليلًا؟

– كلا ... عاطفتي لرشيدة كانت عابرة، أما صداقتنا فكانت صداقة العمر.

– تقول كانت؟ ... هل انتهت؟

فقال عانوس بضيق: أقصد أنها صداقة العمر.

تتساءل: تُرى هل جرى تحقيق مع رشيدة؟ ... وبمَ اعترفت؟ حسن، إني أقول لك إن التحقيق جرى، وإنها اعترفت بمحاولاتك في انتزاعها من قلب صديقك، كما اعترفت بسطوة أبيك وخوفها على نفسها وعلى أمها. أؤكِّد لك أن الأمور تمضي في غير صالحك.

فضحك الضابط وقال: تتكلم كما لو كنت يئست من رجوع صديقك.

– إني واثق من رجوعه، بهذا يُحدِّثني قلبي.

– قلب المؤمن دليله، وإني لأرجو ذلك أيضًا.

تخرج هذه المرة من القسم وأنت أشد اضطرابًا من المرة الأولى. أظنُّك شعرت تمامًا بأن الضابط الماكر يشكُّ فيك يا عانوس. لا تتصور أن أباك قادر على كل شيء. هتلر نفسه ألم ينهزم وينتحر؟!

٧

الضابط يستدعيك للمرة الثالثة يا عانوس. أعصابك بدأت تتمزَّق. أبوك يرمق شاكر الدرزي بغضب، ولكن ماذا بوسعه أن يفعل؟! قف أمام مُعذِّبك الضابط واسمع: يا عانوس، تلقَّينا رسالة من مجهول يتَّهمك بقتل صديقك رءوف.

وهتف بغضبٍ مُفتعَل: تهمةٌ حقيرة ... ليكشفْ عن وجهه.

– صبرك، نحن نُقدِّر الأمور بميزان دقيق، أنت وصاحبك ألم تكونا تذهبان كثيرًا خارج البوابة للسهر؟

– بلى.

– أين كنتما تقضيان الوقت في ذلك الخلاء؟

– في مقهى الشرفا فوق الهضبة.

– هذا ما قدَّرته، وقد قرَّرت أن أُجري مواجهة بينك وبين رجال المقهى.

انتظرْ ولا تضطرب. إنك عنيد، هذه هي الحقيقة. لا تريد أن تستجيب لمُناجاتي. ثِق في أنني أعمل لصالحك يا تعيس.

وتمَّت المواجهة، فشهد صاحب المقهى وصبيُّه أنهما لم يريا عانوس منذ أكثر من شهر. لم يتجلَّ الاقتناع الكامل على وجه الضابط، ورمق عانوس بنظرةٍ صارمة وتمتم: تفضلْ بالانصراف.

تُغادِر القسم وعلى شفتك ابتسامة النصر. لك الحق في ذلك. أبوك أحكم خطوط الدفاع من حولك، ولكن هل ينتهي الأمر عند هذا الحد؟ قلبك ينقبض وأنت تمرُّ أمام مسكن ضحيَّتك. تُساوِرك الهواجس مرةً أخرى. من المجهول الذي أرسل الخطاب؟ وهل يكون آخر خطاب من نوعه؟ إنك قاتل يا عانوس وضميرك لا يريد أن يستيقظ. لأزورنَّك الليلة في المنام. ما دمت لا تستجيب إلى ندائي الخفي فستجد جثَّتي مطروحة إلى جانبك فوق الفِراش. ها هو شخيرك يعلو تحت وطأة الكابوس، وتستيقظ فزعًا بقلبٍ ثقيل، وتنزلق من الفِراش لتبلَّ ريقك بجرعة ماء، ولكنك ستجد الجثة حال استغراقك في النوم، ويتكرَّر الحُلم ليلةً بعد أخرى. تدعو أمك الشيخ عاشور لفحص حالك فيَهبك حجابًا لتضعه فوق قلبك، ولكن الجثَّة لا تبرح منامك، وتسوء حالك فتذهب سرًّا إلى الطبيب النفسي، تتردد عليه

أسبوعًا بعد أسبوع. يقول لك قولًا عجبًا؛ إنك تتصور أن صديقك قد قُتِل، وأن جثَّته هي جثَّتك أنت للارتباط العاطفي بينكما، عاطفة واحدة ربطت بينكما؛ فجثَّتُه هي البديل عن جثتك، ولكن لماذا تتصور أنك أنت القتيل؟ جثتك بدورها بديل عن جثةٍ أخرى أو بديل عن شخصٍ آخر تودُّ أن تقتله في أعماقك وهو أبوك؛ وعليه فالحلم كله انعكاس لعقدة أوديب. ما معنى هذا؟ أنا ما زرتك في الحُلم إلا تذكرة لجريمتك بُغيةَ إيقاظ ضميرك ليُكفِّر عن فعلك، فما دخل عقدة أوديب؟ إنك لا تعشق أمك ولا تودُّ قتل أبيك، ولكنك تعشق رشيدة وقتلتني أنا لتُزيحني من طريقك.

وشكا رءوف أمره إلى آبو، فقال آبو: الشكوى من التشخيص العلمي الناقص كثيرة، حساسية من الإحباط تُشخَّص كمرضٍ ناشئ عن تناول الشوكولاتة، كآبة من فقدان الإيمان يُعالَج بسببها العصب السمبتاوي، إمساكٌ شديد بسبب الوضع السياسي توصف له المُليِّنات وهلمَّ جرًّا.

– والعمل يا آبو؟

– هل أدركك اليأس؟

فبادَره رءوف: كلا.

– استثمرْ ما لديك من قوة.

٨

حُفظت قضية رءوف عبد ربه لعدم الاهتداء إلى أسباب اختفائه. تلاشى الحادث رُوَيدًا رُوَيدًا من الأذهان، لم تعد تذكُره إلا أمه ورشيدة، ومضى عانوس يُمارِس حياته اليومية مُستغرِقًا العمل واللهو. كان الماضي يُطارِده من حين إلى حينٍ سواء في اليقظة أو في المنام، ولكنه أَلِف مناوشاته وغالَبها بالإرادة والمُخدِّر والمُنوِّم. وأمن جانب القانون تمامًا فراح يفكر من جديد في رشيدة، وإلا فما معنى إقدامه على أفظع فعل في حياته؟! كان يتعمَّد رؤيتها وأن يُريَها نفسه كل صباح وهما ذاهبان إلى معهدَيهما. ما زال وجهها مُكتسيًا بكآبة الذكرى، فهل لم تفقد الأمل بعد؟ وألا تُفكر يومًا في مستقبلها كفتاةٍ تنشُد الحياة والسعادة والإنجاب؟! وهل تطمح إلى من هو أصلح لها منه في الحارة كلها؟! لقد ضاعفت مغامرته الجنونية من تعلُّقه بها ورغبته الثابتة في الاستحواذ عليها. ومرةً تصادف مجلسه لصقها في الترام فحيَّاها، ولكنها تجاهلته فقال: كان يجب أن نتبادل المساعدة.

فقطَّبت نافرةً، ولكنه واصل حديثه: فكلانا يُعاني فقدَ عزيزٍ مشترك.

عند ذاك خرجت عن صمتها قائلةً: لم يُفقَد، ولكنه قُتِل.

– ماذا؟!

– كثيرون يؤمنون بذلك.

– ولكنه لم يكن له عدوٌّ واحد.

فرمته بنظرة ازدراء ولاذت بالصمت.

إنها تتَّهمك يا عانوس بقتله. أكنت في شك من ذلك؟ تستطيع أن تمحو الجريمة من صفحتك ببعث نفسك والوقوف في وجه أبيك. لقد فات أوان الحب.

غادرت الترام قبله، فأتبعها نظرةً مليئة بالحقد والرغبة. ودهمت مُخيِّلتَه أحلامٌ طائشة مُفعَمة بالعنف والشهوة.

٩

وقالت أم رشيدة لأم رءوف: الجميع يتكلمون عن ذلك الرجل العجيب الذي يُحضِّر الأرواح، فلِمَ لا تُجرِّبينه علمًا بأنه لن يُكلِّفك مليمًا واحدًا؟

فرنت إليها الثكلى حائرةً ثم تمتمت: وتذهبين معي؟

– لمَ لا؟ … سأتصل بالمرحوم أبي رشيدة.

وقالت رشيدة وهي تُتابِع الحديث باهتمام: أناسٌ محترمون كثيرون يؤمنون بتحضير الأرواح.

وتواعدن على يوم في تكتمٍ شديد، وقال رءوف لآبو مُتهللًا: هي فرصتي لكشف الستار عن المجرم.

فقال آبو: أنت مُنتدَب مرشدًا له لا عليه.

– أنترك هذه الفرصة تفلت من أيدينا؟

– لستَ مرشد شرطة يا رءوف، إنك مرشد روحي، وهدفك أن تُنقِذ عانوس لا أن تُسلمه للجلَّاد.

– ولكنه مثل الصخر لا تؤثر فيه نسائم الحكمة.

– إنه اعتراف بالعجز.

فهتف رءوف: كلا … لم أقنط بعد … ولكن ماذا عليَّ أن أفعل إذا استُدعيت روحي؟

– أنت حر فلا تُقيِّد حريتك بالإلحاح في الاسترشاد.

وانعقدت جلسة التحضير، وشهدتها أم رءوف وأم رشيدة ورشيدة. واستدعت روح رءوف فحلَّ في ظلمة الحجرة، وقال لأمه بصوتٍ سمعه جميع الحاضرين: رءوف يُحيِّيك يا أمي.

فشهقت المرأة لتوكُّدها من موت ابنها وتساءلت: ماذا حدث لك يا رءوف؟

فقال رءوف بلا تردد: لا تخزني. أنا سعيد، لا يُزعجني إلا حزنك. تحيَّاتي إلى رشيدة.

وسرعان ما غادَر الحجرة.

١٠

ورجعت أم رءوف وأم رشيدة ورشيدة وهن يتساءلن: لمَ لم يَبُح بسِر مُقتله؟

فقالت أم رءوف وهي تُجفِّف دمعها: ولكنه انعدم في عز شبابه.

فقالت رشيدة: لا تُزعجيه بالحزن.

وقالت أم رشيدة: من يدري؟ لعله مات في حادث.

– ولمَ لم يُخبرنا بحقيقة موته؟

– إنه سرُّه على أي حال.

وأصبح شهود الجلسات هواية أم رءوف وسَلواها الوحيدة في الدنيا، وكانت تصحب أم رشيدة ورشيدة معها، وعندما جاءت الأيام الأخيرة السابقة لامتحان رشيدة تخلَّفت عن الذَّهاب معهما.

وفي ليلة من تلك الليالي، وكانت بمُفردها بالشقة وهي تُذاكر إذ اقتحم الحجرةَ عليها عانوس قدري الجزار. تسلَّل من المنور ثم اقتحم الحجرة. وهتف به رءوف أن ارجع ولا تتقدم خطوةً واحدة، ولكنه هجم على رشيدة وكتم الصوت في فيها براحته وهو يقول: ستجرين بعد ذلك ورائي يا عنيدة.

وشرع بوحشية في اغتصابها وهي تُقاوم بعنفٍ يائس. وصرخ: سأغتصبك حية أو ميتة.

وتسلَّلت يدها إلى المِقص فوق الخوان وبقوةٍ جنونية وهي مُهتصَرةٌ تحت ثقله رشقَته في جانب رقبته. شد عليها بقسوة ووحشية، ثم تراخت قوته فانطرح فوقها جسده بلا حراك، وتدفَّق الدم الحارُّ على وجهها وصدرها المُمزَّق.

دفعته عنها فاستلقى فوق الكليم المُتهرئ، وجرَت مُترنحةً نحو النافذة وهي تصرخ بأعلى صوت.

١١

هُرِع الناس إلى الشقة فوجدوها كالمجنونة مُخضَّبةً بالدماء. رأوا جثة عانوس فارتفع الصراخ. صاحت وهي تتكوَّر على نفسها: أراد أن يغتصبني.

ولولا وُصول الضابط وشيخ الحارة قبل أن يتناهى الخبر إلى المعلم قدري الجزار لفتك بها. وكان يزأر: ابني … وحيدي … سأحرق الدنيا.

وأحاطت القوة برشيدة، وصاح الضابط: الجميع يخرجون في الحال.

وصاح قدري مُوجهًا عاصفته إلى رشيدة: سأشرب من دمك.

وانتشرت نيران الخبر الدامي في الحارة.

١٢

وقف عانوس يرنو إلى جثته وهو في حيرةٍ غاشية. تقدَّم رءوف منه باسمًا فنظر إليه الآخر وتمتم: رءوف! … ماذا جاء بك؟

فأجابه برقة: جاء بي الذي جاء بك، هلمَّ معي بعيدًا عن هذه الحجرة.

فأشار إلى جثته وقال: وأترك هذه؟

– هي ثوبك القديم، ولم يعد يصلح للاستعمال.

– هل … هل …؟

– أجل … لقد غادرت الدنيا يا عانوس.

وصمت مليًّا ثم قال مُشيرًا إلى رشيدة: ولكنها بريئة.

– أعرف ذلك، ولكنك لن تستطيع إسعافها … هلمَّ معي … فقال عانوس بعد تردُّد: آسف على ما اقترفته فيك.

– لا أهمية للأسف.

– إني سعيد بلقائك.

– وإني سعيد بلقائك.

١٣

وسرعان ما أعطاه فكرةً سريعة عن دنياه الجديدة. ولما جاء آبو قال رءوف: آبو، مُحاميك يا عانوس.

فقال آبو مُخاطبًا عانوس: أهلًا بك يا عانوس في السماء الأولى.

فتساءل عانوس بذهول: كُتبت لي الجنة؟!

فابتسم آبو وقال: صبرك، الطريق أطول مما تتصور.

ومضى آبو يُزوِّده بالمعلومات الضرورية عن عالمه الجديد، والمحاكمة، ونوعية الأحكام المُتوقَّعة. وتمثَّلت لعانوس أفعاله أشباحًا قبيحة مُفزعة، فتجهَّم وجهه وتجرَّع القنوط حتى الثمالة، غير أن آبو قال: على أي حال فإن مَهمَّتي هي الدفاع عنك.

– وهل لديك فرصة لذلك؟ ... هل يُخفِّف من آثامي حرماني من الحياة وأنا في عز الشباب؟

– لقد خسرتها بيد فتاة وهي تدفع عن شرفها اغتصابك، ثم تركتها متهَمة بقتلك.

– هذا صحيح، كم أتمنَّى أن أُندَب مُرشدًا روحيًّا لها!

– كانت ناجحة كما كان مُرشدها ناجحًا؛ فليست هي في حاجة إليك.

– أيعني هذا أنني هلكت؟

– أبوك ولا شك يربض وراء فسادك، هو الذي دلَّلك، هو الذي ملأك بالأنانية، هو الذي جرَّأك على كرامات العباد، هو الذي يسَّر لك ارتكاب الجرائم كأنك تملك الدنيا بلا شريك.

فقال عانوس مُنتعشًا: نطقتَ بالحق.

– ولكنك تُحاكَم باعتبارك ذا عقل وقلب وإرادة حُرة.

– قوة أبي خدَّرت قُواي جميعًا.

– السماء تعدُّك مسئولًا عن نفسك وعن العالم أجمع.

– أليست مسئوليةً فوق طاقة البشر؟

– ولكنك تحمَّلتها مُقابل ظفَرك بالحياة.

– لقد وُلدت بغير إرادة مني.

– بل أُخذ عليك العهد وأنت في الرحم.

– بالصدق والصراحة لا أذكُر ذلك.

– كان عليك أن تتذكره.

– إنها محاكمة لا دفاع.

– علينا أن نكشف عن الحقيقة.

– لم أخلُ من خير؛ فقد طلبت العلم كما أنني أحببت حبًّا صادقًا.

– سعيت إلى العلم كوسيلة إلى مركزٍ مرموق، وكان حبك مجرد رغبة مُتعجرفة في امتلاك فتاة صديقك الفقير.

– لم تكن تُفارق خيالي لحظةً واحدة.

– لم تكن إلا كبرياء وشهوة.

فقال عانوس مُتعلقًا بأي خيط وهو يُشير نحو رءوف: مارست الصداقة الصافية.

– ألم تقتلها بعد ذلك بوحشية؟

– كان حزني قاسيًا.

– لا غبار على ذلك.

– وحبي للقطط وحنوِّي عليها؟

– هذا جميل أيضًا.

وبعد صمتٍ قليل عاد آبو يتساءل: وماذا عن موقفك من جبروت أبيك؟

– كنت ابنًا بارًّا.

– البِر لم يكن مطلوبًا في حالك.

– طالما استفظعت بعض فِعاله.

– وطالما أُعجبت بأفعالٍ أخرى لا تقلُّ عن الأولى في بشاعتها.

– لو مُد في عمري لتغيَّر الأمر.

– إنك تُحاكَم على ما كان.

– أو أن أُعطى فرصةً أخرى.

فقال آبو بغموض: ربما تهيَّأ لك ذلك.

– متى أمثُل أمام المحكمة؟

– لقد تمَّت المحاكمة يا عانوس، ويؤسفني أن أُبلِّغك بأنه قُضي عليك بالإعدام.

في الحال تلاشى عانوس كنفحة الشابورة، تحت ضوء الشمس. ونظر رءوف إلى آبو مُتسائلًا: هل أستمرُّ مُرشدًا له؟

– إنه لن يولد من جديد فوق الأرض قبل عام على الأقل، وقد ينتظر أكثر من ذلك.

– وما عسى أن يكون عملي الجديد؟

فقال آبو بأسًى: ستتقدَّم إلى المحكمة من جديد.

فهتف رءوف: ألم أبذل أقصى ما لديَّ من جهد؟

– بلى، ولكنك فشلت، وقد أُعدمَ رجلك كما رأيت.

– العبرة بالعمل لا بالنتيجة.

– العبرة بالعمل والنتيجة معًا، ثم إنك أخطأت خطأً فاحشًا.

– ما هو يا آبو؟

– لم يكن لك إلا أن تحمله على الاعتراف بجريمة قتلك كأنها الجريمة الوحيدة في الحارة أو كأنها أكبر الجرائم.

– ألم تكن مشكلته الأولى؟

– كلا.

– فماذا كانت مشكلته؟

– أبوه كان المشكلة، لو حرَّضته على أبيه لأصبت أكبر الأهداف.

فلاذَ رءوف بالصمت محزونًا، فواصَل الآخر حديثه: لم تُحسِن اختيار الهدف، غلبتك الأنانية وأنت لا تدري، ولم يكن يسيرًا أن يعترف شابٌّ أحمق مُدلَّل ليُضحِّي بحياته، كان الأيسر أن يتمرَّد على وحشية أبيه. ولو نجح في مَهمَّته لانفضح أمر جرائم أبيه مُتضمنةً جريمة قتلك.

فقال رءوف مُسلِّمًا: أعلنِّي بالحكم.

فقال آبو: يؤسفني يا رءوف أن أبلغك بأنه قُضي عليك بالإعدام.

وسرعان ما تلاشى رءوف عبد ربه.

١٤

جرى تحقيقٌ طويل مع رشيدة سليمان، قُدِّمت للمحاكمة. اقتنعت المحكمة بأنها ارتكبت جريمتها دفاعًا عن النفس فأصدرت حكمها بالبراءة. وجدت أمها أن من الخطر غير المأمون العواقب البقاء في الحارة تحت رحمة المعلم قدري الجزار، فهربت مع ابنتها بليل، ولم يُستدلَّ لهما على مكان.

ولما كان تيَّار الحياة المُتدفق أبدًا يجرف زبد الأحزان فقد تزوَّجت أم رءوف الوحيدة الفقيرة من شاكر الدرزي شيخ الحارة عقب وفاة زوجته بنصف عام، وأنجبت له طفلًا ذكرًا أسمَته رءوف تخليدًا لذكرى فقيدها. ولم يكن رءوف الجديد إلا روح عانوس بن قدري

الجزار قد لبست جسمًا جديدًا. كذلك أنجبت إحدى زوجات قدري الجزار طفلًا ذكرًا أسماه الرجل عانوس تحية لذكرى فقيده، ولم يكن سوى روح رءوف تقمَّصت جسدًا جديدًا.

١٥

نشأ رءوف (عانوس) في بيت شاكر الدرزي الحافل بالإخوة والأخوات، في حياةٍ ميسورة بفضل النقود التي يرشوه بها قدري الجزار، ولكن شيخ الحارة لم يكن يُعنى بتربية أولاده، زوَّج البنات، أما الصِّبيان فلم يُجاوِز أحدهم مرحلة الكُتاب في تعليمه، فعملوا في شتى الحِرف سواء في الحارة أو خارجها. ولم يكن حظ رءوف أسعد من إخوته. في البدء أصرَّت أمه على أن ينجح في التعليم، وأن يعيد سيرة أخيه الفقيد، وبسبب من إصرارها تعرَّضت لزجرٍ شديد من زوجها. وسرعان ما ألحق ابنه عاملًا صغيرًا في الطابونة، وفرح رءوف بذلك؛ إذ لم يجد من نفسه الميل الصادق أو العزيمة المُتوثِّبة لطلب العلم. وبتقدُّمه في العمر مضى يُدرك الوضع في حارته، سطوة المعلم قدري الجزار، والدور الخسيس الذي يلعبه أبوه، والحياة الفقيرة التي قُضي عليه بها في خدمة المعلم رشاد الدبش صاحب الطابونة. وقد زامَل عانوس رءوف في الكُتاب، ومال كلٌّ منهما إلى صاحبه، فاشتركا في اللعب دهرًا، وتوطَّدت بينهما ألفةٌ قوية، غير أن الحياة فرَّقت بينهما رغم تجاورهما في حارة واحدة. أُلحق عانوس بالابتدائية، ثم الثانوية، ثم دخل كلية الشرطة. ربما تلاقيا في الطريق، أو تقابلا في بيت قدري الجزار ورءوف يتلقَّى العجين أو يرجع بالأرغفة، عند ذاك يتبادلان ابتسامةً عابرة أو تحيةً — من ناحية عانوس — فاترة. أدرك رءوف أن صداقة الطفولة ذابت وتبخَّرت، وأن عالَميهما مُتباعدان. وازداد شعوره حدةً بتناقضات الحياة وتعاستها فحنق على عانوس، ولكنه كره قدري الجزار ورشاد الدبش، واحتقر أباه. الحق لفحته نار الحياة، ولكن ضرَّمها ما يترامى إلى أُذنَيه في القهوة من مناقشات الشباب، حتى عانوس يُجالِس أولئك الشُّبان ويُدلي برأيه في حماس. وعند ذلك يبدو شابًّا غريبًا، مُتنافرًا مع جو البيت الذي يعيش فيه، ومُتمردًا على أبيه الجبَّار.

وجعل المعلم قدري الجزار يُراقِب نموَّ ابنه بقلق. إنه نبت جديد شرس، غريب مُثير للمخاوف، أو كما قال عنه مرةً «ابن حرام».

ومرةً سأله: ماذا تقول في القهوة للأوباش وماذا يقولون لك؟

فأجاب عانوس بأدب: نتبادل الهموم يا أبي.

– إنهم أعداؤك.

فقال باسمًا: إنهم أصدقائي.

فهتف الأب بغضب: إذا جاوزتَ حدَّك فستجدني شخصًا آخر لا يعرف الرحمة.

وقال قدري الجزار لنفسه إن ابنه سيصير عما قليل ضابطًا، سيعقل ويعرف موضع قدمه، ثم يتزوَّج وتنتهي مشكلاته.

وتخرَّج عانوس ضابطًا، وعُيِّن في قسم الحي بفضل أبيه وسعيه عند الكبراء.

١٦

إنه الزمن الذي جعل من رءوف وعانوس شخصَين غير مُتوقَّعين. اكتسح الحارةَ تيَّار، بل تيَّارات جديدة، مُتمردة وأحيانًا ثائرة؛ لذلك مرقا من جو البيت الخانق واستعار كلٌّ منهما لنفسه شخصيةً جديدة. ولم يشعر أحد بخطورة عانوس قبل أن يصير ضابطًا. أجل وقعت مشاغباتٌ متباعدة بينه وبين أبيه، ولكن الأب توقَّع أن يتغير كل شيء لصالحه حال اندماج ابنه في حياته الرسمية، أما رءوف فسرعان ما غضب عليه مُعلمه رشاد الدبش، فلطمه على وجهه وصاح به: احرص على رزقك ولا تُحرِّض أقرانك على الفساد.

ولولا منزلة أبيه — شاكر الدرزي — كشيخ حارة لفصله من عمله، ولكنه شكاه إليه فدهش الرجل لهذا العصيان الجديد في نوعه وأدَّبه بعلقة ساخنة. ولما آنس منه عنادًا استعان بحضرة الضابط عليه، قال له: يا فندم هدِّده بالقانون؛ فهذا خير من أن نُضطرَّ إلى القبض عليه غدًا.

هكذا مثل رءوف أمام صديقه القديم عانوس. تبادلا النظر طويلًا. ثَمة ذكرياتٌ مشتركة أفعمت «جوهما» بالدفء. ابتسم عانوس وسأله: كيف حالك يا رءوف؟

فأجاب رءوف: قطران، بعيد عنك.

– كان عليك أن تستمرَّ في تعليمك.

– إنه أبي وما مضى قد مضى.

فشحن صوته بجدية وهو يقول: احرص على رزقك؛ فالقانون لا يرحم.

فقال رءوف بنبرةٍ ذات معنًى: مُعلمي شَرِه ولا رحمة في قلبه.

فقال عانوس بصوتٍ مُنخفض: احرص على رزقك.

وعقب ذلك سعى عانوس لاتخاذ إجراء هزَّ وجدان الحارة وزلزل أباه؛ فقد نُقِل شاكر الدرزي إلى حارةٍ أخرى، وأحلَّ محلَّه شيخ حارة جديدًا أهلًا للثقة يُدعى بدران خليفة. ثار الأب قدري الجزار ثورةً عنيفة؛ فقد خسر اليد التي تحميه من القانون، وسأل ابنه: كيف يحصل هذا وأنت ضابط القسم؟

فقال له عانوس: في ذلك حماية لك وللناس.

– إنك ابني وعدوِّي يا عانوس.

– اعلم يا أبي بأني ابنك البار.

كان لكلٍّ لغته الخاصة به، واستحال التفاهم بينهما، واغبرَّ وجه البيت بالتراب الأسود.

١٧

وجاءت امرأة لمقابلة عانوس في القسم. عندما وقعت عيناه على صورة وجهها جاش صدره بنغمةٍ جديدة وعذبة. بديعة هذه السُّمرة الرائقة وهاتان العينان اللوزيتان السوداوان، كأن الصورة قد رُسمت على هواه من أجل هواه. لعلها في الخامسة والثلاثين أو تزيد؛ فهي أكبر منه بحوالَي عشرين عامًا. في عينَيها رصانة تُقارب الكآبة. قالت: إني أطلب حمايتك.

سألها عن هُويَّتها فقالت: اسمي رشيدة سليمان، مُدرِّسة، نُقلت حديثًا إلى مدرسة العهد الجديد بالحي.

هذا الاسم، هل مرَّ ذات يوم بشبكة ذاكرته؟ سألها وعيناه تُحدقان في وجهها بشغف: ممَّ تخافين؟

– إنه تاريخٌ قديم، قد أتعرَّض بسببه لاعتداء على حياتي.

– حقًّا؟ ما التاريخ؟ ومن المُعتدي؟

فقالت بعد تردُّد: قضيةٌ قديمة بُرِّئت منها، كنت في حال دفاع عن النفس، ولكن والد القتيل رجلٌ مُخيف وله أعوانٌ مُجرمون.

اقتحمَته الذكرى القديمة التي سمعها تتردد في صباه كعاصفة، شدَّ على أعصابه ليملك نفسه المُشتَّتة. إنه أمام قاتلة أخيه عانوس الأول. ها هي تفتنه كما فتنت أخاه من قبل. وواصلت رشيدة حديثها: هربنا إلى إمبابة، عملت مُدرِّسة في الأقاليم، وإذا بي أُنقَل فجأةً إلى الحي القديم.

صمت مطحونًا بدوَّامة انفعالاته، لم يسألها عن اسم الرجل المُخيف، ولكنها قالت: أما الرجل فمعروف عندكم، إنه المعلم قدري الجزار.

استردَّ نفسه بجهدٍ شديد مُتسائلًا: حضرتك مُتزوجة؟

– لم أتزوَّج قط.

– لمَ لم تشرحي ظروفك للمنطقة التعليمية؟

– لم يهتمَّ بي أحد.

– أين تسكنين؟

– ١٥ شارع الدري، إمبابة.

فقال بهدوء: اطمئني، سأخاطب المنطقة بنفسي، وإذا تباطأت فسأعمل على حمايتك.

تمتمت بحرارة: شكرًا ... لا تنسني من فضلك.

كلا. ليس من المُستطاع نسيانها.

١٨

لم يجد عانوس صعوبة في إلغاء النقل. وبنفسه ذهب إلى البيت رقم ١٥ بالدري بإمبابة. الوقت أصيل، والنيل شِبه ساكن، ومن فوق سطحه تتهادى لفحاتٌ باردة. استقبلته رشيدة بدهشةٍ ممزوجة بسرور وأمل، ثم قادته إلى حجرة استقبال صغيرة وبسيطة ومُهندَمة. قال: معذرةً عن الزيارة، ولكني أردت أن أسارع بطمأنينتك بإلغاء النقل.

– ألف شكر يا فندم.

أمرت له بقهوة فتهيَّأ له البقاء فترةً كما أمل.

– تعيشين مع والدتك؟

– أمي ماتت منذ عشرة أعوام، معي شغالة عجوز وطيبة.

يا للخسارة، إنها عانس ولكنها مُحتفظة برونقها.

– هل يُزعجك أن تعرفي أنني عانوس قدري الجزار ابن الرجل المُخيف؟!

ذُهلت. تلوَّن وجهها الأسمر فاكتسى بعمق. لم تنبس بكلمة.

– إني ألمس انزعاجك.

فقالت بنبرةٍ مُتهدجة: مجرد دهشة.

– أرجو ألا تكرهيني.

فقالت بحياء: إنك إنسان.

ومضى يحتسي القهوة وهو يختلس منها النظرات، ثم قال ضاحكًا: لست مُخيفًا كوالدي.

– إني واثقة من ذلك.

– حقًّا؟!

– الأمر واضح جدًّا، والحق أني بريئة.

فقال بهدوء: إني واثق من ذلك.

ومُواصلًا بعد صمت: ولكنه ثَمة شيءٌ يُحيِّرني؟

فرمقته بنظرةٍ مُتسائلة، فقال: لمَ لم تتزوَّجي؟!

فنظرت بعيدًا مليًّا ثم قالت: رفضته أكثر من مرة.

– ولكن لماذا؟

– لا أدري.

– بسبب حب الآخر؟!

– ولكنه نُسي ككل شيء.

– لا بد من سبب.

– ليس الدم بالتجربة الهيِّنة. لعلي يئست من القدرة على إسعاد أحد.

– أمرٌ مؤسف.

– لعل الخير فيما كان.

فقال مُتعمدًا: ما زلتِ شابَّة وجميلة.

في طريق عودته سبح في أجواءٍ خيالية، كره الضرورة التي تبعده عن البيت ١٥ وعن إمبابة، وقال لنفسه: «إني أحب رشيدة.»

١٩

وقف الجفاء سدًّا منيعًا بينه وبين أبيه. حزنت لذلك أمه حتى الموت. أصبح البيت كئيبًا مثل جحر فئران. هل سعى إلى النقل إلى إقليم؟ وإمبابة؟! ماذا يحدث لو عرف أبوه العاطفة المُتأججة في صدره؟ تراءت له فكرةٌ طارئة، وهي أنه خُلِق عقابًا لأبيه، وإلا فما معنى أن يعلن عليه حربًا سِرية مذ وعى ما حوله؟! يا له من أبٍ خليق بالرفض المُطلَق. إنه لموقفٌ مؤسف ومُحزِن. خاصةً وأن الرجل أحبَّه كل الحب. بقدر ما هو وحشٌ فظ في الخارج فهو أليف مُستأنس بين جدران بيته، وهو لا يتصور شذوذ نفسه. يؤمن بأنه يُمارِس حقوقه الطبيعية، حقوق الذكي القوي. نهمه للمال والسطوة غير محدود. اعتاد الإجرام كأنه تحية الصباح. حدوب على أعوانه وكريم حتى السفه. أما الكادحون ممن يبتزُّ نقودهم ويحتكر أقواتهم فيحتقرهم، وهو لا يرحم من يحتقر، وسيَمقته يومًا فيمحق أبوَّته. الأدهى من ذلك أنه دمغ أمه بطابعه فهي تعبد قوته، وكلما ارتكب إثمًا استغرقتها العبادات ولكنها تعبده. إنه — عانوس — يقيم في عرين، في معبد للقوة والخطايا.

وتعقَّدت الأمور، وقذفت من جوفها مواقف مُتحدية؛ فقد ضُبِط أعوان لأبيه وهم يبتزُّون نقودًا من عمال الطابونة. سرعان ما أُلقيَ القبض عليهم لأول مرة في تاريخ الحارة. انفجر ينبوع فرحة ضاحكة في الحارة، وثار بركان في بيت قدري الجزار. لم يعد البقاء — لعانوس — محتملًا. قرَّر الذهاب. اهتزَّ جذع أمه وهي تبكي وتقول: إنه الشيطان.

فلثم جبينها وذهب، واستأجر شقة صغيرة في إمبابة، وقال لنفسه إن القضاء على أعوان أبيه هو قضاء على طاقته الشريرة. سيعجز عن الإيذاء وتفلت الحارة من قبضته الجهنمية. وكان يدعو الله ألا يضبطه — أباه — مُتلبسًا بجريمةٍ مباشرة. والظاهر أن الرجل صمَّم على مقابلة التحدي بتحدٍّ مثله قبل أن ينهار جداره؛ ففي نفس الليلة نشبت معركة بين الأعوان وبين عمال الطابونة، وأصيب رءوف إصابةً بالغة غير أنه اغتال المعلم قدري الجزار قبل أن يلفظ أنفاسه.

أحداث مُتتابعة مُتفجرة زُلزلت بها الحارة زلزالًا، فانغمست في الدم، ولكن تبدَّدت الظلمات.

٢٠

وجد قدري الجزار نفسه أمام آبو، وسمعه وهو يقول له: أهلًا بك يا قدري في السماء الأولى.

ومضى يُعرِّفه بنفسه وبالمكان. لاحظ أن قدري شارد اللب يثقل النظرة، فقال له: كأنك لم تقطع أسبابك بالأرض بعد؟

– شيء يثقل على صدري.

– انتبِه ... إنك تعرف الآن مصيرك.

– أجل، ولكني ما تصوَّرت أن يقتلني ولدٌ مثل رءوف.

– ذاكرتك الجديدة لم تنبعث فيها اليقظة بعد.

تبدَّت الحيرة في أسارير قدري الجزار، ومضى يُفيق رُوَيدًا رُوَيدًا حتى ندَّت عنه آهةٌ عميقة، وابتسم آبو وتساءل: أعرفت من هو الولد رءوف؟

فقال قدري بأسًى: قتلني ابني عانوس.

– أجل، وماذا كنت قبل ذلك؟

– أدولف هتلر.

– وقبل ذلك؟

– بردوني قطَّاع الطُّرق بأفغانستان.

– سجلٌّ أسود طويل، لماذا تستعصي على الترقي وتُهدر الفرص المُتاحة؟ ... ابنك أفضل منك، كثيرون أفضل منك.

فقال بانكسار: لن يذهب هذا الدرس سدًى.

– ولكنك حتى مثولك بين يديَّ لم تكن قطعت أسبابك بغرائز الأرض.

– لم أكُن قد أفقت بعد.

– عذرٌ أقبح من الذنب. فيمَ تأمل؟

– آمل أن أُندَب مُرشدًا.

– هل لديك دفاع عن سلوكك في الأرض؟

– نعم، لقد بدأت تاجرًا صالحًا، وما أطمعني في الناس إلا ضعفهم وتهاونهم ونفاقهم، فاستعذبت القوة والطغيان ولم أجد رادعًا.

– إنهم سيُعاقَبون على ضعفهم وتهاونهم ونفاقهم كما ستُعاقَب على استغلالك لحالهم.

– وقتلي بيد ابني الحقيقي ألا يُكفِّر عني سيئاتي؟

– لا قيمة لهذه العلاقات هنا، وكم قتلت من أبناء وإخوة وأنت لا تدري!

– على أي حال فأنا لم أخلق طبعي ولا غرائزي.

– إنك مالكها الحر، ولم تحدَّ حُريتَك فيها حدود.

فقال بتوسل: أحسِنْ دفاعك عني ولك ما تشاء.

فضحك آبو وقال: ما زلتَ لاصقًا بالأرض، وهو الإثم الذي لا يُغتفر.

– ماذا تقول عن المحاكمة؟

– لقد انتهت المحاكمة يا قدري، وقُضي عليك بالإعدام.

وسرعان ما تلاشى قدري الجزار.

٢١

وتلقى آبو رءوف وهو مُتلفِّع بسحابته البيضاء، وجرى تعارفٌ قصير، فتجلَّى التساؤل في عينَي رءوف. وقال له آبو: أهلًا بك في السماء الأولى.

ومضى يُزوِّده بالمعلومات الضرورية، ثم سأله: كيف جئت إلى هنا؟

– قُتلت في معركة.

– ولكنك قتلت قاتلك أيضًا.

– هاجمته وأنا مطعون، لا أدري شيئًا بعد ذلك.

– للمرة الثانية تجيء قاتلًا ومقتولًا.

– حقًّا؟

– إني أعلم ما أقول.

– ماذا كان جزائي في المرة السابقة؟

– الإعدام.

– فتساءل رءوف بقلق: هل يتكرر ذلك؟

– ماذا تريد أنت؟

– كنت أخوض معركةً عادلة، وقتلت شيطان حارتنا.

– هذا حق.

فتهلَّل وجه رءوف وتساءل: هل آمل في البراءة؟

– مما يؤخذ عليك كسلك عن طلب العلم.

– ما أقسى الظروف التي عانيتها.

– هذا حق، ولكننا نُقيِّم الفرد من خلال صراعه مع ظروفه.

فتجلَّى الأسى في وجه رءوف، فقال آبو: إنك ولدٌ طيب، ولكن الصعود إلى السماء الثانية مطلبٌ عزيز.

– ألا يشفع لي ما فعلت؟

– لقد سمع كل شيء، وصدر الحكم بندبك مُرشدًا.

فسلَّم رءوف بالحكم راضيًا، فقال آبو: بُشرى أخرى، ستُندَب لإرشاد عانوس.

– ضابط الشرطة؟

– أجل، وسلوكه يُبشِّر بالخير؛ مما يضمن لك عاقبةً سعيدة.

– هي السماء الثانية فيما أعتقد؟

– أجل.

– أهي الجنة الموعودة؟

فابتسم آبو وقال: توجد سبع سماوات منذورة لخدمة أهل الأرض؛ فلم يئن الأوان للتفكير في الجنة.

– وكيف يتمُّ الصعود من سماء إلى سماء؟

– من خلال المحاكمات المتتابعة.

فتساءل رءوف في ذهول: وهل نُعفى من الكفاح بعد السماء السابعة؟

فابتسم آبو وقال: هذا ما يُقال عادةً على سبيل التشجيع والعزاء، ولكن لا يوجد عليه دليلٌ واحد.

ومضى به في انسياب عذب غنائي، يغوصان في أمواج مُقطرة بيضاء، فوق خضرة مُتألقة لا حدود لها.

الحُب فوق هَضْبة الهرم

١

أريد امرأة، أية امرأة.

إنها صرخةٌ مُدوِّية، انبعثت أول ما انبعثت من جوانحي على هيئة همسات من الذهول، همسات من الأنين، همسات من الغضب، ثم انفجرت صرخةٌ مُدوِّية؛ ما هي بالأنانية، ما هي بالبهيمية، ما هي باللامُبالاة. إني أزعم بأني مُواطن بدرجةٍ مقبولة، بل إني أيضًا إنسان بدرجة لا بأس بها. رأسي شهد حوارًا طويلًا عن الفقر والتخلف والسلام والديمقراطية والتموين والمواصلات والطُّرق، به موضع أيضًا لهموم الأسرة الكبيرة كالصراع بين الشرق والغرب، تلوُّث البيئة، نُضوب المواد الأولية، العلاقة بين العالم المتطور والعالم الثالث، احتمالات الحرب النووية؛ إذَن فالوعي آخى بيني وبين المواطن والإنسان، غير أنني لم أعُد أُفكِّر بشيء من ذلك، أو أن تفكيري به فنيَ وتقهقر وذاب في اللامبالاة. أنَجم ذلك عن خمود في العاطفة أو الفكر أو التعلق بالحياة؟ كلا، وأقسم على ذلك. المسألة أنني ما إن ختمت حياتي المدرسية حتى التحقت بالوظيفة؛ ومن ثَم خبرت الفراغ والبطالة. عند ذاك تضخَّمت همومي الشخصية، استأثرت بوعيي كله، ركِبتني، اجتاحتني، استعبدتني، أصابتني بالهوس. باتت أي مشكلة سِواها ترفًا، لهوًا، سخفًا. الجنس أصبح محور حياتي وهدفها، انقلب وحشًا ذا مخالب وأنياب، قوة مطاردة مهددة، يُطالب بالممكن ويطمح إلى المستحيل. خلق مني كائنًا جنسيًّا خالصًا، ذا حواس جنسية، وأخيلة جنسية، وآمال جنسية، وأحلام جنسية. على ذلك فإنني أبعد ما يكون عن الاستهتار أو المجون، رافض للإباحية وفلسفاتها. أروم الحياة الشرعية المستقرة، ألتمس إليها الوسيلة بلا شروطٍ مُتهورة أو طموح كاذب أو طمع قبيح. أنشد حقًّا حيويًّا أوليًّا لا أدري كيف أهتدي إليه.

ولكن من أنا؟

٢

علي عبد الستار، في السادسة والعشرين من عمري، ليسانس حقوق، موظف بالشركة أ. د. س. وُلدت مع الثورة، ناهزت الحُلم عام ١٩٦٧ المشئوم، نِلت ليسانس الحقوق عام ١٩٧٤، أُلحقت بالشركة عام ١٩٧٥. كنت من حملة الثانوية علمي، وكان أملي أن أتخصَّص في الصيدلة أو الكيمياء. خانني المجموع، حملني تيَّار التنسيق إلى كلية الحقوق بشهادتي العلمية. ما خطر لي أبدًا أن أدرس القانون، ولكنني نجحت بقوة الإرادة؛ إكرامًا لعناء أسرتي المكافحة، خوفًا من التشرد والجوع. ولما أُلحقت بشركة أ. د. س. عُيِّنت بإدارة العلاقات العامة. غنيٌّ عن البيان أنني كنت زائدًا عن الحاجة. خُيِّل إليَّ أن الزائدين أكثر من العاملين. وقال لي وكيل الإدارة: احجز كرسيًّا.

ثم قال بنبرة ساخرة: قد يتعذر ذلك غدًا. مَنظرك مقبول، تصلح للعلاقات العامة، ولكنك ستبقى بلا عمل حتى يقضيَ الله أمرًا كان مفعولًا.

فقلت بهدوء: عندي فكرة عن كل شيء.

– عظيم. ستبقى أيضًا بلا مكتب حتى نُراجع المخازن، أصبحنا في حاجة إلى حجرة إضافية. لماذا لا يسمحون للموظفين الجدد بالبقاء في بيوتهم مع الاحتفاظ لهم بحقوقهم في العلاوات والترقيات؟

فقلت بغيظٍ مكتوم: اقتراحٌ وجيه جدًّا.

– ولكن لا بد من التوقيع في دفتر الحضور والانصراف.

هكذا التحقت بالخدمة، وهكذا استقبلت عهدًا من الفراغ المطلق لا خبرة لي به من قبل، فيما مضى استأثرت الدراسة بحيويَّتي، ولم تخلُ العطلات من الاطلاع وأنشطة الشباب. إلى ذاك فقد انتفعت بنشأة أسرية دافئة تعبق بعطر الدين والقيم. ولما انبثق الجنس استطعت أن أُروِّضه بالخلق والعمل والأمل. أما في عصر الفراغ فقد انفرد بي، كما انفرد بي الزمن في جريانه، وتساءلت متى … وكيف. جلست على الكرسي كمن ينتظر دوره في تحقيق، أُراقب أقراني العاطلين، وآخرين يذهبون بالأوراق ويجيئون، وامرأتَين كهلتين مُتزوِّجتين، بين نوافذ مُغلَقة لتصدَّ تيار الخريف البارد، في جو فاسد بأنفاس البشر والسجائر، ومن زجاج النوافذ أتطلَّع إلى شرفات العمارة المقابلة مُترقبًا ظهور أنثى. وطيلة الوقت أتخيَّل مناظر جنسية ومواقف، وأخوض مغامراتٍ غاية في البراعة والعذاب. وسمعت حوارًا بين الوكيل وزميل له من معارفه: كيف وجدت الفراغ؟

– لا يُطاق.

– على أيامنا كانت الوظيفة حلمًا عزيز المنال، فاذكروا نعمة الله عليكم.

– وما قيمة النقود؟

– هي خير من الشارع.

تبادلت مع الزميل، عقب ذهاب الوكيل، نظرةً شاحبة مثل جو الحجرة، وقلت له: هنيئًا لنا؛ فنحن محسودون.

وتعلمت أن أتسلل إلى شارع قصر النيل مع الضحى. تعلَّمت الصعلكة. إنها مُسلية ومُفيدة ومُنشطة في الجو الآخذ في البرودة، وهي مُضحِكة أيضًا وهي تخوض في بحر مُتلاطم الأمواج من البشر والسيارات والأصوات المُزعجة. طابعه — الشارع — الضيق والعصبية والكبت. كل شيء يريد أن ينطلق ويعجز عن الانطلاق يستوي في ذلك الإنسان والسيارة؛ الكبت والقهر والتذمر. الطريق يُعاني من أزمةٍ جنسية مثل أزمتي. إنه يفتقد الشرعية والحرية والإشباع، ومع ذلك فهو مغطًّى بالتراب كأنه يتهادى في مدينةٍ خيالية، ولكني لم أُعنَ إلا برصد النساء. هن همي وشغلي وحياتي ومماتي. وجعلت أبلُّ ريقي الجافَّ بمضغ اللبان، وتنتقل نظراتي المحمومة من السيقان إلى الصدر إلى الأعيُن. وكدت أفقد حياتي ذات مرة؛ كنت أهمُّ بعبور الطريق حين اقتحمني صدر ناهد فسحرني واستولى عليَّ، قذف بي في أعماق الهو. اندفعت إلى العبور دون أن ألتفت يمنةً كما ينبغي لي، وإذا بسيارة تنقضُّ عليَّ كالقذيفة. نظرت نحوها فأيقنت بالنهاية، لا وقت للرجوع ولا للتقدم. استسلمت استسلامًا نهائيًّا، وتقوَّس ظهري لتلقِّي الضربة القاضية. تجلَّت لي حقيقة الموت لا كفكرة مجردة مُسلَّم بها، ولكن كشعور يملأ الوجدان بثقله وقوته وإقناعه. صرخ بي أن هكذا أجيء عندما يتقرَّر ذلك، وهكذا تنتهي الحياة في غمضة عين. خُيِّل إليَّ أني رأيت وجهه مُجسَّدًا في اللحظة الخاطفة التي لا يكشف عن وجهه إلا فيها. وحيال نظرته الواثقة مرَّ بسرعة البرق شريط حياتي من المهد إلى اللحد؛ لا وجهه أدري كيف أصفه ولا حياتي أدري كيف رأيتها مجتمعة في أقل من ثانية. وبلغ الخوف الدرجة التي يفقد فيها الشعور بذاته، لكنه اختفى بمعجزة. انحرف السائق بالسيارة ببديهة مُذهلة، فصَعِد الطوار مُهددًا حيوات وأوشك أن يصطدم بالجدران. ماذا حدث لي وماذا حدث للآخرين؟ سبحت في ذهولٍ أعفاني من متاعب جسيمة. مرَّت دقيقة على الأقل قبل أن أدرك أن الطريق كله يلهبني بنظرات السخط والغضب. ثَمة صياح وتعليقات شتى … السائق لصق السيارة ويقذف بالسباب كالمطر. مضيت مُترنحًا أفرُّ بنفسي فرارًا. كنت أُعاني آلام الخروج إلى الحياة من جديد، وأُعاني من مروري الخاطف فوق ثلاثة معابر مُتناقضة؛ هي شهوة الجنس ومقابلة

الموت ومفاجأة النجاة. وأحدثت برودةُ النجاة المُلقاة على نيران الفزع أثرًا عنيفًا تعانق فيه السرور المُتألق والحزن العميق. مضيت أسير حتى وقفت لأستردَّ أنفاسي بعيدًا عن موقع الحادثة. حتى في ذلك المكان لم أفلت من عينَي عامل من عمال الطرق، فقال لي بسخطٍ واضح: مسطول! ... بسبب أمثالك يتعرَّض السوَّاقون المساكين إلى متاعب المُحقِّقين. لا تنسَ أنك مدين بحياتك للسائق.

تضاعف ضيقي وقلت كالمُعتذر اتقاءً لسخطه: إنها الهموم.

– فصاح مُحتجًّا: الهموم! ... ماذا تعرفون عن الهموم؟!

ذهبت مُبتعدًا وقد نسيت أزمتي الجنسية وقتًا غير قصير، ولكنه غير طويل أيضًا. حذَّرت نفسي من سحر المناظر، وقلت لنفسي إنها التعاسة حقًّا أن يفقد الإنسان حياته لسبب كهذا. إنها محنة، ولكن ما العمل؟ لا يغيب عني ما يُقال عن الزواج وتكاليفه؛ المهر والشقة وخلو الرجل. يلزمني قرن من الزمان لأقتصد نفقات زيجة عادية. إنه طريقٌ مسدود تمامًا. أجل إن الأيام تمضي والصبر يُفقَد؛ ولذلك هان عليَّ — رغم تقاليد تربيتي الراسخة — أن أفكر في الحرام كضرورة لا مَفرَّ منها دفاعًا عن صحتي الجسدية والنفسية. شاورت في ذلك صديقًا قديمًا من أهل الخبرة فقال لي: الفرص أكثر من أن تُحصى.

ولما أنِس مني إقبالًا شديدًا سألني: هل عندك فكرة عن الأسعار؟

ومضى يستعرض الفرص والأماكن والمراتب ويذكر الأسعار، حتى قلت في ذهول: غير معقول!

فقال باسمًا: العرب والتضخم والانفتاح ... هل أدلُّك على أرخص سبيل؟

فسألته عنه بلهفة، فقال: لعله الزواج.

وقلت لنفسي إنه الحزن ولا شيء إلا الجنون.

٣

أسرتي أيضًا مصدرُ همٍّ لي لا ينقضي. في متاعبها الظاهرة ما يكفي فيمنعنا الحياء من نبش متاعبها الخفية. أبي يقترب من سن المعاش؛ فنحن في سباق مع الزمن. أمي كيميائية؛ لا لأنها درست الكيمياء؛ فحظها من التعليم وقف بها عند الابتدائية، ولكن للأعاجيب التي تصنعها لتُوفِّر لنا الطعام اليومي. وهي تُقلِّب الملابس وتصبغها وترفوها وتُجدِّدها، وتجعل بعضها ملكيةً مشاعة والبعض الآخر ملكية متوارثة، وتصنع من البطاطين القديمة أروابًا للأيام الباردة. والمساعدة التي جاءت نتيجة لالتحاقي بالعمل التهمها الغلاء المُتصاعد. وإني

أنظر إلى شقيقتَّي مها (الآداب) ونهى (الثانوية العامة) برثاء، ويحزنني منظرهما البسيط المُتقشِّف. إنهما محرومتان من أشياء تُعتبر في سنهما ضرورية لا كمالية، وممنوعتان أيضًا من الشكوى التي تضيق بها أمي فيرتفع صوتها الحاد: حالنا أفضل من غيرنا ألف مرة.

على ذلك فإيجار شقتنا قديمٌ دون الأربعة جُنيهات بقروش، ومهما قيل في شارع شمردل بروض الفرج فهو مسقط رءوسنا جميعًا؛ لذلك لا يكاد أبي ينعم بضحكةٍ صافية. ودأب على تذكيرنا بمصيره فيقول: لم يبقَ إلا عامان ثم المعاش.

وينظر إلى شقيقتي ويقول: النجاح … النجاح.

لقد نحل الرجل كأنما يجفُّ رُوَيدًا رُوَيدًا، وزاد من ضآلته قِصرُ قامته، ولم يكد يبقى أثر من وسامته الأصلية. الوسامة خاصية لأسرتنا مثل الفقر. وهو لا يُدخن، كما انقطع عن المقهى منذ أعوام. وكما يُقال، فهو من البيت إلى وزارة المواصلات ومن وزارة المواصلات إلى البيت. وتسليته الوحيدة يجدها في تبادل الزيارة مع جارٍ قديم — مُدرس قديم؛ مُدرس لغة عربية على المعاش — يُسامره ويستفتيه أحيانًا في بعض الشئون الدينية. وكان يقول: منذ أعوام كان رجلٌ مثلي ذو مُرتَّب يُجاوز الستين جنيهًا شهريًّا يُعَد من الموظفين المُنعَّمين، ولكن الدنيا جُنَّت.

وكان مما يحزُّ في نفسه أنه ضيَّع فرصة زواج لا بأس بها على مها. يومها قال بأسًى: ما باليد حيلة، لكن المهم هو العلم والعمل، بعد ذلك تتحسَّن الظروف والأحوال، نحن لا نملك بالكاد إلا قوت يومنا.

فقلت له: الأسعار ترتفع ونحن ننخفض.

فقال باسمًا ابتسامة لا معنى لها: كنا طبقةً وسطى فأصبحنا من الطبقة الدنيا.

فقلت بحدة: نحن الفقراء الجدد في مُقابل الأغنياء الجدد.

فحدجني بنظرة تصدُّني عن الاسترسال وقال: لا تستسلم للسخط؛ فهذا مما يزيد الحياة تعاسة، وحذار أن تُردِّد ذلك أمام مها ونهى.

فقلت مُصرًّا: الزواج حقٌّ مشروع. تُرى كيف تُفكران يا أبي؟

فتجهَّم وجهه وقال: لقد أحسنت تربيتهما، أمك صاحبة فضل أيضًا، نحن أسرة شريفة والحمد لله، وغدًا تتوظفان ويبتسم الحظ.

– لقد شهدت برنامجًا في تلفزيون المقهى يقطع بأن المُتسوِّلين خير حالًا منا.

– ولكنهم يتسولون ونحن نخدم الدولة.

لم تستطِع الأحوال أن تقتلع بقية العزة من نفسه، كما أن أمي تَعْبر أحيانًا عناد الحاضر مُتطلعةً إلى آمال غامضة وراء الأفق. وقلت مُواصلًا حديثي: إني أُتابع أنباء الأفراح في الفنادق بذهول.

فتساءل بحدة: وأي فائدة تجنيها من وراء ذلك؟ يوجد أغنياء مُنحرفون كما يوجد شُرفاء، ولا شيء يدوم في هذه الدنيا.

ثم بنبرةٍ أرَق: أتدري ما هو حُلمي؟

ثم أجاب قبل أن أنبس: أن تعملوا ذات يوم في الخارج، إنه حلم وما هو بالحلم.

٤

الهجرة! إنهم يدعون أهل المهن والحِرف وأنا لا من هؤلاء ولا من أولئك. وما فرصة الحقوقي؟ إنها نادرة جدًّا، فضلًا عن ذلك فإني أمقت القانون، وها أنا أنساه في بطالتي الرسمية دون أسف. وكنت أتسكَّع في وسط البلد لا أدري أين بلغت في تسكُّعي عندما لمحت — في مقهى الحرية — الصحفي القديم عاطف هلال. كان منفردًا بنفسه للراحة أو التفكير، فمضيت نحوه بقرارٍ مرتجل وبجرأة لا تعوزني. وقفت أمامه حتى انتبه إليَّ، فراح ينظر نحوي بعينَين مُستطلعتين وقد تجلَّى الكِبَر في صفحة وجهه أكثر مما يبدو في الصور التي تنشرها الصحف له. قلت: معذرةً عن تطفُّلي، أنا أحد قُرائك.

فتمتم بصوتٍ مُحايد: أهلًا.

– تسمح لي بدقيقتَين من وقتك الغالي؟

– تفضَّل.

– جلست ثم قلت: حرصًا على وقتك سأدخل في الموضوع رأسًا، المسألة أني واقع في أزمة شديدة.

غامت نظراته بغشاء خفيف من الفتور، فخشيت أن الذي تبادر إلى ذهنه أنها أزمة مالية وأنني سأُطالبه بمعونة، فقلت بصراحة: إنها أزمة جنسية.

توارت الغشاوة وراء يقظة طارئة، وتساءل: جنسية؟!

– جنسية بكل معنى الكلمة.

فما تمالك أن ابتسم قائلًا: لعلك أخطأت الرجل المُناسب.

فقلت جادًّا: الرجل المناسب لم يعد مُناسبًا لأمثالي؛ لذلك قصدت الرجل المفكر.

فثبَّت نظارته ليُداري انفعاله وقال: يبدو لي أنك فريسة تَجرِبة عاطفية مريرة.

– إني أتسوَّل تجربة فلا أجدها.

– شيءٌ جديد تمامًا.

– المسألة بكل بساطة أن الزواج مُستحيل وسيادتك سيد العارفين، والانحراف أصبح خياليَّ التكاليف بفضل إخواننا العرب.

فتجلَّى الاهتمام في عينَيه، فتساءلت: هل تُصدِّق أنني بلغت السادسة والعشرين من عمري ولما أُمارس الجنس ولو مرةً واحدة؟!

– أُصدقك ولو أن شكلك مقبول جدًّا.

– ولكني مرفوض موضوعًا.

قبض على ذقنه في حيرة وصمت فسألته: ما الحل يا أستاذ؟

فتمتم جادًّا: إنها مأساة ولستَ ضحيَّتها الوحيد.

– وما العمل؟

– يا له من سؤال!

ثم مُواصلًا حديثه: لا يوجد جوابٌ جاهز، يمكن أن ننتقد تقاليد الزواج السخيفة وندعو إلى الهجوم عليها، يمكن أن نتحدث عن واجب وزارة الإسكان، يمكن أن نتحدث عن مشكلة الإناث.

– وهل أنتظر أنا حتى يتمَّ هذا الإصلاح؟

– ماذا أقول؟ كم من أجيال أجهضت في تاريخ البشرية! وكما أن ملايين من الشباب سعدوا بمعاصرتهم لاكتشاف العالم الجديد فقد هلكت ملايين أُخَر في خضمِّ الحروب الطاحنة.

– يعني أنه ليس أمامي إلا تجرُّع التعاسة في صبر طويل؟

– قد يتغير الحظ بإرادة الإنسان، إنك مُطالَب بالتفكير والعمل، إنك واقع في شبكة من الظروف المُعقَّدة، وعليك أن تسأل نفسك: «ما أفضل سبيل للتصرف في مثل هذه الظروف؟» وعليك أن تُجيب بنفسك.

فسألته بحنقٍ خفي: ألا يوجد رأي عند جيل الأساتذة؟

فابتسم قائلًا: دعك من هذا. إنكم لا تؤمنون بأي جيل سابق. ألم تجد ولو مثلًا واحدًا صالحًا لأن تقتديَ به؟

– تعني ...

فقاطعته مُواصلًا حديثي: أعرف أسرةً حلَّت مشكلتها بالدعارة.

– ويقتنون الشقق والسيارات، ولكنه حلٌّ مرفوض كما قلت.
– عرفت زميلًا احترف السطو على الشقق في أثناء الصيف.
– وهو مرفوض أيضًا وعاقبته معروفة.
– سمعت عن آخر اغتصب امرأة ثم قتلها إخفاءً لجريمته.
– لعلك تقصد الشاب الذي طالَب شيخ الأزهر بشنقه علانيةً؟
– لا أدري، ولكن أما كان الأجدر بالشيخ الأكبر أن يقترح حلًّا إسلاميًّا للعاجزين عن الزواج؟!
– التشدد في العقوبة أسهل من إيجاد الحلول.
– فما الحل إذَن؟
– ألم تفكر في الهجرة؟
– لست من أصحاب المهن المطلوبة ولا من أهل الحِرف.

صمت الأستاذ قليلًا ثم قال: ثَمة رأيٌ أفضِّله؛ إذ إنني ما زلت أحتقر الحلول الفردية.

في فترةٍ قديمة دأب على ترديد هذا الرأي، وكان وقتها يكتب بقلمٍ يساري صريح، وها هو يعود إليه فيما يُشبِه الهمس والاستحياء. وقلت له بهدوء لأُخفي انفعالي: جئتك عارضًا أزمة مُلحَّة تتطلب حلًّا عاجلًا، وها أنت تنصحني بالانخراط في عمل سياسي من أجل تغيير المجتمع؛ وعلى ذلك فعليَّ أن أنتظر حلًّا لمشكلتي يجيء مع القرن القادم.

وغادرت مقهى الحرية بلا ذرة من عزاء، ولكن هل كنت قصدت عاطف هلال بدافع من ثقة؟! لقد انتُزعت الثقة ثم ماتت ثم دُفنت. إنهم كذَّابون ... كذَّابون ... كذَّابون، ويعلمون أنهم كذَّابون، ويعلمون أننا نعلم أنهم كذَّابون ... ومع ذلك فهم يكذبون بأعلى صوت، ويتصدرون القافلة.

٥

ما هذه البهجة المُنعِشة؟

نظرت وحلمت وثملت. اشتعلت النيران وأرهفت الحواس، لبثت فوق مقعدي مؤجلًا الانطلاق إلى رحلة التسكع اليومية.

– ضيفة؟
– موظفة جديدة، ليسانس آداب، اسمها رجاء محمد.

سُمرتها صافية، ما أندر السمرة الصافية، لا بالنحيلة ولا بالسمينة، في العينَين العسليتين جاذبيةٌ محسوسة، عند الابتسام ترتسم غمَّازتان في وجنتَيها، بيني وبين أن أرفعها بين يديَّ وأمضي مشكلات تُعيي العديد من وزارات الدولة. انفعلت بها كما أنفعل بأي أنثى يستوي في ذلك المراهقات والكهلات، البلديات والمُتفرنجات، المحتشمات والمبتذلات. انغمس خيالي في مصادر الإثارة، حتى تذكُّري شقيقتيَّ لم يُهذِّب من طغيان الرغبة. غِبت عن الإدارة ساعةً واحدة فصاحبَتني نشوتها الزكية في الذَّهاب والإياب. وفي آخر النهار تم تعارفنا في رزانةٍ رسمية. ورجعت إلى مسكني بروض الفرج وأنا أقرب ما يكون إلى التعاسة والألم، وهما ما يترسَّبان عادةً في صدري عقب الرؤية المؤثرة. في ذلك اليوم اختلست أكثر من نظرة من مها ونهى. جميلتان بلا ريب ولكنه جمال مُلقًى في سلة مهملات. بدتا لي مُتقشِّفتَين صابرتين، تموت الشكوى وراء شفتَيهما المُمتلئتين. وسألت مها: هل تعرفين فتاة من كليتك اسمها رجاء محمد؟

فتساءلت ساخرةً: كيف أعرف ونحن أكثر من الجيش عدًّا؟!

– التحقت بإدارتنا اليوم.

فتساءلت نهى بمكر: لمَ تسأل؟

فقلت بتحدٍّ ساخر: كيف لا وقد توفَّر لديَّ المهر وخلوُّ الرِّجل؟

فقالت مها: ادعُ الله أن يكون أبوها من شارع الشواربي فلا يُطالبك بمليم.

فقلت ضاحكًا: الشواربيات للشواربيين.

قرأت في دعابتها أحلامًا خفية، ونحن عادةً نتحادث بحذر مُتأثِّرين بجو بيتنا المُتشدد؛ أبي، وأمي أشد منه. وأمي مُتفائلة جدًّا رغم عنائها الدائم، وهي سعيدة بأنها حصَّنتنا ضد استهتار الزمن. وفي تقديري أنه سيسعى إليها ذات يوم — خاصةً بعد التحاقها بالعمل — زوجان محترمان متقدمان في السن والقدرة المالية فيُهيِّئان لها الحل الممكن. إنه زمن الكهول والأوغاد.

٦

ما هذه البهجة المُنعشة؟

لقد وهبتني ابتسامةً مُضيئة وبريئة كالوردة اليانعة. تبادلنا الكلمات عند كل مناسبة ثم جادت بالابتسامة. خلقت الابتسامة حياةً جديدة. غلَّفت الانفعال البهيمي بعذوبةٍ

صادقة. نمَت الشجرة وتفرَّعت وتعذَّر أن تُنعت بصفةٍ واحدة، وتساءلت: أهكذا تتحول الغريزة إلى عاطفة؟ وكنت أخلق المجال تلو المجال للحديث. قلت لها: حذار من البطالة.

فقالت بِحيرة: إنهم لا يعهدون إلينا بعمل.

– ستنسين ما تعلَّمته.

– العمل نفسه هنا مقطوع الصلة بما تعلَّمته.

– ماذا كان تخصُّصك؟

– التاريخ.

– لولا ضوضاء المكان لاقترحت عليك القراءة.

– لا أحب القراءة إلا نادرًا.

– جيل التلفزيون؟

فضحكت بصوتٍ غير مسموع وقالت: ليس تمامًا.

– وحذار من الملل.

– اليوم طويل حقًّا، ماذا تفعل أنت؟

– أتسكَّع وسط المدينة.

– لا يُناسبني ذلك.

– لا مفر من أن تجديه مُناسبًا ذات يوم.

– المهم ألا نعتاد الكسل.

فقلت بأسفٍ صادق: كنت طالبًا مجتهدًا، حتى العطلة السنوية لم تخلُ من نشاط واطلاع، أما اليوم فقد أصبح التسكع مذهبي ... كيف تُمضين وقتك؟

– لي أخوات وصديقات، هناك التلفزيون دائمًا، وأحيانًا السينما أو المسرح.

لم يعد في الدنيا ما يستأثر بوعيي أكثر منها. لها الغريزة والعقل أيضًا. ومن عَجبٍ أن مظهرها انتبهت إليه مؤخرًا نسبيًّا، تعاملت مع المضمون قبل الشكل. وعندما حدَّثتني عن السينما والمسرح أدركت أنها تُطلُّ عليَّ من مستوًى أرفع، عند ذاك ركَّزت على البنطلون الرمادي والحذاء ذي الرقبة والبلوزة المُزركَشة والجاكتة الجلدية، أنيقة وثمينة. تُرى ما وراء ذلك؟ الزمن يطرح احتمالات شتى. وإني أحلم بالزواج، ولكني أرحِّب بالفرص. عاطف هلال ذو مال وبنين؛ فهو يحتقر الحلول الفردية. وهو لم يصل إلى مركزه المرموق إلا بحلٍّ فردي انتهازي. ووجدتني أتذكَّر عهد الدراسة، أتذكَّر التيارات التي انتظمت الطلبة؛ أبناء الأغنياء الذين ينعمون بالاستقرار ولا يهتمُّون كثيرًا بالدراسة، فقراء يحلمون بالشهادة من

أجل الوظيفة، مُتمردون يضطربون في عوالم الأحلام ويرفضون كل شيء. كنت في مكانٍ وسط بين الصنف الثاني والثالث، أحلم بالوظيفة إكرامًا لعناد أسرتي، وأُكنُّ للمُتمردين الإعجاب والتأييد. كثيرًا ما يتعرَّضون للتحقيق والمطاردة، ومنهم من انتهى إلى السجن. تُرى إلى أي فريق تنتمي رجاء؟ على أن الاحتمالات أوسع من ذلك، وإني أريدها من أي سبيل ممكن وإن ظل الزواج حلمي المنشود؛ لذلك لم أدَع فرصةً تفلت لتوثيق مودتنا حتى نطق لسان حالي بما أحلم به، وتشجَّعت ذات مرة فدعوتها إلى لقاء ضمن رحلة للتسكع.

٧

ما هذه البهجة المُنعشة؟!

فاضت نفسي بهذا المعنى وأنا أراها مُقبِلةً نحو موقفي أمام الأمريكين. في تلك اللحظة شعرت بأنني بتُّ من كبار العاشقين فعاهدت الله ألا أُسيء إليها ما حييت قط. غصنا فوق أريكتَين جلديتين يفصل بيننا خوانٌ مَعدني. وضعت حقيبتها السوداء على طرف الخوان وراحت تُمشِّط بعض خصلاتها، كما رحنا نتبادل النظر في هدوء وحب استطلاع. طلبنا الشاي ليُدفئنا في الجو البارد، وشملنا من بادئ الأمر تفاهمٌ حميم، لا ظِل من الغموض يطرح نفسه على الدعوة من جانبي والتلبية من ناحيتها. كلانا ناضج ويعرف ما يريد. وإن تكن صداقة فهي واضحة الهدف. قد تعني من جانبي ميلًا وربما حبًّا، وبحسبها أن تعنيَ من جانبها أنني موضوعٌ صالح للتجربة. ألا يعني ذلك القَبول من ناحية المبدأ؟! سألتني: هذا مكان تسكُّعك؟

فقلت وأنا أقدِّم لها وعاء السكر: التسكع في الشوارع، ولكنه لا يصلح للقاء.

– وكيف تُطيق الزحام؟

– إنها القيامة، ولكنها خير من القعود ست ساعات فوق مقعد خشبي.

فابتسمت قائلةً: إنه نوع من العقاب، ولكن الزحام لمثلي غير مأمون.

– ماذا تركبين في الذهاب والإياب؟

– نحن نُقيم في شارع الشهيد عبد الملك فيما وراء دار القضاء العالي، فلا حاجة بي إلى الباص.

ثم مُواصلةً حديثها بسرعة: لولا ذلك ما قبلت الوظيفة.

فقلت بقلق: إذَن فأنت غنية.

– أبدًا، أبي موظف، موظف كبير إذا شئت، ولكن ذلك لم يعد يعني شيئًا.

وجدت في قولها مُتنفَّسًا للراحة وقلت: الحال من بعضه حتى وإن لم يكن مُتطابقًا.

وانتهزت الفرصة فقدَّمت لها صورةً أمينة لأسرتي مُتوخيًا الصدق في الأمور الجوهرية ودون تطرُّق إلى التفاصيل الحرجة، ثم سألتها: لك إخوة؟

– ثلاث بنات كبراهن بكلية الطب.

– الحق أن الحياة عبءٌ ثقيل.

فأحنَت رأسها الرشيق مؤمِّنةً على قولي، فقلت: خاصة للشرفاء.

– كان أبي (محمد جاد) مُحاميًا مرموقًا، ثم تغيَّر الحال عقب التأميمات، فقبل وظيفة مُدير الإدارة القانونية بشركة أ. م. د.

قلت لنفسي إن مثله جدير بأن يملك مدخرات لا بأس بها؛ فهو خير من الموظف العادي. ليس بالغني ولكنه ليس بالفقير أيضًا. ثَمة أمل ولكنه ضعيف. وقلت مُلقيًا مزيدًا من الضوء على موقفي: أسرتي لن تعرف الراحة قبل أن تتوظَّف أُختاي، وأملُ أبي مُتعلق بهجرة ثلاثتنا إلى بلاد العرب.

– على أُختَيك أن تختارا مهنةً مطلوبة كالتعليم.

– أنت لا تُفكرين في ذلك؟

– إني أمقت هذه الفكرة وأرجو ألا أحتاج إليها أبدًا.

انقبض صدري بعض الشيء، ولكن ذلك دفعني إلى مزيد من الجرأة فسألتها: كيف تتصورين المستقبل؟

فتساءلت مُتغابيةً: ماذا تقصد؟

– لا يمكن أن تعيشي بلا حُلمٍ ما؟

فضحكت قائلةً: أنا لا أحلم.

– كل إنسان له حُلمه.

– حقًّا؟ ... فما حُلمك أنت؟

فقلت مُتماديًا في جرأتي: الحق أني أحلم بشريكة لحياتي.

فرمشت كالمرتبكة ولاذت بالصمت، فقلت: هذا هو حُلمي.

فتساءلت شاردةً: ماذا يمنعك من تحقيقه؟

فلم أدرِ ماذا أقول اعتقادًا مني بأنني قلت كل شيء فسألتني: لمَ لا تتكلم؟

– قلت ما فيه الكفاية، آن لكِ أن تتكلمي أنت.

وإذا بها تقول بجدية تامة: لقد تعرَّضت لتجربةٍ غير سارَّة.

فحدجتها بنظرة مُستطلعة، فقالت: تقدَّم لي موظف من مرءوسي والدي، وفشلت التجربة أمام عقبات لا يمكن التغلب عليها.

فتساءلت بأسًى لم أستطِع إخفاءه: ما هي؟

– المهر ... والمسكن.

فقلت مُتعلقًا بآخر خيط: ليس التغلب عليها بالمستحيل.

– حقًّا؟

– إن يكن بوسع الأب الاستغناء عن المهر، أو يكون من الممكن إخلاء حجرة في البيت للعروسين؟!

فهزَّت رأسها بأسف مما يعني النفي. في الصمت الذي تلا اعترفت بالإخفاق. جاءت مدفوعةً بحب الاستطلاع والأمل فتلاشى كلٌّ في هيكل الحقيقة العارية. لعلها تتأسف الآن على ضياع الوقت سدًى. لعلها تُفكر في انتحال سبب لإنهاء اللقاء. وقلت بلا روح: حسبنا صداقتنا الحميمة.

غمغمت شاكرة. ولم يبقَ إلا أن نُغادِر المكان ليرجع كلٌّ منا إلى الشركة من طريق.

٨

قلت لنفسي إنه لا مفر من النسيان، لا مفر من الوأد. الأمل والغريزة مُتعلقان بها، يتسلطان عليَّ بكل قوة، يستأثران بأحلام اليقظة، يُعذِّبانني ليل نهار ولكن لا مَفر. ما زلت في أول الطريق، وهي لا تُبادلني إحساسًا أو عاطفة. ما هي إلا فتاةٌ عاقلة تبحث عن زوجٍ مُناسب. إنه حقٌّ مشروع ورغبةٌ نبيلة. ويبدو أنه لا يُحركها طمع ولا آمالٌ جامحة، إنها عاقلة تمامًا. لم تُجرب الحب أيضًا أو هذا ما أظن. داخَلني شعورٌ قوي مؤثر بأنني لن أجد فرصتي في العقل، أبدًا. ما فائدة العقل في عالم لا معقول؟ لا مفر؛ وعليه فلْأتجنَّب مبادلتها الصداقة ما أمكن ذلك، ولأهجر الإدارة مُبكِّرًا عن العادة. رجعت إلى الفراغ؛ الفراغ المُحتدِم بالعذاب والملل. إنه يتجسَّد لعينيَّ كما تجسَّد الموت في مقدمة السيارة، كائن محسوس، غير محسوس، يقطر كآبة ورفضًا للحياة، قبضته الخانقة تُفشي لي سر المُدمِنين؛ مدمني الخمر والمُخدِّرات والقمار، لكنني مُحصَّن بمثاليةٍ باهتة وبالفقر. لعلَّ الأوفق لي أن أملأ الفراغ بالسياسة. ما زلت على صلة تعارُف بالزملاء القُدامى، يمكن أن أطوف بهم للمناقشة والاختيار. شعار عاطف هلال صالح للتطبيق. إنه يدعو كثيرين من ذوي الإرادة ويصلح أيضًا لليائسين. إنها مجرد خواطر تعبر رأسي سادرة، ولكن أخطر القرارات قد تبدأ من

خواطر سادرة، يتسلل إلى النفس كالمزاح ثم ينقلب جدًّا كلَّ الجد، لكنني أقنع بمداعبة الأفكار ومداراة الغريزة الطاغية. سيحدث شيءٌ ما في وقتٍ ما، شيء قريب أو بعيد. لن تمضي الحياة في فراغ إلى الأبد. الهجرة أو السياسة أو مغامرة لا تخطر بالبال. الأيام تمضي. الحركة بطيئة في الشارع ولكن الأيام تُسرع. رجاء تحرك أحلام اليقظة. ملكتها في الخيال بقدر ما فقدتها في الواقع.

٩

تعرَّض بيتنا بشارع الشمردل لغزوةٍ قوية. تقدَّم سبَّاك في الثلاثين من عمره يُدعى أحمد عبد المقصود لطلب يد نهى. قال أبي ونحن مجتمعون في الصالة: ما على الرسول إلا البلاغ، أبوه عامل بالحديد والصلب، يحمل شهادةً صناعية مُتوسطة، عمل في السعودية أعوامًا خمسة، يملك شقة في المعادي وسيارة نصر.

شملتنا حيرة. وقالت أمي مُقطبةً: ليس من مقامنا.

فقال أبي بمرارة: عمَّ تتحدثين؟ ... انتهى مقامنا من زمان.

فقالت أمي: إنها لم تتم تعليمها بعد ولا بد أن تُتمه.

فقال أبي: إنه يريدها ست بيت.

فقالت أمي: لم نُعدَّها لذلك.

فقال أبي: إنه أسهل من تعلم الطبيعة والكيمياء.

فقلت: العمل ضروري لها حتى لا نتركها تحت رحمة المجهول.

وتحوَّلت نحو مها مُتسائلًا: ما رأيك يا مها؟

فقالت بوضوح: لم نسمع صوت صاحبة الشأن.

فقال أبي: الكلمة الفاصلة لها طبعًا.

وتلاقت النظرات فوق وجهها حتى عطفت مها عليها فقالت: أمهِلوها لتُفكر.

وقلت أنا: ثم إنها لم ترَه.

فتساءل أبي: يهمُّني أن أعرف هل تقبله من حيث المبدأ؟

فقلت بإصرار: بل هو مقبول من ناحية المبدأ، إنه ينتمي اليوم إلى طبقةٍ أعلى.

فهتفت أمي: إنك تخلط الجد بالهزل.

وحدثت الزيارة التقليدية فوجدته مقبول الصورة ولا عيب في مظهره إلا مبالغة في التأنق وحساسية بالذات ملفتة للنظر. ووضحت مواقفنا بين رفض من ناحية أمي وحياءٍ

شمل ثلاثتنا أبي ومها وأنا. وما أدري إلا ومها تقول لي ونحن ننتظر الباص صباحًا: نهى موافقة.

– من ناحية شكله لا بأس به.

– ومن ناحية الموضوع أيضًا.

فسألتها بقلق: أهو قرارٌ أملاه اليأس؟

فقالت بضيق: فسِّره كما تشاء.

وفرضت الموافقة نفسها علينا جميعًا، غير أن أمي قالت بغضب مخاطبةً أبي: المسألة أنك وجدت زوجًا لن يُكلفك مليمًا واحدًا.

فسألها بمرارة: هل لديك مالٌ تُخفينه عنا؟

ودعوت لها من قلبي بالتوفيق.

١٠

ما هذه البهجة المُنعشة؟!

وأنا أغادر الشركة مُبكرًا للتسكع وجدت رجاء كالمنتظرة عند الباب. أقبلت نحوي هامسةً في عتابٍ حاد: أين أنت؟ كأنك هاجرت من البلد.

غزتني فرحةٌ راقصة سمَت بي إلى أرفع سموات السعادة. طالما ظننت أنها نسيتني تمامًا، وأن عقلها الحكم قد حذفني من جدول الاحتمالات. عتابها اقتحمني كنغمةٍ عذبة مُفعَمة بالنداء، فيه العتاب والشكوى والرغبة والاعتراف، فيه ما يُغيِّر مذاق الدنيا في ثوانٍ مثلما تُغيِّرها الفصول في أشهُر، فهل يُفرِّق بين اليأس والأمل إلا خيط الفجر؟

حوالَي العاشرة كنا نجلس بمجلسنا في الأمريكين. قلت مُعبرًا عن امتناني: جزاك الله كل خير؛ فقد أعدتِ خلقي من جديد.

تخفَّفت من ارتباكها ناقرةً على سطح الخوان بظفرٍ أحمر على هيئة لوزة مُصغَّرة. قلت: توهَّمت أن لقاءنا الأول هو الأخير، وعزمت على النسيان بأي ثمن، ولكن الحب أقوى من كل شيء.

فهمست باسمةً: ولكنك لا تكاد تعرفني.

– عرفت ما يكفي لخلق الحب في أقوى أحواله.

– خُيِّل إليَّ أنك نسيتني تمامًا.

– تمنَّيت ذلك، وتبدَّد هباءً ما تمنَّيت.

فقالت باسمةً: وها نحن نلتقي لنتقاسم العذاب.

فقلت بحماسٍ خلقته نشوة الظَّفر: مع الحب الحقيقي لا توجد مشكلات.

– حماسك جميل، ولكنه عاطفة وليس معجزة.

– بل هو في الأصل معجزة، علينا أن نعتبره كذلك، في أي شرع يجوز أن يُفرِّق بين قلبَين أشياء مثل شقة وأثاث ومهر؟!

فابتسمت في أسًى وتمتمت: إنك تحلم بحياة كالطيور.

فقلت بإصرار: لدينا الحب والإرادة والحياة التي لا ترحم الأغبياء، فلنتعاهد على ألا يُفرقنا شيء في الوجود.

فتورَّد وجهها حيرةً وسعادة، فقلت والنشوة ترقى بي في مدارج السكر: فلنتعاهد.

فهمست: كما تشاء ... ولكن أما آن لنا أن نفكر؟

فخِفت أن أُفيق من نشوتي فقلت: علينا أن نُعلن خِطبتنا في الحال.

– ماذا؟

– أن نُعلن خِطبتنا في الحال.

– لو اقتصر الأمر علينا لهان.

– علينا أن نُقنع الأهل.

– مهلًا ... ماذا نقول لهم؟

– إننا سنعلن خطبتنا ونحل مشاكلنا بنفسنا.

– ولكن ...

فقاطَعتها: لكلٍّ منا عمله واستقلاله.

– ألا نفكر قبل أن نُقدِم؟

– بل نُقدِم أولًا.

– أخاف أن نجعل من أنفسنا ...

قاطعتها: فلنعلن خطبتنا، يجب أن نُحقق نصرًا ما، ولكِ عليَّ بعد ذلك أن أسطو على البنك الأهلي عند الضرورة.

غادرنا المكان وأنا أُردِّد في باطني: «ما هذه البهجة المُنعِشة؟!»

١١

يبدو أن رجاء اعتبرت ما دار بيننا دردشةً غنائية، فأصرَّت على لقاء ثالث لنُناقش قرارنا بهدوء. قلت لها: رجاء، إذا استرشدنا بالعقل فعلينا أن نُسلم بالفِراق الأبدي.

كانت تُقدِّم رِجلًا وتؤخر رِجلًا. كانت تُشاركني الرغبة ولكنها تخاف العواقب. قلت: إني مُخلِص، يلزمني عمرٌ طويل لكي أقتصد المهر، وثلاثة أعمار لأجمع خلو الرِّجل؛ فإذا لم يكن من التعقل بدٌّ فلنفترق.

فقالت بقلق: سيَرَون في سلوكنا ما يقطع بجنوننا.

– يلزمنا قدرٌ من الجنون نلقى به عالمنا المجنون.

– يحزنني أنني سأُغضب أعزَّ الناس عليَّ.

– إما أن نُغضبهم وإما أن ننتحر.

فتفكَّرت مليًّا ثم تساءلت: هَبْنا فرضنا إرادتنا، فماذا بعد ذلك؟

– لو أن لديَّ خطةً جاهزة ما كتمتها عنك، ولكن تحمُّلنا للمسئولية سيدفعنا إلى التفكير، إلى قهر المستحيل ... ولو وجدنا الطريق مسدودًا؟

– الطريق المسدود شعار العاجزين، ثم ألا يستحقُّ حبُّنا المغامرة والتجربة؟

وكانت في صميمها عازمة على المغامرة.

١٢

خاض كلانا معركةً عائلية على تفاوت في العنف والحرج. دهش أبي وتساءل: تخطب؟!

لكن مرارة الحياة روَّضته على الاستهانة بما يعدُّه من الأمور الثانوية. وتساءل مرةً أخرى: أأنت على استعداد؟

فقلت ببساطة: لا استعداد ولا خلافه.

فقالت أمي: أنت تعلم أنه ليس لدينا ...

فقاطعتها: إني أعرف كل شيء.

فتساءلت برجاء: لعل أهلها أغنياء؟

– كلا.

فتمتم أبي: قرارٌ خاطئ ولا شك.

فقلت بإصرار: لن أعدل عنه.

فرفع الرجل منكبَيه قائلًا: أنت حر، وأتمنى لك التوفيق.

أما رجاء فقد خاضت معركةً حقيقية. انهالت عليها الأسئلة وجاءت الإجابات كلها بالنفي. ثار الغضب كما ثار الكبرياء. رُميت بالجنون. تدخَّل أقرباء وقريبات. أصرَّت رجاء على طلبها، بل هدَّدت بإعلان خطبتها خارج نطاق الأسرة.

كانت تجربة عسيرة أن أمضيَ إلى عمارة الشهيد عبد الملك وأنا على علمٍ كامل بمشاعرهم نحوي، وبأنهم يعتبرونني وباءً أفلت من المراقبة الصحية. الحق أن مها صدقت عندما قالت: إن جُرأتك تستحقُّ الإعجاب.

وقد أرهقني ابتياع الدبلتَين، أما الشبكة فقد اشترتها رجاء ودسَّتها إليَّ لأُهديَها إليها في الحفل الكئيب. ولم تُعلَّق خارج المسكن أو داخله علامة من علامات الأفراح، وندَّت الوجوه عن بسماتٍ مُتكلَّفة أخفت منها العبوس.

وقال لي الأستاذ محمد جاد: طبيعي أن أتمنى لكما التوفيق، لا تُسئ الظن بنا، ستكون يومًا ما أبًا وتعرف.

أما حرمه — أمُّ رجاء — فقالت لي: نحن دائمًا متَّهَمون، لماذا؟ أيوجد أثاث بلا مهر؟ هل يعيش ابن آدم بلا مأوًى؟ أيوجد أب أو أم بلا قلب؟!

إنه صوت العقل، هو ما يعترضني دائمًا بجدارٍ صخري. لم يبقَ إلا أن نُجرِّب الجنون. إذا صدَّك العقل عن السعادة فجرِّب الجنون، أليس ذلك من العقل أيضًا؟! ما يستحقُّ اللعنة حقًّا هو الاستسلام. ونحن نلقى الإهمال والضياع على حين تتغنَّى الحناجر بالوعود المعسولة. وتحدَّيت الظلام.

١٣

حقَّقنا الرغبة واستقرَّت الدبلة في البنصر، وأثملَنا إحساسٌ حميم بأننا بلغنا غايةً ما وراءها غاية. وسرعان ما أدركت أنني لم أقطع إلا الخطوة الأولى. أجَّلنا مناقشة المشكلة استبقاءً للصفاء، ولكنها استوَت على الأفق مثل نذير النشرة الجوية، ولم يُحرجني أحد من أسرتي فيسألني مثلًا: «وماذا بعد ذلك؟» مها وهي أقربهم إليَّ همست لي يومًا: لعله عليك الآن أن تُخصِّص لي جنيهًا شهريًّا من مُرتَّبك شهريًّا؟

فضحكت ضحكةً عصبية وقلت: أتظنِّين أن توفير نقطة ماء يُجدي لملء بُحيرة؟

فقالت باهتمام: أظن أنه في وسع والدها أن يحل المشكلة.

فقلت بامتعاض: إنه حقًّا موظف كبير، ولكنهم أصبحوا جميعًا يتبعون كادر الشحَّاذين، ومدَّخَراته تفي بالكاد بأعبائه، ولعله يستطيع أن يقوم بالواجب إذا قدَّم الطرف الآخر الشقة والمهر.

– إذَن فما هي خطتك للمستقبل؟

فقلت ضاحكًا: لا أملك إلا إرادتي.

وغامت نظرتها بالتفكير، ربما في حالها أيضًا، حتى سألتها: فيمَ تُفكرين؟

فقالت وهي تتنهَّد: تمتَّعوا بشبابهم في أيام يُسر ورخاء، ولم يخلفوا لنا إلا الأطلال.

ودأبت على زيارة آل جاد بشارع الشهيد عبد الملك من حين لآخر. أملت أن أظفر بعلاقةٍ صادقة مع المسئولين، ولكن أم حبيبتي تصدَّت لي هناك كالصخرة، وضنَّت عليَّ حتى بالابتسامة العابرة، وما من زيارة إلا وذكَّرتني بالواجبات المقدسة؛ الشقة والمهر. وفي مجلس الأمريكيين قلت لرجاء: الهجرة ... الأمل في الهجرة.

فسألتني والحق أنها لم تطرق الموضوع حتى فتحته لها: ما هي فرصتك؟

– عملٌ قانوني في شركةٍ ما، إني أتابع الإعلانات في الصحف، إنها فرصةٌ نادرة.

– لكنها محترمة.

– الحق أني ما أحببت القانون أبدًا، لقد اقتحمني مثل حوادث الطريق.

إني أنتظر معجزة. أنتظر عونًا من الخارج؛ خارج ذواتنا، لم أتعلم شيئًا ينفعني. أحمد عبد المقصود يعيش عصره أكثر مني ألف مرة. إني أتحدَّى وأحلم ولكني لا أفعل شيئًا. وضاعَف من حدة مسئوليَّتي أن عرَف الزملاء في الإدارة بخطبتنا. انهالت علينا التهاني والأسئلة. هذا السؤال اللعين: وجدتم الشقة؟

– دفعت الخلو؟

ما هو إلا مزيج من الإحراج. تضخَّمت المسئولية التي أحملها. الأيام تمر؛ الأسابيع والأشهُر. ينظرون إليَّ كطُفَيلي يقف عثرةً في سبيل شابَّة مُمتازة. ولم تسكت عني الأسئلة حتى فقدت أعصابي واختنقت بمشكلتي المُستعصية.

وسألتني أمُّ رجاء ذات مرة: حتى متى ننتظر؟

وأفصحت عن مشروع لأول مرة — بعد موافقة رجاء سرًّا — فقلت: هنالك حلٌّ ممكن؛ جهِّزونا واعتبِروا نصيبي دينًا يُرَد عند الميسرة.

فهتفت الأم مُحتدةً: يا له من اقتراح لا أحب أن أصفه، حسبي أن أخبرك أنه مُستحيل التنفيذ.

– لماذا؟

فصاحت: إنه غير لائق.

همست رجاء برجاء: ماما!

وقلت أنا مُنفعلًا أشد الانفعال: لا حيلة لي، ولكن لا داعيَ للإهانة.

فقالت الأم بحدة: افسخ الخطبة.

فقلت بالحدة نفسها: لا أقبل أمرًا إلا من رجاء.

فصاحت الأم: إن كنت تحبها فابعد عن طريقها.

ولم تكفَّ إلا حين أفحمَت رجاء في البكاء.

١٤

رجعت الكآبة بسمائها الشاحبة وهوائها اللافح المُشبع بالتراب. زادها الصيف احتدامًا ففتر نشاطي الروحي وغطَّاه الرماد. رغم جرأتي عانيت حساسيةً شديدة. تمخَّض الموقف الباهر لعينيَّ عن أنانية تتجسَّد كالبلطجة، وقلت لبقايا الحُلم الوردي: «لا.» لعلها لاحظت كآبتي في اليوم التالي في الأمريكين فقالت لي: إني معك حتى النهاية.

ومع أنني تلقَّيت قولها مثل شربة مُثلَّجة في يومٍ قائظ إلا أنني قلت: ليبعد الله عنك شر هذه النهاية.

فتساءلت بقلق: ماذا حل بروحك؟

فقلت بوضوح: ليس الحب أن أضحِّيَ بك على مذبح جنوني.

– ما زلنا في أول الطريق وسوف نجد حلًّا ما.

– أين الحل؟ ... المسألة أفظع مما تصوَّرنا وأنتِ الخاسرة.

فقالت بعتاب: أحسبتني قاصرة؟ ... لا تعتبرني ضحية من فضلك.

– هذا هو سر جنوني الباهر، ولكنه هو أيضًا ما يُملي عليَّ ما ينبغي عمله.

– ما ينبغي عمله؟

– لا يجوز أن تبقى خطبتنا أكثر من ذلك بلا حلٍّ واضح.

فقالت بانفعال: شخص آخر يتحدث، أنسيت ...

فقاطعتها: لم أنسَ، كنت مجنونًا، لقد أسأت إليك إساءةً بالغة، الجميع يُدركون ذلك لا والدتك فقط، الجميع حتى الزملاء، لا شك أنك تسمعين وتفهمين.

– لا أهمية لذلك.

– نبل وشجاعة، ولكنك تُسيئين إلى نفسك بلا أمل، رجولتي تأبى عليَّ ذلك، حبي يؤنِّبني ويتَّهمني، لا ... لا.

فقالت بحدة: إني صاحبة الحق في القول الأخير.

– لي حق أيضًا، بل هو واجب، على المجنون ألا يجرَّ الآخرين إلى جنونه.
– كنت في جنونك أفضل منك الآن ألف مرة.
فقلت بتصميم: إني آسف، ولست في حاجة إلى أن أؤكد لك حبي.
فهزَّني اليأس، وكنت مُصرًّا بقدر ما كنت يائسًا.

١٥

ما فعلته بنفسي لا يُصدَّق. استيقظت عقب ليلة مُسهَّدة لأرى حقيقةً بشعةً ترصدني لتقول لي بصوتٍ فظ: «اختفت رجاء من حياتك.» ترامت إليَّ أصوات الطريق كأنما هي نعي للوجود، نعي لأي معنًى. لمَ أحيا؟! كيف أُعاشر هزيمتي إلى الأبد؟! بودِّي أن أبصق على كل فكرة خطرت وكل فعل نُفِّذ.

قال أبي لي بأسًى: إني حزين يا علي، وددت لو كان بوسعي مساعدتك.

واغتمَّت أمي حتى دمعت عيناها.

الحزن يتغلغل في أعماقي كلها، ولكني لم أجد بدًّا من حمل حياتي والمضي بها. واستسلمت لرد فِعل غضبي فقابلت وكيل الإدارة وسألته أن أُنقَل إلى إدارةٍ أخرى مُقدِّمًا أسباب ذلك. ونُقلت إلى إدارة المستخدمين عاطلًا كما كنت، وصارعت أشواقي والأيام تمرُّ مُثقَلةً بأنفاس الصيف. رجوت أن يتلاشى الحب مع الزمن، رجوت أن تُحرَّر هي من كافة القيود لتستردَّ رونقها البهيج. في تلك الأيام تابعت بإعجابٍ مغامرات الإرهابيين في الصحف. إنهم ينفجرون في أركان البلد مُعلِنين عن نبض جنين ينمو في رحم الغيب. انبعثت من قلبي المحطم أخيلةٌ مُطلَقة مرقت في الفضاء وغاصت في أعماق المحيطات، وجعلت أتآمر مع خلايا الأحياء وذرَّات الجمادات، ولم يخمد الحب ولم يبرد الشوق، وتمادت الغريزة اشتعالًا.

وقادتني قدماي إلى مقهى الحرية فلمحت الأستاذ عاطف هلال في مجلسه. أقبلت نحوه بتلقائية وتوتُّر مشحونًا بالاحتقار. حيَّيته قائلًا: لعلك تذكُرني.

فرمقني بنظرةٍ طويلة وشتَّ بعجزه عن تذكُّري، فقلت: أنا صاحب المشكلة الجنسية.

فالتمعت عيناه وقال ضاحكًا: آه … لا مؤاخذة … السن والشواغل … اجلس.

جلست فراح يقول مُتسائلًا: لعلك وجدت الحل؟

فدفعني العبث لأن أقول: الحل الكامل.

ثم مُستسلمًا أكثر للعبث: سأنضمُّ قريبًا إلى أصحاب الملايين.

فارتفع حاجباه الأشيبان الهائشان وتساءل: حقًّا؟

فقلت بثقة لا حد لها: بكل تأكيد.

– كيف؟

– الأسرار لا تُباح.

فهزَّ رأسه هزة الخبرة وقال: إنها مُسجَّلة في جدول محفوظ.

فابتسمت فيها يُشبِه الطمأنينة فسألني: أأنت سعيد؟

– طبعًا.

– لأنك ما زلت في أول الطريق.

– هذا حق.

– أما سمعت عن الذين يربحون الدنيا ويخسرون أنفُسهم؟

فقلت كاتمًا سخريتي: كيف لا وأنا أحدهم؟!

فقال بنبرةٍ مأساوية: خسارة النفس لا تُعوَّض.

فقلت مُنفعلًا: كذب.

استاء ولا شك من لهجتي فصمت مُقطبًا، فقلت بسخرية: تحرَّر من الأكلشيهات لتعرف الدنيا على حقيقتها.

فقال مُتضايقًا: إني أعرفها خيرًا منك.

فاندفعت أقول مُحتدًّا: ماذا كنت؟ ... وماذا أصبحت؟ ... وثبت في الوقت المناسب من السفينة وهي تغرق.

تساءل في انزعاج: ما هذا؟

فقلت مُستزيدًا في التمادي: أنت أيضًا من الذين ربحوا الدنيا وخسروا أنفُسهم.

فهتف غاضبًا: لقد جئت بقصد إهانتي، ولن أسمح لك بالبقاء بعد ذلك.

قمت. غادرته دون سلام، وتحت الشمس المحرقة في الخارج شعرت بانشراح فضحكت. ماذا قلت؟ كيف تأتَّى لي قوله؟ الحوار من جانبي مُرتجَل من ألفه إلى يائه. المقابلة تمَّت بغير خطة سابقة. انتشيت بمرحٍ عارض وأنا أمضي فوق قاعدة راسخة من الألم. وفي صباح اليوم التالي بدأت بعاموده اليومي في الصحيفة فوجدته يتحدث عن الطوفان الجديد، وأنه لن ينجوَ من الغرق إلا من يلوذ بسفينة المبادئ. الحق أنه ليس أسوأ من غيره، ومقالته تُفهَم على وجهها الصحيح إذا اعتُبرت نوعًا من النقد الذاتي الخفي، وإعرابًا عن الاغتراب الذي تطوَّعوا لاعتناقه.

وفي مرحلةٍ مُتأخرة من رحلة الآلام — وأنا أتسكَّع على غير هدًى — اقتحمني إلهامٌ مُنعِش، مجهول الأسباب مقطوع الصلة بالواقع، على مقربة من الأمريكين تألَّق الإلهام وتوهَّج، دفعني إلى دخول المكان بقوةٍ واعدة بالمعجزة.

١٦

رأيت رجاء في مجلسنا كأنها تنتظر. تسمَّرتُ أمامها. تلاطمتني أمواج انفعالات مُتضاربة. مضيت أخرج من ليلي الحالك إلى نهارٍ مُشرِق. انهمرت فوقي أعذب ألحان الوجود ونشواته مؤيدة بقوة تستطيع أن تفعل ما تشاء. ارتميت إلى جانبها صامتًا. تنفَّست بعمق لأستردَّ شيئًا من الهدوء. تساءلت بصوتٍ هامس: ماذا جاء بك؟

فسألتها بدوري: ماذا جاء بكِ؟

فقالت بعتاب: إنك ماهر في الاختفاء فلم أرَ بدًّا من الجري وراءك.

تذكَّرت آلامي بندم وأسف فواصلت حديثها: كأنك كنت تهرب من هذا المكان أيضًا.

– هل تردَّدتِ عليه قبل هذه المرة؟

فحنَت رأسها بالإيجاب، فقلت: آسف جدًّا.

– ما فائدة الأسف؟

– سعادتك هي ما كانت تهمُّني.

– وفَّرت لي من الشقاء ما يُشفق منه العدو.

– أما آلامي فلن أحدِّثك عنها.

فقالت بحرارة: أرجو ألا تتصرف بغباء بعد الآن.

فقلت بقوة وإيمان: لن نفترق أبدًا.

فابتسمت بعذوبة، فقلت: لن نتراجع حيال عقبة.

– لم أكفَّ عن التفكير لحظةً واحدة.

فهتفت: هذا هو الخطأ.

– ماذا؟

– التفكير في مثل حالنا هو خصمنا.

فابتسمت قائلةً: لقد جرَّبنا الارتجال.

– ونجحنا، ولم نفشل إلا بالإذعان للتفكير.

فقالت بقلق: أخشى أن نجعل من أنفُسنا أضحوكة للدنيا.

فقلت بتصميم وهدوء: لنتزوَّج في الحال.

فرمقتني بذهول فكرَّرت: في الحال.

– أتعني ما تقول؟

– بكل جدية، ودون الرجوع إلى أحد.

فتساءلت بِحيرة: ثم ماذا؟

– أجِّلي هذا السؤال إلى ما بعد الزواج، وسوف يتبدَّى لنا في صورةٍ جديدة تمامًا.

– ربما وجدت في الزواج ما وجدت في الخطبة من قبل؟

– إني أعرف الآن معنى الفراق كما أعرف قيمة الجنون.

فتفكَّرت في قلقٍ واضح ثم تمتمت: الناس ... الناس ... التعليقات ... أف.

فقلت مُترفقًا بها: لنبدأ في سريةٍ مؤقتة ... أيُريحك هذا؟

فتساءلت في حيرة: لمَ تكره التفكير؟

فقلت بسخرية: أي تفكير؟ ... ما هو إلا ترديد لأصداءِ ماضٍ علينا أن نُحطِّمه.

١٧

سِرنا معًا مُتلاصقَين بعد أن تقرَّر مصيرنا بأجرأ خطوة أقدمنا عليها في حياتنا. كنا نشعر بدفء داخلي رغم برودة الخريف المُودِّع، كما شعرنا بطمأنينة ونحن نخوض دنيا لم تعترف بعدُ بنا. بيدِ كلٍّ منا وثيقةٌ ملكية تشمل الروح والجسد، وبقلبي شعلة استأثرت بجوارحي فتناسيت الأمور المُعلَّقة. سألتني في مرح: كيف تشعر؟

فقلت دون تردُّد: بأنني انتزعت المسئولية من أيدي المُغتصِبين.

– أظن أن التفكير الآن لا يُعتبر جريمة.

– يوجد الآن ما هو أهم.

التفتت نحوي مُتسائلةً: ما هو؟

– أن نجد مكانًا نرتاح فيه ولو ساعة من زمان.

فقالت وهي تُداري ابتسامة: المسألة أكبر من ذلك.

– أجل، ولكني أسير هذه اللحظة، الأخيلة المرحة تُطاردني.

فقالت بعتاب: إني أسيرة أفكاري أيضًا.

ربَّتُّ على يدها وقلت بعجَلة: لا مستحيل بعد اليوم، ممكن أن تُقنعي نفسك بالتعليم وأقنع نفسي بالقانون ثم نُهاجر.

– طالما كرهت ذلك!

– أنا مثلك، فلنعمل ما نكره لنعيش ما نحب ... لكن يلزمنا مكان.

– مكان ... مكان ... أنت تُضحكني.

فقلت وأنا أتصفَّح وجوه العمارات: فندق ... بنسيون.

فهتفت: ماذا؟ ... لا حقيبة معنا.

فقلت بجدية محمومة: معنا تحقيق الشخصية والوثيقة الشرعية.

– سلوك غريب.

– لا تتعلقي بالأوهام الفارغة، سترجعين إلى بيتك في الوقت المناسب.

فقالت وهي تُداري ابتسامة: إنك تفكر مثل مراهق!

فقلت مُدافعًا عن نفسي ومُتذكرًا في الوقت نفسه لتاريخي الأليم: ولكني أتصرَّف كرجل.

١٨

لقاءات نهارية، قصيرة العمر، مُتباعدة على قدر ما تسمح به الميزانية. لأول مرة أشعر بأنني أنضج كإنسان وكعاشق. لم تُشاركني رجاء أفراحي بنفس القوة. حثَّني ذلك على مواجهة الحقائق. قلت لها: الهجرة هي طريقنا الواضح.

فقالت بعصبية: لا أدري كيف سأتحمَّل العمل الجديد.

فقلت رغم مشاركتي إياها في موقفها: هو خير من البطالة، ثم إنه سيُهيِّئ لنا عش الزوجية.

– العمل بلا حب نوع من السُّخرة.

فقلت برجاء: ثم يجيء الحب مع النجاح وهناء القلب.

فتساءلت بقلق: ثم من أدرانا أن ذلك الهدف الثقيل ميسور في النهاية؟

فقلت بقوة أُغطِّي بها قلقي: أعتقد أنه غير مُستحيل، ثم إنه توجد تَجارِب أخرى.

أدركت عند ذلك أني أسير بها نحو الفندق، فشدَّتني إلى شارع ماسبيرو وهي تقول: كرهت التردد على الفندق.

فرمقتها بعتاب، فقالت كالمُعتذرة: الجميع يُدركون لماذا نجيء، ما أفظع نظرات المُوظَّفين والخدم!

– ألا تستطيعين أن تُقلِّديني في عدم المُبالاة بالآخرين؟

– فعلت الكثير ولكنني أعجز عن مُجاراتك.

انزعجت حقًّا، وقلت وكأنما أُحادث نفسي: لا أُطيق العودة إلى العذاب.

– وحتَّامَ تُسدل على شرعيتنا ستار السِّرية؟!

– ما اخترتها إلا تشجيعًا لك، وإني مستعدٌّ لإعلانها اليوم قبل الغد، أعلنيها وقتما تشائين ودون الرجوع إليَّ.

وخشيت ألا تمضيَ الأمور بالعذوبة التي مضت بها.

١٩

دُعيت إلى مقابلة مُدير عام العلاقات العامة؛ أول دعوة من نوعها منذ التحقت بالخدمة. ولماذا يدعوني وأنا رجلٌ عاطل؟ طالَعني بوجهٍ مُتجهِّم أثار أعصابي، وبخاصة وأنه من الجيل الذي أُناصبه العداء.

– حضرتك علي عبد الستار؟

– نعم.

– ما عملك؟

– لا عمل لي.

– ألا يكفي أن تستبقيك الشركة رغم أنك زائد عن الحاجة حتى تُكافئها بارتكاب الجرائم في رابعة النهار؟

فقلت بغضب وذهول معًا: إني مُعيَّن بحكم قانون عام فلا فضل لأحد عليَّ، ثم إنني لست مُجرِمًا؛ فلعلك أخطأت الشخص المطلوب.

فتساءل بهدوء الظافر بفريسته: من إذَن الذي يصحب الزميلة رجاء محمد إلى فندق «العش الجميل»؟

انشقَّ قلبي تحت ضربة ذهول داهم، فتساءل ساخرًا: أرأيت؟

تمالكت نفسي بسرعة وقلت بتحدٍّ: سيادتك مُخطئ، ومُبلِغك مُخطئ أيضًا، رجاء زوجتي الشرعية.

– ماذا؟

– إليك الدليل.

قرأ الرجل الوثيقة بدهشة ثم تفحَّصني باهتمام وقد لانت ملامحه وتمتم: مُدهش، ألم يعلم زملاؤك بذلك؟

– كلا، ثَمة ظروفٌ جعلتنا نفرض سِريةً مؤقتة على علاقتنا؟

– ولماذا تتردَّدان على الفندق بتلك الحال المُريبة؟

– المسألة بكل بساطة أننا لا نجد مكانًا.

دارى الرجل ابتسامةً خفيفة وقال: أنا مضطرٌّ إلى إعلان زواجكما كتفسيرٍ ضروري لعدم إحالتكما إلى إدارة التحقيقات.

فسألته بسخريةٍ خفية: هل يمكن أن تدلَّني مشكورًا على شقة؟

فأجابني ببرود: لست سمسارًا يا حضرة.

٢٠

أُعلنَ الزواج، لا مَفر. في بيتنا أحدثَ دهشة ولا شيء سِواها. هتفت أمي: غير معقول أن تفعل ذلك من وراء ظهورنا.

أغرقت مها ونهى في الضحك، أما أبي فقال: أنتم جيلٌ مجنون، قدِّم لي سببًا واحدًا يُبرر تصرُّفك المُضحِك.

فقلت مُعتذرًا: كانت السرية إكرامًا لها.

– أنت أحمق، وهي أيضًا حمقاء، لولا ضيق شقتنا لدعوتك للإقامة معنا.

– إني مُدرِك لذلك كله.

– فتساءل ساخرًا: ماذا يُغريكم بالزواج؟ ألا تتَّعظون بما حصل لنا؟

فقلت عابثًا: سعادة بيتنا هي التي أغرتني بما فعلت.

أما بيت زوجتي فقد اجتاحه حريق. استنتجت ذلك من كلمات رجاء المُوجَزة ومن امتعاضها الدائم. تخيَّلت الطعنة وأثرها الدامي في قلبَي الوالدَين. قالت لي: إني أعيش في بيت يرفضني تمامًا.

فدفعني قولها إلى الارتطام بمسئوليتي فقلت: تعالي إلى بيتنا مؤقتًا.

ولكنها لم تنبس، فقلت: سأجد الإعلان الذي أبحث عنه في الصحف، لا بد أن أعثر عليه ذات يوم.

فقالت بضيق: ومن ناحيتي فالتعليم أحبُّ إليَّ من هذه الدنيا.

فقلت بإصرار: لو اقتضى الأمر أن أتعلم حِرفة فسأتعلم حرفة …

وكان رفضها لفكرة الفندق قد أرجعني إلى حيرة العذاب. ورغم أن الأمل في الرسوِّ على بَر — بعد تقبُّلنا للهجرة — بات ممكنًا إلا أن عذابي لم يبرد. ومضيت بها ذات مساء لا يخلو من دفء إلى هضبة الهرم. لم يبقَ الهلال الوليد في السماء إلا قليلًا ثم انتشر ظلامٌ مُريح. عن يميننا ويسارنا مرقت الأشباح إلى الخلاء وذابت في الظلمة. طوَّقتها بذراعي بحنان وشوق ونحن نتعثَّر على مهل حتى توقَّفنا تمامًا. مِلت نحو أذنها لأهمس لها بخواطري المُضطرمة، ولكنها لكزتني بكوعها قائلةً في تحذير: انظر.

رأيت شبحًا قادمًا تبيَّنته شرطيًّا عندما وقف أمامنا. اضطربت واتجه وعيي نحو الوثيقة في جيبي. قال الشرطي: سلام عليكم.

فقلت وأنا أجهل ما وراء سلامه: وعليكم السلام.

وصمت فانتظرت الخطوة التالية، ولكنه لم ينبس ولم يتحرك، فقلت: نحن نشمُّ الهواء، أنا وزوجتي.

فقال بنبرةٍ واضحة: مُتزوج أو غير مُتزوج لا يهم.

فقلت بتحدٍّ: لسنا وحدنا، الخلاء مليء بأمثالنا.

فقال ضاحكًا: افعل مثلهم.

زايلني الارتباك ففطنت إلى مقصده. دسست بيدي في جيبي مُستخرجًا ورقة من ذات الخمسة والعشرين قرشًا ومددتها إليه. تناولها ثم قرأها على ضوء بطارية ثم ردَّها قائلًا: مقامك جنيه على الأقل.

ولما ذهب قلت ضاحكًا: أرخص من الفندق بما لا يُقاس.

فهتفت: يا للعار!

فضممتها إليَّ بحرارة وأنا أقول مُعتذرًا: إنها ظروفٌ استثنائية لعينة، ولسوف نضحك عليها في القريب.

وأطلَّت علينا القرون من فوق الهرم وهي تضرب كفًّا بكف.

سمارة الأمير

١

تبدو ضئيلة جدًّا، لا لضآلة في تكوينها، فهي بشهادة الجميع أنضج من سنها، ولكنها لا تكاد تُرى في الحجرات الواسعة والأبهاء المُترامية، أما في الحديقة الفوَّاحة الشامخة فتلوح مثل عصفورة حائرة في وثباتها المتتابعة فوق مَمشى الفُسيفساء. في أوقات الفراغ، العصاري المزخرفة بالظلال، تقف مُستندةً إلى ضلفة الباب الكبير ترنو بعين إلى أشجار البلخ المُظلَّة لشارع سبينالي، وتلحظ بعينٍ الأريكةَ يجلس عليها البوَّاب وسوَّاق السيارة علي جلال. يُعجبها منظر علي جلال ببدلته الرسمية، وقامته الطويلة مثل جذع النخلة، ولونه الغامق، ونظرته الحادَّة. إنه يلي في التأثير الباشا الذي لا يُضارعه شيء، وهي يُروِّعها كل شيء في السراي وما حولها، قلبها الغض يجود بالإعجاب لكل شيء، وهي تحب كل شيء، ولم تعد تذكر من الكوخ الذي آواها في طفولتها برشيد إلا طيفًا ذائبًا في ماضٍ مضى وانقضى. حتى والداها سرعان ما نسيتهما ولم يبقَ من صورتَيهما إلا النمط الشائع. جاء أبوها بها إلى سراي عصمت باشا خورشيد، وهي ابنة ثمانية منذ سبعة أعوام، وعقب عامَين جاءت أمها حاملةً نبأ وفاته، ثم أُبلغت بعد عامَين آخرين نبأ وفاة أمها، فلم يبقَ من الشجرة إلا أقارب مجهولون لا يحفلون بها ولا تذكرهم. وعند كل نبأ أسوَد كانت تجهش في البكاء وتُحاط بعطفٍ ما، ثم يُطيِّب الخادمات الثلاث اللاتي يُشاركنها حجرة البدروم خاطرها، ويُحذِّرنها من الاسترسال في الحزن. التصقت بالسرايا باعتبارها دنياها الوحيدة. إنها قلعةٌ شاهقة ذات أبراج الزينة وحديقة مُترامية، تتوسَّط شارع سبينالي بلوران بالإسكندرية، وربة الدار الهانم تأنس إليها لإشراق وجهها وطيبة قلبها فتخصُّها بالقرب وتختارها دون غيرها لتدليك قدمَيها وساقيها. تعطف عليها لطيبة قلبها وسذاجتها، ونقائها من المكر؛

فكانت الوحيدة في السراي التي يتهيَّأ لها فرصة الوجود أحيانًا في اجتماع الباشا بحرمه، وتسمع أحيانًا ما يدور بينهما من حديث، بل وما يتبادلان أحيانًا من نقار أو شجار. ويسألنها — الخادمات الثلاث — عما تسمع فتشعر بأهميتها وتمضي في حكي الحكايات. وكان الباشا وحرمه عجوزَين وحيدين؛ فكريمتهما مُتزوجة من قنصل يعمل في الخارج، وابنهما يعمل كذلك في سفارة، ولكن الرجل كان رائعًا وقورًا، يمضي في شيخوخته وأناقته كتمثال أو يجلس في روبه آية في الجاذبية. وكانت حرمه جميلةً رغم طعونها في السن، وكم أُعجبت شلبية بلون بشرتها الأبيض وزرقة عينَيها. ويقول الباشا لحرمه في غضبه: «أنت ظالمة ... أنت عمياء.» فتقول له: «ما أنت إلا ثور، ألا تقرأ ما يُكتب عنك؟!» عندما تثور عاصفة تنكمش في ذاتها، تود أن تختفي، تُنكِّس رأسها، وقد تدمع عيناها. ومرةً سألته الهانم بحدة: «لماذا أفلتت منك الوزارة هذه المرة؟» فيقول لها: «حتى السراي لا تخلو من عدو لي.» فتقول له: «بل أفعالك الشائنة هي عدوك الأول.» فيتساءل: «أفعالي الشائنة؟!» فتصرخ: «نعم ... ما زلت تحلم بمباذل الشباب يا عجوز ... متى منعت الأفعال الشائنة من الوزارة؟ إني أفكر في الإقامة مع ابني في الخارج.»

ولا يَحُول ذلك دون خروجهما في المساء نفسه لقضاء سهرة معًا كزوجَين سعيدين.

أَلِفت شلبية هذه الحياة الأنيقة، كادت تُخَص بخدمة الهانم، ولكنها كانت تخدم عن طِيب خاطر النسوة الثلاث اللاتي يُشاركنها في البدروم، تُنظف الحجرة، تغسل الملابس، تبتاع لهن الدخان وأوراق البفرة، وتتطوع بدافعٍ خاص للفِّ السجائر. وعن لسان الهانم أدركت أنها أنضج من سنها، وأنها «شيخة» لطيبتها وسذاجتها، أما في الطريق وعند البدَّال فمضت تُدرك أنها جميلة فتسعد بهذا الامتياز وتتعامل في تحفظ وبدلال مع المُعجَبين. وكانت أخلاقها فطرية لا تكاد تتجاوز الحياء. حدَّثتها أمها عن الجنة والنار، وحذَّرتها الخادمات من الهفوات اللاتي تقضي على مستقبل البنت. مستقبل البنت؟ إذَن فحياة السراي غير دائمة، ما هي إلا دار انتقال. المستقبل الحقيقي يقع في الخارج، ربما في كوخ كالذي جاءت منه، لكن ما كان يكفي هذا لتوفير تربية أخلاقية حقيقية. كانت طيبة، سمحة القلب والعاطفة، وهَّابة للإعجاب والحب، ذات قشرة رقيقة من الدين والخلق. أَلِفت الحياة الأنيقة، ومعاشرة علاقة زوجية حافلة بأسباب الهناء والصراع، كما أَلِفت جو الإسكندرية المُتقلب بإشراقه وعذوبته ونواته الضارية، وتجمعت أنفاس المراهقة في برعم قلبها فامتلأ برحيق الحياة الساخن.

٢

من عالم الرجال، العذب المُخيف الغامض، يُطلُّ وجه علي جلال مثل المنارة. ليست بدلته الكحلية هي المُثيرة وحدها، ولكن قامته أيضًا، وبصفةٍ خاصة نظرة عينَيه الوهَّاجة، في العواصف التي تسجد لها الأشجار الشامخة يقف مُستهترًا، مُقطِّبًا وباسمًا في آنٍ، ولا يتراجع إلى حجرة البوَّاب حتى ينهمر المطر ويُشرِق أديم الأرض السنجابي. له نظرةٌ يودعها أحيانًا النسمة الباردة المُضمَّخة بشذا البحر، مثل قرصة مُلاطفة لخدٍّ مُورَّد، حادَّة وناعمة، لغتها غامضة مُتحرِّشة، تُهيِّج الشعور بالأهمية، تُداعب السرور الخفي، تُغطي القلق بغلالة من إيحاءٍ وردي.

وذات أصيل كانت تُطارد ضفدعًا في جدولٍ محفوف بالشوك. كان الوقت خريفًا، والرذاذ يجيء قليلًا ويغيب قليلًا. شعرت بنداء يدعوها للنظر إلى الوراء. رأت علي جلال يقف تحت شجرة ليمون رانيًا إليها بنظرةٍ ثملة، بسمت بارتباك ووثبت فوق الجدول. في الجو سرٌّ خفي وكأن أوراق الأكاسيا تتهامس به. عكست عيناها السوداوان بهجة وحذرًا. ترنَّحت فوق حافة مغامرة مجهولة بلا مقاومة تُذكَر. دنا منها صامتًا مُربدَّ الوجه. تناوَل يدها ومضى بها إلى الجراج في نهاية ممشًى مُسفلَت. لم تُقاوِم ولكنها تساءلت: ماذا تريد؟

ضمَّها إلى صدره وغمرها بقبلاتٍ شرهة. وقفت مُستسلِمةً لا تُشارك ولا تُقاوم. تمنَّت ألا يجاوز ذلك الحد، ولكنه لم يجترح خطوة إلا كتمهيد لأخرى جديدة. وسألته: ألا تخاف النار؟

ثم تساءلت ووجهها يتقلص بالألم: ما هذا؟!

٣

الواقع دون الحلم، ولكن شخصه أهمُّ من فعله، باتا شريكَين في حدثٍ خطير، وكاتمَين لسرٍّ هام. استولى على قلبها وخيالها، أحبَّته أكثر مما تصوَّر، تصوَّرت العلاقة أقوى من صلب البوَّابة وأنقى من ماء المطر. هو فارس قلبها، وقلبها مَطيَّته الأمينة. ليست السراي بالمكان المأمون لهذه الأفعال، ولكن حتَّامَ يبقى السر سرًّا؟ ضايَقها أن يتجاهلها بحكم الحذر، طمحت إلى معاملةٍ أرقَّ وأطيب صراحة. وقال لها مرة: تجنَّبي النظر نحوي، أنت مجنونة؟

فسألته بحنق: لماذا تخاف؟

– أنت مجنونة؟

– أنت المجنون، أنسيت فعلك؟

– من الخير أن تتركي السراي …

– حقًّا؟ … إلى أين؟

– أنت مستعدة؟

– نعم.

فتفكَّر قليلًا ثم قال: انتظري مساءً عند نافورة الميدان واحذري أن ينتبه إليك أحد.

٤

انتهى عهد السراي كما انتهى عهد الكوخ من قبل. في حجرة علي جلال الوحيدة بفراشها السفري وصوانها القديم المُقشَّر وحصيرتها المُتهرِّئة شعرت بأنها في بيتها. لأول مرة تشعر بأنها تنتمي إلى وطن، وأنها ست بيت مثل حرم عصمت باشا خورشيد، ومضت تعرف نفسها وتخبر الحياة والرجل والحب. وكان للعلاقة شهر عسل أيضًا، ولكنه في الواقع أقل من شهر. تجلَّى علي جلال عاشقًا نحو أسبوع ثم خرج من جلده رجلٌ جديد. اختفى المُجامل الباسم العطوف، وحلَّ محلَّه رجلٌ فظٌّ ضيِّق الصدر مُتوثِّب دائمًا للزجر والردع. عجبَت لتغيُّره، فزعت من معاملته، وكانت تزداد به تعلقًا وارتباطًا. إنها لا تُطالبه بشيء، تخدمه بولاء، تهبه ما تملك بلا مقابل. لم تكن تذوق اللحم إلا مرةً واحدة في الأسبوع بلا تذمُّر. آيست من فكرة الزواج فتجنَّبتها وقنعت بحالها. ورغم حزنها شعر بأنه ملكها وبأنه لا غنى له عنها. ومرةً سألته: لماذا تُعاملني بخشونة؟ … هل بدرَ مني ما يُسيئك؟

فقال: إنك تتوهَّمين ذلك لأنك دلوعة.

فقالت برجاء: أحسنْ معاملتي. ألا ترى أني يتيمةٌ وحيدة مقطوعة من شجرة ولا أحد لي في هذه الدنيا سِواك؟

فقال بسخرية: إني مثلك تمامًا، وكنت مثلك دائمًا، لم أعرف لي شجرة. وعلى حين نشأت أنت في سراي باشا نشأت أنا في إصلاحية، ورغم ذلك اعتبرت الشكوى خنوثة.

– ولكني أتألم.

– الحياة خشنة وتُطالبنا بالخشونة.

– ألا تزال تُحبُّني؟

– أظن هذا واضحًا.

فقالت بعذوبة وبراءة: إني لا أشكو إلا معاملتك.

– هكذا خُلقت. ماذا ينقصك؟!

أحقًّا لا يُدرك كم تتحمَّل من شظف العيش حرصًا عليه؟! وتنهَّدت قائلةً: ربنا موجود.

فسألها بحدة: ماذا تعرفين عنه؟

فقالت باستسلام: إنه موجود، ألا يكفي هذا؟!

ولكنها كانت تغوص في صميم الحياة، وتزدهر رغم حِرمانها من طيبات الحياة التي أَلِفتها في السراي، ويتألق جمالها وشبابها في الجلباب الشعبي، وتنعم بالحب.

٥

وكان يقول لها أحيانًا وهو يُدخِّن ويحلم: لا دوام لحال.

فترمقه بسؤالٍ حائر في عينَيها الجميلتين فيقول: ولما كنت في الحضيض فسيصير الحال إلى الأحسن.

– حقًّا؟! ... ولكني لا أصلح لشيء.

ويبتسم، ويبرم طرَفَي شاربه، ويصمت فتقول: بوسعي أن أخدم في أي بيت، ولكني سأنقطع عن بيتي.

فيضحك ويقول: هروبك أثار في السراي زوبعة.

فقطَّبت ولم تجد ما تقوله ... فيُواصل: ظنُّوا في بادئ الأمر أنك سرقت شيئًا ثمينًا، ولما وجدوا كل شيء في محله أدركوا الحقيقة.

– الحقيقة!

– قالوا إنها هربت مع رجلٍ غواها، أليست هذه هي الحقيقة؟

– ولكنهم لم يعرفوا الرجل؟

– طبعًا.

ثم يقول بثقة: لا دوام لحال.

٦

وذات مساء جاء معه برجلٍ قصير بدين قمحيِّ اللون صامت الملامح، جلس إلى جانب علي على الكنبة على حين وقفت هي مُستندة إلى السرير غائصة في ارتباكها. ولما طال الصمت والنظر قالت مُتهرِّبةً: أصنع لكما الشاي.

فقال الغريب بصوتٍ غليظ: شكرًا ... لا أريد شيئًا.

وقال علي جلال: إنها لائقة، وإلا فإنني لا أعرف شيئًا.

فابتسم الرجل ولم يُعلق وواصل النظر، فقال علي: إنها لائقة.

فسأله الرجل ببرود: ماذا تعني؟

– من ناحية الشكل؟

فتساءلت بحدة: عمَّ تتكلمان؟

فأشار لها علي إشارةً آمرة بالصمت على حين قال الرجل: وما أهمية الشكل؟

– إنه الأساس.

– أعندك فكرة عما تحتاجه من تعليم؟

– إنه اليسير إذا توفَّر الشكل.

– ما اسمها؟

فقال علي مُستقبلًا وثبة من الأمل: شلبية الأمير.

فابتسم الرجل مُتمتمًا: الأمير دفعة واحدة! ... ولكن أعوذ بالله من شلبية.

فهتف علي بتحدٍّ: إنك مُوافق ولا داعي للمناورة.

قام الرجل، حنى رأسه تحيةً لشلبية، ذهب وعلي في أثره يُودِّعه.

٧

رجع علي بعد دقائق مُمتلئًا حيوية واستبشارًا.

سألته: من الرجل؟

– مأمون الفرماني صاحب ملهى الفلير دامور بالشاطبي.

– لماذا جئت به؟ ... وما معنى حديثكما؟

– الصبر مِفتاح الفرج.

وقف ينظر إليها باهتمام ثم قال: غنِّي ... غنِّي أي أغنية.

فذُهلت ولاذت بالصمت، فعاد يتساءل: ألم تُغنِّي من قبل؟ ... في الحقل؟ ... في الحمام؟

– أبدًا لم يُشجعني صوتي قط.

– يا للأسف ... ولكن جسمك صالح للرقص.

فهتفت: الرقص!

– ليس عندك إلا الشكوى والصراخ، إني أعرض عليك خاتم سليمان.

– أنا أرقص؟!

– بعد تهذيب وتعليم ثم تتفتَّح لك أبواب الرزق.

– أمام الناس؟!

– طبعًا.

– إخص ... يا للعيب!

فابتسم برقةٍ مُصطنَعة وقال: إنه مهنةٌ شريفة، شرفك من شرفي، افهميني جيدًا، لست أنا الذي أدفع بك إلى السقوط.

– أنا مستعدة أعمل أي شيء آخر.

– ألا تريدين غذاءً أوفر وكساءً أجمل وحياةً أفضل؟ ... سنُغيِّر حياتنا بالعمل والشرف ... جرِّبي ولا تخافي، سيربط الرقص بيننا برباطٍ متين، أما الحياة كما هي الآن فلن تُحسَّن أكثر من ذلك.

انقبض قلبها، رمقته بتوسل، اغرورقت عيناها.

٨

كان صباح داكن، تجيش سماؤه بسُحبٍ مُلبَّدة، والريح تزأر مُطلقةً الأمواج المُزبدة إلى أديم الكورنيش. جلست إلى جانبه في شيفروليه عصمت باشا خورشيد، واندفع بها نحو الشاطبي وهو يقول: من يدري؟ قد تمتلكين يومًا سيارة كهذه.

استقبلهما مأمون الفرماني في شقته فوق الملهى مباشرةً بعمارةٍ مُكوَّنة من عشرة أدوار مُطلَّة على البحر الثائر، تجاهل احمرار عينَيها من أثر البكاء وقال: أهلًا بالتلميذة ... ستضحكين غدًا.

وقدَّم لها الشاي والكعك ومضى يقول: انسي شلبية، اخترت لك اسم «سمارة»، سمارة الأمير، تركت لك الأمير فهو مُناسب جدًّا، هل نتوقَّع إزعاجًا من أهلك؟

فأجاب علي عنها قائلًا: كلا.

– عظيم، نحن في أوائل الشتاء، الشتاء فصلٌ ميت، ولكن يجب أن تُعدِّي كما يجب قبل الصيف، ممَّ تخافين؟

– إنها بنتٌ شريفة كما تعلم.

– ونحن أيضًا شرفاء، لن يضطرَّك أحد إلى شيءٍ تأبينه، ولا تُصدقي غير ذلك.

ثم بعد فترة صمت وتأمُّل: ولكن التعليم لا مزاح فيه، ستتعهَّدك امرأةٌ خبيرة، ولكن كل شيء يتوقف على إرادتك.

٩

وسرعان ما بدأ التدريب، ووفَّر لها الرجل أيضًا كساءً مُناسبًا وغذاءً صحيًّا. وكان التدريب يشمل آداب المائدة واللبس والزينة، وكلما وجد مأمون الفرماني إهمالًا أو تكاسلًا استعان بعلي جلال حتى اضطُرَّ الرجل مرة إلى توجيه لطمة إليها. يومها رجعا إلى حجرتهما وهي صامتةٌ غارقة في حزنٍ أبدي، وغيَّر هناك من لهجته المألوفة فقال لها بنبرة المُعتذِر: ما من رجل إلا وضرب محبوبته عند الضرورة.

أصرَّت على الصمت والعبوس، فداعَب بإبهامه خدَّها وقال: العمل عمل، لا مزاح فيه، وهو لمصلحتك.

فقالت بحنق: بل لمصلحتك أنت.

– لمصلحتنا المشتركة إذا شئت، ما نحن إلا شخصٌ واحد.

فصاحت به: لقد سلَّمتني إلى رجلٍ غريب.

– إنه رجل أعمال، وليس له في النسوان.

– لو كنت تحبُّني حقًّا ما فعلت ذلك.

– ما فعلت ذلك إلا لأني أحبك.

فقالت بتحدٍّ: أنت! لم أسمع منك كلمة حب واحدة.

– ولكني أفعل ذلك.

– أريد حياةً معقولة، هل في ذلك من بأس؟!

وساد صمتٌ ثقيل حتى قطعه قائلًا: كنت ذات يوم تلميذًا، انقطعت عن التعليم بسبب الفقر واليتم، تُركت شِبهَ أميٍّ وانطحنت في الإصلاحية ... ها أنا أهيئ لك سبيلًا أجمل. ماذا في ذلك من عيب؟! ... انظري إلى الراقصات وحظهن في الحياة.

لقد احتملت الحياة حرصًا عليه، ولأنها شعرت في أعماقها الحية المُلهمة أنه يُحبُّها.

١٠

الفلير دامور ملهًى صغير وأنيق، لا تُفتَح نوافذه الأمامية شتاءً، تسفعه العواصف وهو صامد بجدرانه الأرجوانية، مُربَّع الشكل، مسرحه صغير يعلو على الأرض بمتر واحد، في

جوانبه مقاصير من خشب الزان، وصفوفه موائد، يُغالب نعاسه طيلة الشتاء والخريف، قلة تختلف إليه كحانةٍ نظيفة تمتاز بمزَّتها الغنية، وفرقة موسيقية تعزف ألحانًا شرقية وغربية، ومغني درجة ثالثة يترنم بأغانٍ كلاسيكية، به أيضًا مُهرِّج يُقدِّم نمرًا فردية هزلية وساحر، وبطانة المطرب مُكوَّنة من فتياتٍ أربع يُدعون أحيانًا لمشاربة الزبائن ملتزمات بأدب يُناسب رُوَّاده الممتازين من المصريين والأجانب.

دُفعت سمارة للرقص فوق مسرحه في أول الربيع، كانت فرصةً فريدة للممارسة والتدريب العملي أمام رُوَّاد معدودين غير مُبالين. كانت كمن يُلقي بنفسه في الماء وهو جاهز لفن السباحة، رقصت على أي حال ونالت تصفيقًا من أيدٍ محدودة، عطفًا من ناحية وانجذابًا إلى جمالها من ناحيةٍ أخرى. الرقص يُقدَّم لأول مرة في الفلير دامور، وسمارة وجهٌ ممتاز وجسدٌ ممتاز أيضًا.

في الحجرة الخلفية وجدت مأمون الفرماني وعلي جلال في انتظارها. قال الفرماني: التصفيق للمرأة لا للراقصة.

فقال علي جلال: في المرة القادمة سيكون للراقصة والمرأة معًا.

فقالت بحرارة: إذا كنت لا أصلح فلأنصرف بسلام.

فتساءل الفرماني ببرود: عندك فكرة عما كلَّفني تدريبك وكساؤك وتغذيتك؟

فعبست وصمتت. وكان المتفَق عليه أن تعمل حتى نهاية الصيف بلا مُقابل نظير التكاليف، على أن تُكافأ في الصيف بعد ذلك بجنيه في الليلة، وثلاثين قرشًا بقية العام. وتساءل علي جلال بمكر: ألا تُعطي شيئًا على الحساب؟

فقال الرجل بحزم: لم أعتَدْ أن أغيِّر حرفًا في اتفاق.

ثم مُستدركًا: لا تنسَ تحيات الزبائن.

١١

سألت علي جلال وهما عائدان مشيًا على الأقدام إلى الإبراهيمية: ماذا يعني بتحيات الزبائن؟

– سيدعوكِ بعض الأكابر حتمًا للمجالسة والمشاربة، في تلك الحال يُحسَب الكأس بضعف ثمنه وتأخذين نسبةً محترمة.

فهالها الأمر وقالت بحدة: ليس هذا ما تم الاتفاق عليه بيننا.

– لا خوف من ذلك، وهو رزقٌ شريف.

– لكنني لا أشرب.

– يملأ كأسك عادة بالشاي، هذا تقليدٌ مُعترَف به.

فقالت بأسًى محدثةً نفسها: أُجالس رجالًا؟!

– قد يدعوك بعضهم للذهاب معه ولك أن ترفضي.

– يا له من موقف!

– بسيط، لا تُعقِّدي الأمور.

– ربما تدخَّل مأمون الفرماني؟!

– إنه يعرف سلفًا أني أدقُّ عنقه لو فعل.

شدَّت على ذراعه بامتنان وهما يخوضان النسائم العذبة تحت بصيص النجوم، فقال: لا أريد لك الابتذال الرخيص.

١٢

اعتادت الرقص ومضت خطوات في طريق إتقانه، اعتادت كذلك المجالسة والمشاربة والاعتذار عند اللزوم. اكتسبت مكانةً سامية بفضل أنوثتها، وانقضى الربيع والصيف وهي تتألق كنجمة في الملهى الصغير. لم تأنس إلى أحد كما أنست إلى سعداوي بيَّاع الفستق؛ فهو فلَّاح مثلها صبوح الوجه، يرمقها باحترام وعطف، يرمقها بأكثر من ذلك، حتى قالت لنفسها إنها لو كانت حرة بلا رجل لما تردَّد في طلب يدها. وقد مالت إليه ميلًا صافيًا؛ لأنها كانت سليبة القلب، مُكبَّلة بحب علي جلال.

وذات ليلة، عقب انتهاء الموسم وحلول الخريف جاءها سعداوي وقال لها: المقصورة رقم واحد.

مضت إلى المقصورة فوجدت في استقبالها شابًّا أنيقًا وجيهًا ذا جاذبية واضحة، صافحته بَسِمة كالعادة، فقال بصوتٍ أضخم كثيرًا من عوده النحيل: أهلًا ... مروان أمين المُعجَب بفنِّك وجمالك.

فتمتمت وهي تجلس قبالته تحت أغصان الياسمين المُعشَّق في أعواد الزان: تشرَّفنا.

وجاء الجرسون كظلها، فقال مروان أمين بنبرةٍ مُترفعة: اثنين ويسكي.

عيناه نجلاوان، وسيم القسمات، مبروم الشارب، عذب الابتسامة. تأمَّلها بإعجاب وقال: يُخيَّل إليَّ أنك وُلدت لتكوني راقصة، ومجيئك إلى الفلير دامور أضفى عليه حيوية لم ينعم بها من قبل.

– أشكرك جدًّا.

وشرب نخبها ثم قال: اطلبي ما تشائين، لا تتقيَّدي بي؛ فإني لا أشرب عادةً أكثر من كأسَين.

فحنَت رأسها مُمتنَّةً وسألته: حضرتك من الإسكندرية؟

– نعم، أنا وأجدادي، إنها مدينةٌ عالمية كما ترين.

– نِصف زبائننا من الخواجات.

لزم أدبه طيلة الوقت، لم تبدر منه كلمةٌ نابية، ولا ملاحظة ماكرة، ولا حركة مستهجنة. واتَّسم بوقار لا يُناسب سنه حتى تساءلت في نفسها عما جاء به، وجعل يحثُّها على الشرب حتى شربت ست كاسات من الشاي المُثلَّج.

وعند منتصف الليل نهض وهو يقول: ليلة سعيدة، أرجو أن تتكرر كثيرًا.

١٣

رجعت تلك الليلة بصحبة علي جلال وفي جيبها مائة وخمسون قرشًا، ولما دسَّتها في يده تهلَّل وجهه الندي بنسائم الخريف المُشعشعة بأضواء النجوم، وقال: الحظ يبتسم، ما رأيك في مروان أمين؟

فقالت بحماسٍ بريء: مُهذَّب للغاية، فوق ما تتصور.

– الفلير دامور مكانٌ محترم!

– هل سمعت عنه ... مروان أمين؟

– يقول عنه مأمون الفرماني إنه صاحب جريدة «الصوت»، أذكر أنه جالَس مرةً عصمت باشا خورشيد في بدرو.

ولكنه أقلقها بحماسه الزائد وهو يتساءل: متى يُتاح لنا أن نؤجر شقةً صغيرة وجميلة؟!

١٤

واظَب مروان أمين على الذهاب إلى الفلير دامور مساء كل أحد، وجعل يطلبها إلى مجلسه في كل زيارة. نشأت بينهما مودةٌ حميمة وأَلِفته بأريحية وعذوبة. ومرةً قال لها: جمالك فريد، وهو مصريٌّ صميم.

فقالت ضاحكة: ولكنك لست مصريًّا صميمًا.

فرفع حاجبَيه الكثيفين وهتف: كيف؟!

– عيناك.

– هذه الزرقة؟ ... أوه ... كانت جدتي جركسية، ولكنني مصري مائة في المائة ... المصري من يحب مصر.

– ولكن مستر فاولز يؤكد حبه لمصر.

فضحك ضحكةً عالية وقال: رجل البورصة الإنجليزي؟! ... ذاك حبٌّ مُغرِض، الحب أنواع كما ترين.

فتساءلت باهتمام: حبٌّ مُغرِض؟

– كما نحب البقرة لنستغلها.

فوجمت، وكان وجهها مرآةً صافية صادقة، فسألها: ما لك؟

– لا شيء.

– لا يجوز أن تتكدَّري هذه الليلة بالذات.

– لماذا هذه الليلة بالذات؟

– نويت أن أدعوك للعشاء في بيتي.

وبلا تردُّد أعادت الأسطوانة المعتادة أمام هذا النوع من الدعوات: معذرةً ... أنا لا أفعل ذلك.

فدهش، صمت قليلًا، ثم قال مُرتبكًا لأول مرة: إنه لأمرٌ مؤسف لي جدًّا، ولكنك رائعة.

وجاء مأمون الفرماني عند انتهاء السهرة ليُودِّعه، فقال الشاب: كل شيء طيب ولكن ...

وضحك ضحكةً عالية يُداري بها ارتباكه، ثم واصَل: ولكن من المؤسف أن سمارة الحلوة لا تُلبِّي طلبات المنازل.

١٥

سار علي جلال طوال الطريق صامتًا فتوقَّعت شرًّا.

وفي الحجرة نفخ وهو يخلع بدلته وقال: غير معقول أن ترفضي النعمة.

فهتفت بحدة: نعمة؟!

– طبعًا.

– إنه الابتذال الرخيص كما سمَّيته.

– بل هو ثمين وغالٍ.

– أنت تدفعني إلى ذلك يا علي؟

– لصالحك، لصالحنا.

– أأنت تحبُّني حقًّا؟

– طبعًا.

– إنه حبٌّ مُغرِض.

فدهش علي وقال: يا لها من كلمة!

– كما نحب البقرة لنستغلها.

فما تمالك أن ضحك، ثم قال: حديث السكارى! عليك أن تفهمي الحياة خيرًا من ذلك، الحب في القلب، لا أهمية للجسد، الأغنياء يرون في الحب أنواعًا، أما الفقراء فلا وقت لديهم لذلك، إنهم يُحاربون العناء بكل وسيلة.

فقالت وعيناها تغرورقان: إني أرفض.

فقال بإصرار: كلا يا سمارة. شلبية ترفض نعم، وتحفظ قلبها لي، أما سمارة فتخوض إلى جانبي معركةً واحدة.

١٦

انسابت بها الفورد في الطريق المحفوف بالمزارع، في السماء غيمٌ كثير، والريح تنقضُّ بعنف، ولكن الطقس مُعتدلٌ لطيف. دخلا بيتًا خلويًّا صغيرًا في «أبو قير». بدا مروان أمين طيلة الوقت نشيطًا سعيدًا. مضى بها إلى فراندا وهو يقول: لو كانت ليلةً مُقمِرة لسبحنا معًا.

– الحمد لله على أنها غير مُقمِرة.

– تخافين البحر؟ … ألست إسكندرية؟

– كلا، من رشيد.

– بلدة ذات تاريخ مجيد، إني سعيد بوجودك.

– وأنا سعيدة.

فرمقها بشيء من الريبة ثم تساءل: لكن الظاهر أنني لم أحظَ بإعجابك؟

– أبدًا، المسألة أنني أفعل ذلك لأول مرة.

فقال بصدق: إني أصدقك، البراءة لا تكذب، ولكن هل ساءك ذلك؟

فقالت وهي تغضُّ بصرها: إني سعيدة.

١٧

في رحاب مروان أمين ظفرت بحنان واحترام ومعاملة رفيعة ونقود وفيرة. إنه أفضل من علي جلال بما لا يُقاس، فلماذا يتعلق قلبها بعلي وحده؟ لا سبب معقولًا واحدًا يدعوها إلى حبه، ولكنها أسيرةُ هواه، وفي سبيله تُضحِّي بكل غالٍ، وهو أيضًا يحبها ما في ذلك من شك، على طريقته أي نعم، ويُشاركها الوحدة والعناء. ولن تنسى قوله ساعة رجوعها من عند مروان أمين أول مرة «أنا لا أستغلك ولكنَّ كلينا يُسلم للاستغلال». وهو أيضًا الوحيد الذي يُناديها باسمها «شلبية»، فتشعر بين يدَيه بأنها هي هي وليست شخصًا آخر. أما مروان فقد احتلَّ من نفسها مكانةً سامية واحترامًا ومودة، وهو بلا شك يعشق جمالها ويهيم بمفاتنها، ويُغدق عليها بسخاء، ويحترمها بطريقة جعلتها تشعر بإنسانيتها لأول مرة. وقال لها مرة: إنك طيبةٌ أكثر من اللازم يا سمارة.

فقالت ببساطة: الله مع الطيبين.

فجفل قليلًا وتمتم: الدنيا مُتوحِّشة، وقد خُلقنا لنُقاتل.

فقالت بدهشة: كيف أقاتل وأنا امرأة ولا أهل لي؟

فتهجَّم وجهه وفتر حماسه، ثم سألها: ماذا جاء بك إلى الفلير دامور؟

فأعادت أسطوانةً حفظتها عن ظهر قلب: سِرتُ من يتم إلى زواجٍ فاشل إلى طلاق، ثم دعاني الفرماني.

فقال لها وهو يتنهَّد: ادَّخري كل مليم؛ فلا سبيل إلى النجاة في هذه الغابة إلا بالنقود. أما الإيمان فلا ينقصك.

١٨

وتوثَّب علي جلال للتجديد بلا توانٍ، اكترى شقةً صغيرة في كامب شيزار بعمارة جديدة، وتبدَّى في مظهر أنيق فلم يبقَ من ابتذاله القديم إلا نظرة عينَيه البرَّاقة المُتحدية. وقال لها: تركت خدمة الباشا.

فسألته باهتمام: ألم تتسرَّع؟

– كلا، إني أفكر في مشاركة الفرماني.

– دفعةً واحدة؟
– كل شيء يتوقف على اجتهادك.
فسألته بأسًى: وتستمر الحياة هكذا؟
– سنبدأ يومًا حياةً جديدة.
– متى؟
– عندما نطمئنُّ على مستقبلنا.
وابتسم إليها واستطرد: ثم نتزوَّج؟!
وثبَت مُتهللةً فتعلَّقت بعنقه وهتفت: آه ... متى يحدث ذلك؟!

١٩

منذ حديثها الأخير مع مروان أمين لم يُواصِل الشاب ممارسة غرامه معها. قنع بالمجالسة والمؤانسة، وتبادل الاحترام والعواطف الرقيقة، ولكنه لم يضنَّ عليها بجوده وهداياه. ورغم كل شيء لاحظت عليه تغيرًا غير يسير وفتورًا حتى قالت له: لست كسابق عهدك.

فقال وهو يبتسم: إني مريض.
– كفى الله الشر.
– أحتاج إلى جِراحة، سأُجريها في الخارج.
– يا لسوء الحظ!
– إنني لم أعرف الراحة في حياتي.
– ولكنك غني والحمد الله.
– ليست مشكلة المال.
– عملك شاق؟
– جدًّا.
– سأدعو لك دائمًا بالسلامة.
– دعاء مُبارَك من قلبٍ طاهر.

ثم أخرج من علبة سوارًا ذهبيًّا مُطعَّمًا بفصوصٍ ماسية، أهداه إليها قائلًا: هدية لك لمناسبة السفر.

فقالت بتأثر شديد: أنت شابٌّ نبيل، لو كان الناس مثلك ما عرف أحد الشقاء أبدًا.

٢٠

وقال لها علي جلال وهو يتفحَّص السوار باهتمام: لقد أنهى العلاقة بينكما بلباقة وبلا كسر خاطر.

فقالت مُعترضةً: لا تُسئ به الظن فإنه لا يكذب.

فقال علي بازدراء: الصدق مُحرِج ومُهلِك.

أما سمارة فقد حزنت لفراقه، وتمنَّت لو دام لها ليُجنِّبها على الأقل التورط في علاقةٍ جديدة مجهولة. أدركت أن علي — وقد جنى من العلاقة القديمة ما جنى — سيُلقي بها بلا رحمة بين يدَي ذراعَين واعدتين. ومضت تُكوِّن لها شخصيةً فنية مؤثرة وتتوكَّد شهرتها وسِحرها. وهلَّ الصيف برطوبته ورُوَّاده وضجيجه، وازدحم الفلير دامور بالزبائن الجدد، وتكرَّرت المجالسات كل ليلة، والاعتذارات عما عدا ذلك. وطبعًا كان علي يُوافِق على ذلك مُترفعًا عن العشاق «المفلسين» عشاق الليلة الواحدة! واقترح علي أن يدخل شريكًا في الملهى ولكن الفرماني رفض، وفي الوقت نفسه استرضاه فعيَّنه مديرًا للملهى بجنيه يومية في الصيف، ونصف جنيه في سائر العام. وفي أواخر الصيف الثري جاءت أنباء حزينة من وراء البحار تنعى الصحفيَّ الشاب مروان أمين. واهتزَّ قلب سمارة، وغشيها حزنٌ صادق، فتوارت في حجرتها وبكت طويلًا. وفي أوائل الخريف رجع مستر فاولز إلى الفلير دامور، وإذا به يدعو سمارة للعشاء في بيته. وكالعادة اعتذرت. وسعد بذلك سعداوي بيَّاع الفستق، وهمس في أذنها: إنهم أنجاس.

غير أن مأمون الفرماني احتدَّ بشدة وقال: كيف ترفضين إنجليزيًّا؟!

وسأله علي: أظنه مُقتصدًا كسائر تجار البورصة؟!

– إنه يُقدِّم هدايا أثمن من النقود.

فقال علي مُخاطبًا سمارة: إنه على أي حال عجوزٌ ولن يُضايقك.

٢١

مستر فاولز يقترب من الستين، رَبعةٌ ضخم الرأس والوجه، غليظ اليدَين، متين البنيان. يشرب كثيرًا ونادرًا ما يسكر، يعرف كلمات معدودات من العربية يستعين بها على توضيح إشاراته وقت السَّمر أو يمضي الوقت صامتًا. كانت تؤانسه ليالي كثيرة في الفلير دامور، ولكنه لا يدعوها إلى بيته إلا مرة أو مرتين في الشهر. وكان يُقيم في الدور الأول من بيتٍ أنيق

يقوم على هضبة فيكتوريا. أرمل وحيد، أولاده في أستراليا، يخدمه نوبيٌّ ومُساعِده، وقد ولع بسمارة، ولانقطاع التفاهم بينهما ظل حيالها رمزًا مجهولًا. وجدت معاملةً لطيفة وأهداها قُرطًا ثمينًا، ولكنها شعرت نحوه بشبه نفور وخوف، ولم تأنس من وجهه الضخم الحاد شعاعَ جاذبية واحدًا. أُعجبت فقط بعمق زرقة عينَيه، وتذكَّرت بلونهما مروان أمين وأيامه الحُلوة. في الصباح ترى البقعة خالية ومُترامية، رقعة منها صحراوية، ورقعة يتناثر فيها النخيل وتُغطِّيها الحشائش. ويقوم البيت الأنيق وحيدًا فوق الهضبة يُصعَد إليه بدرجات منحوتة في الصخر، وهو مُكوَّن من دورَين، يُقيم فاولز في الأرضي المغروس وسط حديقة، أما الثاني فلا يجيء منه صوت، ومرةً رأت في شُرفته عجوزًا مهيبًا فأسرعت في مشيتها كأنما تفر. البيت جميل تحت هامات السُّحب ولكن كأنه ملجأ للعجائز، أما النخيل الفارع المُثقَل بالبلح الأحمر فذكَّرها برشيد، فنسمت على قلبها ذكرى مُبهَمة مُبتلَّة بالدمع.

٢٢

وذات ليلة وجدت في مقصورة مستر فاولز آخَر يُجالسه، قدَّمه لها بنبرته الإنجليزية قائلًا: جاري مهدي باشا جلال.

آه، إنه العجوز الذي لمحته في الشرفة، حيَّاها بابتسامة جذَّابة. إنه طويل ضخم الهيكل رغم رقة لحمه، فِضي الشعر والشارب، مُشعُّ العينَين ذو أنف غليظ، وله وقارٌ نفَّاذ. من أول نظرة أنست إليه وشُغفت بأبوَّته الكامنة، يبدو أكبر من فاولز ولكنه مُمتلئ حيويةً وابتسامًا. شرب بكثرةٍ مثل فاولز وتتابعت ضحكاته، حادَث فاولز بلسانه، وحادَثها — طبعًا — بلسانها. صوته عذب أيضًا. قال لها: رقصك جميلٌ مثل وجهك.

وفي آخر السهرة تقدَّمها بسيَّارته حتى البيت الوحيد، ثم مضى إلى شقته العليا، فتمنَّت أن يجيء كل ليلة.

٢٣

قالت لعلي جلال وهي تُحدِّثه عن الباشا: لقبه جلال مثلك.

فقال باسمًا: إنه أكبر مُحامٍ في الإسكندرية، محترم بين أولاد العرب والخواجات، على علاقة وثيقة بعصمت باشا وخورشيد، كما كان صديقًا للمرحوم مروان أمين رغم فارق السن، غني لدرجة كبيرة، أرمل وبلا ذرية.

– إنه جار مستر فاولز، ويعيش وحيدًا مثله.

وصمتت قليلًا ثم قالت بدعابة: لقد وقعت في هواه.

فقال لها باهتمام: المهم أن يقع هو في هواك.

٢٤

في الليلة التالية مباشرةً شرَّف مهدي باشا جلال، ولم تكن من الليالي التي يسهر فيها فاولز. ودعا سمارة إلى مقصورته فجاءت مُمتنَّةً وسعيدة. رشف من كأسه، ولما رفعت كأسها أوقف يدها برقَّة وهو يقول مازحًا: الشاي مُنهِك للأعصاب.

فضحكت، وأدركت من توِّها أنه دائر وابن سوق، فقال: اطلبي ما تشائين، ولكن لا تشربي إلا القدر المناسب.

فقالت بصراحة وبراءة: إني سعيدة بالجلوس معك.

– مثلك وأكثر، ولكن ما رأيك في فاولز؟

– شخصٌ غريب.

– شيطان.

– حسبته صديقك.

– صديق عمل ليس إلا ... ماذا لو علم بأنك سعيدة بالجلوس معي؟

– لا أدري.

– على أي حال فأنت حرة، أليس كذلك؟

فقالت ضاحكة: لم يشترِني بعد.

– عظيم، ما جوابك لو دعوتك إلى بيتي؟

– إنه نفس البيت.

– لمَ لا؟

وبسرور، وقبل مشاورة علي هذه المرة، قالت بجرأة جديدة: إني أقبل.

٢٥

أحبَّت المسكن، وأدهشتها فخامته. قهقه الباشا وهو يقول مشيرًا إلى أسفل: لا يتصور الحيوان أنك هنا.

وشرب كعادته، ونشطت شهيَّتها فأكلت بلذة. ولما ثمل سألها: هل تُغنِّين؟

– كلا للأسف.

فوضع في الحاكي أسطوانة وهو يقول: إذَن نسمع «يوم الهناء».

وراح يُفرقع بأصابعه مُزيحًا وقاره جانبًا ويقول: كل ما يخفق القلب له عبادة.

– هل تُغنِّي أنت؟

– أحيانًا.

– إذَن فأسمعني صوتك.

– كلا ... أودُّ أن أعطيك خير ما عندي.

فضحكت وقالت: أنت رجل ظريف.

– أنت ساحرة يا سمارة.

فتساءلت وقلبها يمتلئ بحب بريء صافٍ: متى ماتت زوجتك؟

– إنك تتحرِّين عني. حسن، حسن. منذ عشرين عامًا.

– ولمَ لم تتزوَّج؟

– حزنًا عليها، وعلى نفسي لأن الله لم يكتب لي الإنجاب.

– كنت تودُّ أن يكون لك ولد؟

– إني أُسلِّم بمشيئة الله.

فبعد تردُّد قالت: تتحدث عن الله وأنت ...

فضحك عاليًا، وسلَّط عليها شعاع عينَيه مليًّا، ثم قال: أرجو أن تجيء هدايتي على يدَيك.

فوضعت راحتها على يده وقالت: أنا أغضبتك؟!

– مُحال يا سمارة، ألا ترَين أني أحبك؟!

٢٦

كان سخيًّا فوق الوصف، وأعلن حبه بطريقةٍ صارخة ودون مُبالاة، فكان يأخذها في سيارته إلى بدرو وأثنيوس وحديقة أنطونيادس. وإذا بمستر فاولز يقتحم عليهما الشقة ذات ليلة. أما هي فركبها الخوف، وأما مهدي باشا فقد ضحك وهتف به: هالُّو فاولز.

ولكن الآخر وقف مُتجهِّم الوجه غيورًا حانقًا. رطنا بما لا تفهمه ولكنها توقَّعت شرًّا. بدأ الحوار بدرجة مُنخفضة ومضى يعلو ويشتد. تصلَّبا مُتواجِهَين في تحدٍّ. عجوزان

يتطاحنان على امرأة. وإذا بفاولز يُوجِّه لطمةً إلى صدغ الباشا، وإذا بالباشا ينهال عليه باللطمات. وصرخت سمارة. وتراجع فاولز فثبت الباشا في موضعه. ذهب الرجل وجعل مهدي جلال يلهث، فأخذته سمارة من ذراعه إلى ديوان وأجهشت في البكاء.

٢٧

صارت له وحده في حياتها الأخرى. تمنَّت أن يبقى إلى جانبها حتى آخر العمر؛ ذلك الأب الذي جادت به عليها السماء. وسألها مرةً كما فعل مروان أمين من قبل: ماذا جاء بك إلى الفلير دامور؟

فقصَّت عليه القصة المحفوظة، فقال بحنان: لا داعي للخيال.

– ألا تُصدِّقني؟

– لعن الله من لقَّنك الكذب.

فغلبها الحياء وسكتت، فقال: عرفت حكاية سراي عصمت خورشيد، وعلي جلال.

ازدادت صمتًا وحياءً، فاستطرد: إنه يستغلك بدناءة.

– كلا ... إنه يُحبُّني.

– وأنت، أتُحبِّينه؟

فلاذت بالصمت، فقال: إنه لا يستحق حبك.

– الحب وحده لا يكفي.

– أنت مشكلة يا شلبية.

– إنك تعرف كل شيء.

– إني مُحامٍ عجوز.

– إني أحبك أيضًا.

– وكانت أمي اسمها شلبية.

– أنت فلَّاح؟

– طبعًا، ليس كل باشا بعصمت خورشيد.

– إني وحيدة.

– أنت؟! كلا، إنك أقوى مني، وأقوى من فاولز، أقوى من أي عاشق. العاشق ضعيف، أما المعشوق فقوي، ولكن ما جدوى الحب إذا لم أردَّ إليك كرامتك يا زينة النساء؟!

٢٨

وذات ليلة وهو ثملٌ لثم عنقها وتساءل: هل تُوافقين على الزواج مني؟

ذُهلت. سحرتها الكلمة المقدسة. طرب قلبها حتى السحر، ثم سرعان ما ورث الأسى كافة مشاعرها.

راقبها صامتًا ثم تساءل: علي جلال؟!

فلم تنبس، فرنا إليها واجمًا حتى تمتمت: إنك أجمل ما في حياتي.

– إني شيخٌ فانٍ وهو رجل شابٌّ، ولكن لا تُسلِّمي باستغلاله لك كأنه قضاء وقدر.

– إني أتمنَّى السعادة ولا يهمُّني المال.

– لا أدري كيف أكافئك على ما وهبتني من سعادة، والحق أنني ما أردت الزواج منك إلا لترثي تركتي التي لا وريث لها.

فقالت بإخلاص: حياتك عندي أغلى من التركة.

– فقال بأسًى: إني أحترم الحب وأقدِّس الإخلاص؛ فلا بأس عليك، ولعلي أجد طريقةً أخرى لمكافأتك يا شلبية.

٢٩

أسعد أيام حياتها. تمتَّعت بالاحترام والحب ما شاء لها التمتع، وضاعفت العلاقة — مقرونةً بما نشب حولها من عراك بين الباشا وفاولز — من شهرتها الفنية، وأضفت عليها احترامًا لم تعرفه من قبل. وكان علي جلال يستحثُّها دومًا على انتهاز الفرصة والإفادة من العلاقة ما وسعتها الحيلة، ولكنها كانت تأبى ذلك، وفي الوقت نفسه لم يُقصِّر الرجل في إغداقه. وكثيرًا ما قال لها علي: ألا تُدركين أنه يترنَّح على حافة القبر؟

فكانت تغضب وتحتدُّ وتدعو له بطول العمر، وتقول: ما عرفت أبًا قبله.

ولكن الحب مهما بلغ من قوته وصفائه لا يستطيع أن يدفع الحتم؛ فقد مضت صحة الباشا في التدهور حتى اضطُرَّ إلى اتخاذ قرار نهائي بتصفية عمله والإقامة في الريف. وكان وداعٌ مؤثر، أهداها هديةً ثمينة عقدًا من الذهب ذا فصوص ماسية، وقال بتسليم: اليوم أو غدًا، لا مفرَّ من النهاية، وسيكون لك في وصيَّتي ما أستطيع أن أوصي به، وعليك أن تحتفظي بها لنفسك حتى تملكي استقلالك، وتضمني حياة حرة كريمة.

ودَّعته وهي لا تراه من فيض الدمع الصادق.

٣٠

وأصرَّ علي جلال على مشاركة مأمون الفرماني، وخشي الرجل أن يُنفِّذ علي تهديده بفسخ عقد سمارة فقَبِله شريكًا بثمن العقد، وفي الحال تجدَّد الملهى، فدُعم بمطبخ شرقي وغربي وكافيتيريا، وطُلِي من جديد، كما تجدَّد أثاثه. سُجِّل عقد المشاركة باسم علي جلال، وظلَّت هي لا تملك شيئًا إلا الحب، أو لا تملك إلا ما أتقنته من هز البطن والصدر والرقبة.

وسألت علي جلال: أما آن لنا أن نتزوج؟

فداعَب خدَّها برشاقة وقال: ما زلنا في أول الطريق، الملهى لا يعمل بكامل قوته إلا ثلاثة أشهُر، أما بقية العام فهو مثل سفينة في مهب العواصف والأمطار لا يأوي إليها إلا طلاب الدفء والستر.

– وما ضرر الزواج؟

– إنك ساذجة، لو حازك وجيه وأنت على ذمَّتي لأمكن أن أتعرَّض لتهمة خطيرة تزجُّ بي إلى السجن.

– لم نعد في حاجة إلى هذه العلاقة.

– ما زلنا في أول الطريق، هل شيَّدت عمارة مثل أمينة الفنجري؟!

– يا خبر! ... إنه طريق بلا نهاية.

– بل له نهاية، وهي قريبة، ولكنها تُطالبنا بالصبر والعمل.

٣١

وتجلَّت في سماء الفلير دامور سحابةٌ سوداء؛ فذات يوم غزا الملهى عمرو عبد القوي مُفتِّش الضرائب. شابٌّ في الثلاثين جادُّ المظهر قويُّ الجسم، يهزُّ منظره المُتهربين من أعماقهم. راح يفحص المستندات ويُقيِّد ملاحظاته ثم ذهب. غاص قلب علي جلال في صدره، ولكن مأمون الفرماني قال له: لا تخَف، كل إنسان وله ثمن.

وتحرَّى عن المفتش الجديد عند بعض رجال الأعمال في الحي، رجع عصرًا وهو يقول: الولد نزيه، سنلقى متاعب لا شك فيها.

فقال علي جلال: لاحظت أنه نظر إلى سمارة بإعجاب.

فقال الفرماني: هذا هو الأمل الأخير.

٣٢

وجاء عمرو عبد القوي ليتلقَّى الإقرار. جلس في مقصورة ليُطالعه، وبإشارة من علي جلال جلست سمارة على مقربة من المسرح بحيث يراها المُفتش. ولما كرَّر النظر نحوها ابتسمت في حياء، ثم مضت إليه وهي تقول: أتريد شيئًا في أثناء عملك؟

فابتسم عن فمٍ عريض مُتمتمًا: خطوة عزيزة.

فجلست قائلة: نحن أصحاب المكان وعلينا إكرام الضيوف.

– مُفتش الضرائب ليس بضيف.

– نحن نُحبُّ الناس كما ترى.

– ولو كانوا من رجال الضرائب؟!

– ولو كانوا ...

فواصَل مطالعته وهو يُتمتم: عذرت الآن فقط مهدي باشا جلال.

فقالت مُحتجَّةً ولكن بعذوبة: عفا الله عن الناس، كان لي أبًا ولكن الناس لا يرحمون.

فارتسمت في عينَيه اللوزيَّتين ابتسامةٌ ماكرة وتساءل: أب؟

– صدِّقني.

– لقد عرف كيف يختار ابنة فريدة.

فقالت بتواضع: لست إلا فلَّاحة من رشيد.

فتجلَّى الاهتمام في عينَيه، وهتف: رشيد؟! أنا أيضًا من رشيد. أسرة من؟

– لا ... لا ... على باب الله.

فقال مُقهقهًا: أنا من نفس الأسرة.

ثم انهمك في عمله، واستدعى مأمون الفرماني وقال: المغالطات كثيرة، ولكن لا مفر.

عند ذاك قالت سمارة: أي معاملة بين أفراد الأسرة الواحدة؟!

فحدجها بنظرة قوية وقال: العمل مُقدَّس مثل الصلاة.

٣٣

تمَّت المحاسبة في جو شديد التوتر، عمل الفرماني المستحيل ليتملَّص من قبضته ولكنه لم يُفلِح. قال له عمرو بحزم: عندك محكمة الضرائب إذا شئت.

ومُنِي الملهى بخسارة فادحة على حد قول علي جلال. وبكل جرأة جاء عمرو ليسهر سهرةً شتوية هادئة. كانت ليلةً مُعتدلة صافية جاءت في أعقاب نوة عاصفة أغرقت المدينة

وأغلقت البوغاز. وكلما آنس من الوجوه تجهمًا مرح ودندن واندمج في المشاهدة، ثم بلغ القمة عندما طلب سمارة للمجالسة. وقال لها سعداوي المُحبُّ الأبدي: اذهبي، إنه واجبك.

وذهبت مُتحديةً، جلست وهي تقول: تقتل القتيل وتمشي في جنازته.

فقال بسرور: إني مُعجَب بك يا رشيدية.

– إنك مُرعِب.

– على المُتهربين.

تأخذون أموال الناس! ... بأي حق؟!

فتجاهل نقاشها وقال بحرارة: لا أحب الطرق المُلتوية، فلنقصد الهدف رأسًا، إني أدعوك للعشاء في شقَّتي المُتواضعة بكامب شيزار.

– أنت في كامب شيزار أيضًا؟!

– مسكنك هناك؟! عظيم، من رشيد إلى كامب شيزار. أصبحت الموافقة حتمية.

– ولكني لا أقبل الدعوات الخاصة، ألم تسمع عني؟

– سمعت عن مروان أمين وفاولز ومهدي جلال.

– أنت مُخبِر؟!

– إنك ترفضين الموظفين الصغار وبخاصة إن كانوا نزيهين.

فقالت برجاء: لك جانبٌ دمث وآخر خشن، وقد جئت لمجالسة الدمث.

٣٤

وتفكر علي جلال وقال: إنه لا يُساوي شيئًا، إني أعرف مدَّعي الشرف أكثر مما يعرفون أنفسهم.

وجاء عمرو في نهاية الأسبوع. كانت الليلة صامتة ولكنها شديدة البرودة. ارتاحت لمجيئه ارتياحًا أدفأ أعماقها. أدركت أنها تهبه شعورًا جديدًا لم تشعر به نحو مروان أمين النبيل المُتباعد المُترفع، ولا نحو مهدي جلال لطعونه في السن، إنه شعورٌ جديد، وهو أول مُنافس حقيقي لعلي جلال. عجبت لذلك فماج قلبها خوفًا مُبطَّنًا بسرورٍ خفي. عمرو قريب جدًّا وأليف جدًّا، ينبض في جذورها الرشيدية، وهو يُصرُّ على المجيء مُتحديًا الجفاء المحيط من أجلها هي، وهو مُثير للإعجاب بقوته وتحدِّيه. وهمس علي جلال في أذنها: لا تُلبِّي إذا طلب.

هل استشعر باطنه خوفًا؟! ماذا عليها أن تفعل هي التي لم تُخالِف له أمرًا؟ إنها تُضمِر العصيان لأول مرة في حياتها. وتذكَّرت كلمات مهدي باشا عن الاستقلال والكرامة. ماذا يريد علي منها أكثر مما أخذ؟ ها هي لأول مرة أيضًا تُحاسبه. وحلَّت اللحظة الحرجة، فجاء الجرسون يُبلغها الدعوة. لاحظت أن سعداوي يُراقبها بقلق؛ ذلك المحب القديم الصامت، دنا منها وهمس: لا تذهبي.

فتساءلت: لماذا؟ … ألم تقل إنه واجبي؟

– ولكن سيقع شرٌّ لا مفرَّ منه.

وذهبَت بلا تردد، وجلست وهي تشعر بأنها تستقبل حياةً جديدة، وإذا بعلي جلال يقتحم المقصورة ويأمرها قائلًا بفظاظة: اذهبي.

حدجه عمرو بنظرة قاسية وقال: عليك أنت أن تذهب.

فلم يُبالِه، وكرَّر أمره لسمارة: اذهبي.

– ولما لم تتحرك هوى بكفه على وجهها.

وثب عمرو فوجَّه إليه لكمةً صادقة، سرعان ما اشتبكا في صراع مُخيف كنمرَين. وجاء مأمون الفرماني وسعداوي والجرسونات. لم يُفلِح أحد في الفصل بين المُتعاركين حتى تهاوي علي جلال على الأرض؛ فعند ذاك رفع سعداوي كرسيًّا ليضرب به الشاب، غير أن سمارة صاحت به: ارمِ الكرسي من يدك يا سعداوي.

وقف سعداوي ينظر إلى عمرو ولا يقول شيئًا وقد اصفرَّ وجهه من شدة الغضب.

وقبض عمرو على يدها وهو يلهث ثم قال: لا يجوز أن تبقي هنا بعد الآن.

٣٥

كانت غاضبة وحزينة فمضت معه كأنها في حلم … تترك الفلير دامور وتهجر الرقص؟! هل يمكن أن تتغير الحياة في غمضة عين؟ لم تُحبَّ حياتها الماضية، ولكنها لم تُبغضها أيضًا لما أملتها في تحقيق الحياة المستقرة التي تهيم بها. خرجت منها كما دخلتها فقيرة لا تملك مليمًا. استقرَّت في شقة صغيرة مُتواضعة على مَبعدة دقائق من شقتها الأولى. ولأول مرة تحكي قصتها بلا أكاذيب. وقال عمرو أول ما قال: لم تخسري بمجيئك شيئًا؛ فقد كنت طيلة الوقت منهوبة.

فقالت بصدق: ما اهتممت أبدًا بالنقود، وما تطلَّعت إلا للحب والاحترام.

فقال ضاحكًا: عندي منهما الكثير، ولكن لا مال لي إلا مُرتَّبي المحدود.

– لا أهمية لذلك عندي.

فقال بحرارة: وبالصدق والأمانة أُصارحك بأني أحبك.

ومضت الحياة عذبة، غير أن علي جلال قابَل رئيس المصلحة وادَّعى أن عمرو طالَب برشوة، ولما رفض سعيه افتعل مشاجرة ثم خطف راقصة الملهى.

٣٦

لم يُسفِر التحقيق عن شيء، ولكنه أساء إلى سمعة عمرو عبد القوي حتى اضطُرَّ إلى أن يعلن رئيسه بأنه أخذ الراقصة حقًّا ولكن ليتزوَّج منها. وبالفعل عرض الاقتراح على سمارة وتم عقد القران. ورغم ذلك صدر قرار بنقله إلى الصعيد، فثار عناده وقدَّم استقالته. إنها لخطوة جنونية، ولكنه وجد عملًا في مكتب محاسبة حتى يمكنه الاستقلال بالعمل. سمارة كانت السعيدة الفائزة، لقد تحقَّق حلمها الأبدي في الزواج، وسعدت سعادة لا مثيل لها، غير أنها سألته: هل تورَّطت يا عمرو في الزواج مني؟

فقال بقوة: أبدًا … الظروف سبقت، هذا كل ما هنالك، ولكن نيتي كانت صادقة.

وازدهرت سمارة كالوردة المُتفتِّحة.

٣٧

وتتابعت الأيام مُتألقةً بالبهجة، ومع أنه كان شتاءً قاسيًا كثير العواصف والمطر إلا أنها سعدت به وهي تُشاهده لأول مرة من وراء الزجاج دون اضطرار إلى الخروج اليومي والسهر. أصبحت بمأمن من عواصف الحياة وأمطارها، واستوت العاصفة والأمطار في وعيها رمزًا للجود والبهاء. وفي ذلك الشتاء انتقل مهدي باشا جلال إلى جوار ربه، وقد أوصى لها بمبلغ عشرة آلاف من الجنيهات. هبطت الثروة من السماء وقد بكت الراحل طويلًا، ولكنها تمالكت نفسها لدى عودة عمرو، وقالت له: صِرنا أغنياء يا عمرو.

ولكنه عبس وقال: كيف فعل ذلك لامرأةٍ مُتزوِّجة؟!

– من أين له أن يعلم بزواجي؟

فقال بازدراء: ولو!

قالت بصدق وحرارة: كان أبي يا عمرو، صدِّقني.

– كانت سمعته الخاصة سيئة.

– رعاني وهو في السبعين.
– ولو ... كان رجلًا سيئ السمعة.
فاغرورقت عيناها وقالت: لو عرفته بنفسك لكان لك فيه رأيٌ آخر.
فقال بحدة: أني أكره هذه الدموع.
– أتريد أن أرفض النعمة؟! ... إنك فقير، وفي بطني جنين.
فغادَر الحجرة وهو يُدمدم، لكنه لم يُدلِ برأي حاسم. لو أراد الرفض لجهر بذلك وهو لا ينقصه الصراحة. هكذا احتفظت بالمال الموهوب.

٣٨

سعدت سمارة بزوج يحبها حقًّا، زوج مُفعَم بالرجولة والفحولة والشهامة والعطف. ولم يُكدِّر صفوَها شيءٌ من العادات البالية؛ إذ كان بلا أهلٍ مثلها. ولا شك أنه كان نشيطًا في عمله، فما لبث أن فاق دخله مُرتَّبه السابق، غير أن الأيام كشفت لها عن عيب أو عيبَين جوهريين فيه؛ إنه شديد الغضب، وغير مُتسامح. وإذا غضب أفصح عن غضبته بالكلمة والفعل. في مرة، عند خروجها من سينما رويال لمح شابًّا يُغازِل فتاةً بقحة، فما كان منه إلا أن لطمه، ثم فعل به ما سبق أن فعل بعلي جلال. ارتعبت وقتها وقالت له: بالغت في العنف، وكان القليل يكفي.
فقال لها بانفعال: إنها اللغة الوحيدة المُجدية.
– لقد كنت على حق، ورغم ذلك فقدت عطف الناس.
– لا يهمُّني الناس.
ولكن ثَمة عيب آخر بدا خطيرًا فتَّاكًا؛ ذلك ولعه بالقمار. ما إن انقضى شهر العسل حتى كُشِف سره. كان يُقامر في شقة بالإبراهيمية، يسهر حتى منتصف الليل، ويمتدُّ السهر أحيانًا للفجر. قالت له برجاء: صحتك ومالك.
فقال بأسًى: لكل إنسان عيبُه.
– ولكن هذا العيب قد يخرب بيتنا.
فقبَّلها وهو يقول: لا تُبالغي، ثم إني محظوظ.
ولكنه كان يخسر أيضًا، ومرةً رجع مدينًا بمبلغ جسيم أخلَّ بميزانه، فقالت له: عليك أن تُسدِّد الدين مهما كلَّفنا ذلك.

وأعطته من هبة مهدي باشا جلال، فتقبَّلها بوجهٍ واجم ونفسٍ مُنكسِرة حتى أثار عطفها.

وواصَل اللعب، وانقلب عليه الحظ حتى أتى على التركة كلها، واسودَّ وجه الحياة.

ووُلد أحمد في ذلك الجو المُتجهِّم.

٣٩

وقال لها ليلةً عقب عودته من الإبراهيمية: مصادفة سيئة جدًّا.

– ليحفظنا الله.

– انضمَّ إلى مائدتنا علي جلال.

فانقبض قلبها وتساءلت بقلق: مصادفة؟!

– طبعًا.

– وهل ذهب إلى هناك كل ليلة؟

– يبدو ذلك.

– قلبي غير مطمئن.

– المائدة تجمع بين خير الناس وأسافلهم.

– إنه سبب كافٍ لكي تُقلِع عن هذا الداء الوبيل.

فلاذت بالصمت. وتوكَّد لديها أن ما تتمنَّاه حُلمٌ بعيد المنال، فتنهَّدت قائلةً: طالما حسبت نفسي أسعد امرأة في الوجود.

فقهقه قائلًا: وإنك لكذلك يا جاحدة.

فقالت بنبرة باكية: إني تعيسة يا عمرو.

٤٠

ومضت الأيام في قلق وتوتر حتى صدقت مخاوف قلبها، بل جاءت الأحداث أسرع مما قدرت؛ ففي ليلة احتدم التناحر ما بين عمرو وعلي فانتهى إلى غايته المحتومة وهي الشجار، وتراجع علي جلال أمام ضربات لا قِبل له بها، فاستلَّ مِطواة طعن بها قلب خصمه فتهاوى فاقد الحياة.

هكذا اختفى الرجلان اللذان أحبَّتهما في ليلةٍ واحدة، ذهب أحدهما إلى القبر والآخر إلى الليمان.

وجُنَّت المرأة من الحزن. وجدت نفسها وابنها في دنيا خالية. فقدت الحب والأمان. ناءت تحت عبء مسئوليَّتها الكاملة عن وليدها ونفسها، وخاصةً وليدها، ابن الرجل الذي أحبَّته، الذي قرصته حشرة فقوَّضت بنيانه.

٤١

وانشقَّت الظلمات — ذات يوم — عن وجه سعداوي بيَّاع الفستق. أثار في قلبها مكامن ذكريات جميلة وأخرى مُحزِنة، ولكنها وجدت نحوه امتنانًا لا شك فيه، وتلقَّت مواساته الصادقة بمودة وأسًى، ثم وضح أنه جاء من أجل هدف أدلَّ على صدق عواطفه من المواساة وحدها. قال: مأمون الفرماني على أتم استعداد لاستقبالك.

ولكنها قالت بوضوح: لن أرجع إلى تلك الحياة يا سعداوي.

فقال الرجل بحماس: وعدٌ عليه حق؛ ألَّا يُطالبك بما لا ترتضينه.

فقالت بإصرار: أصبحت اليوم أمًّا، وعليَّ أن أصون سمعة ابني من الآن فصاعدًا، ومن حسن الحظ أنني أخفيت هديةً ثمينة أهدانيها المرحوم مهدي باشا جلال، وبها يمكن أن أبدأ بدايةً جديدة تُمكنِّني من تربية ابني كما أريد.

ارتسم الترحيب في وجه سعداوي وتمتم: ليَكُن، إنه أفضل على أي حال، وستجدينني في خدمتك على الدوام.

جلس الرجل يرنو إليها ولا يزيد، ولكن نظرة عينَيه باحت بأكثر مما قال، كأنما تبتهل إليها أن تؤمن بأنها ستجد دائمًا من يتذكرها عند الشدة، ومن يحبها حبًّا صادقًا.

صاحب الصورة

اختفى شيخون محرَّم.

كان اختفاؤه حدثًا هزَّ المجتمع هزةً عنيفة. كان رجلًا مرموقًا، ذا نشاط مالي عريض، وله في السياسة وجودٌ راسخ وأثر، وفي دنيا الإحسان والخير أيادٍ بيضاء، إلى سمعة طيبة ذات رائحة زكية.

غادَر سراياه في أصيل يوم قاصدًا النادي، ثم اكتشفت أسرته — المُكوَّنة من حرمه سريرة هانم ووحيده عيسى — أنه لم يعد. انزعجت الأسرة أيَّما انزعاج؛ إذ لم يسبق أن شذ الرجل عن جدول مواعيده بلا إخطار. اتصلت الهانم برفقائه في النادي، فأجمعوا على أنه لبث بينهم ساعةً واحدة ثم انصرف ليزور — على حد قوله — شقيقه محمود محرم في سراياه بالزمالك. وفي الحال اتصلت الهانم بمحمود محرم، ولكن زوجته أجابتها بأن زوجها في رحلة في البحر الأحمر يرجع منها مساء اليوم، وأن شيخون لم يزُرهم منذ أكثر من أسبوع. وشهد سائق السيارة بأن الرجل غادَر النادي، أمره بالانتظار في موقفه ثم مضى مشيًا على الأقدام، وأنه لزم موقفه حتى شقشق الصبح.

وبدأ بحثٌ شاقٌّ ملهوف على شيخون في جميع مظانه؛ عند جميع الأصدقاء والزملاء، في الإسكندرية وفي العزبة، فارتطم دائمًا بخيبةٍ مُرة، فاشتعلت الأفئدة بالقلق والوجل، وتجمَّعت سُحبُ الظنون.

ووفد على سراياه الأهل، وفي مقدمتهم شقيقه محمود محرم، والأصدقاء والمعارف، وتداولوا الأفكار والحلول، وقالت سريرة هانم: لو كان بخير لاتَّصل بنا.

واستقرَّ الرأي على إبلاغ الجهات الرسمية. عند ذاك اتخذ البحث مجرًى جديدًا فشمل الأقسام والمستشفيات، وازداد اللغز انبهامًا، والتشاؤم استفحالًا، وكأن الرجل رائحة وتلاشت في الكون.

وتلاحقت الأيام ... فتجسَّد الاختفاء صخرةً سوداء لا تتزحزح، يتحطم عليها الأمل. لقد اختفى شيخون محرم كأنه لم يكن.

وجاء دور التحقيق والتحريات، ولكنه لم يُسفِر عن جديد أيضًا، فلا عداوة ولا سرقة ولا شبهة سبب ما قد يُفضي إلى جريمة.

وخلَت سريرة هانم إلى ابنها عيسى وهي في غاية من اليأس، وقالت له: لم أُدلِ بكل ما عندي في التحقيق.

فرنا إليها الشاب ذاهلًا وتساءل: أعندك مزيد؟

– قلتِ إني لا أعرف لأبيك عدوًّا.

– هذا حقيقي.

– كلا.

ثم مُواصلةً حديثها بعناد: عمك.

– لا ... لا ... المسألة أنك دائمًا تُسيئين به الظن ... ليس لديك دليل واحد.

– لديَّ قلبي.

– لا يكفي. إنك تكرهينه.

– لا لشيء إلا لأنه كره أباك.

– لا أُوافقك على ذلك، كانت العلاقة بينهما دائمًا مثالية.

– في الظاهر فقط، وعمك مُجرِم، ألم تسمع بما يُقال عن ضحاياه في الريف؟

– ذاك أمرٌ آخر.

– إنه مطبوع على الإجرام.

– كان يحب أبي وأبي يحبه.

– قلبي لا يكذبني. كنت أقرأ في عينَيه أحيانًا ما يُخيفني، إنه ينفس على أبيك نجاحه وثراءه.

– عمي ليس بالفقير.

– هنالك سر لا تعرفه، لقد واجهت عمَّك خسارةٌ أوشك أن يبيع بسببها أرضه لولا أن أسعفه أبوك، أسعفه بلا عقد. أنت تعرف شهامة أبيك، ولكن الدين ثقيل ولا حجة عليه.

فتأفَّف الشاب وقال: المسألة أنك سيئة الظن بعمي.

– المسألة أنك مُصرٌّ على حسن الظن به.

– هذا هو الأصل.

– آخر ما سمعنا عن أبيك أنه ذهب للقاء عمك.

– ثم ثبت أن عمي كان في رحلة مع صحبه.

– طالما قتل عمك الأبرياء وهو بعيد عن موقع الجريمة.

– أساطير لا دليل عليها ... لماذا تكرهينه؟

– قلبي، ألا تؤمن بحديث القلب؟

– كلا، لا أومن إلا بالمحسوس.

– هذا يعني أنك لا تؤمن بشيء.

– هل فاتحت أبي بظنونك؟

– لم يُصدِّق لصفاء سريرته.

– أرأيت؟

– ولكنه اعترف لي بخلافٍ نشب بينهما قديمًا.

– هذا حال الناس جميعًا.

وكانت الأم أصلب مما تصوَّر ابنها، فأفضت بظنونها إلى المُحقِّق. وكان خَطبٌ وفضيحة، وجرى تحقيقٌ دقيق مع محمود محرم، ولكنه لم يُسفِر عن شيء. تزعزع الأساس الذي يستند إليه فرعا الأسرة الواحدة، وطالبت سريرة بالقرض الذي اقترضه من زوجها، فكان جواب العم أنه سدَّده، وأنه لم يكن بينه وبين شقيقه تعامل رسمي. وزاد ذلك من سوء ظن المرأة، ولكن العجيب أن محمود محرم بقي على ولائه لذكرى شقيقه، بل إنه استدعى عيسى إلى مقابلةٍ خاصة في النادي وقال له: أسباب الغضب متوافرة لديَّ، ولكني مُصرٌّ على الإبقاء على أواصر القربى، فتذكَّرْ دائمًا أنني عمك، كما أتذكَّر دائمًا أنك ابن أخي.

وتواصلت الأيام، ولحقت بها الأشهُر ثم الأعوام، انتهى شيخون محرم! غير أنه عاش ذكرى حية في ضمير سريرة هانم، ذكرى حية لا تموت. لم تتعزَّ أبدًا، لم يفتر حبها له، لم تيئَس من أن يستقيم عود العدالة المعوجُّ ذات يوم. وكثيرًا ما كانت تقول لابنها: أبوك يُطالبنا بالعدل ونحن عنه لاهون.

وكان عيسى قد حل محل أبيه في الإدارة، فشغله العمل عن كل شيء، وشغلته الحياة أيضًا بمسرَّاتها اليومية، فكان يتجنَّب مناقشاتها ما وسعه ذلك. ويُثيرها بُروده فتهتف: ألا ترى أني لم أذرف حتى الآن دمعةً واحدة؟!

فيقول برقَّةٍ ما أمكنه ذلك: ما هكذا يلقى العقلاء النوائب.

– أتراني مجنونة؟

– أمي.

فتقول بأسًى: لم ترث إلا أملاكه.

وحلَّت الكارثة الكبرى عندما قال لها يومًا: أمي افتحي لي صدرك.

فرمقته مُتوجسةً، فقال: قرَّرت أن أتزوَّج من سميحة.

بُهتت المرأة. اصفرَّ وجهها. ارتعشت أطرافها. قال بضيق شديد: الأمر بسيط جدًّا لولا ظنون لا أساس لها.

فقالت بفزع: طالما توقَّعت ذلك، طالما توقَّعته كأنه الموت المحتوم.

فابتسم في امتعاض شديد دون أن ينبس، فتمتمت بمرارة: ابنة قاتل أبيك؟

فقال برقة: ابنة عمي.

تقوَّست المرأة في جلستها من شدة الألم، ثم قالت بحدة صارمة: إنه الفراق الأبدي بيني وبينك.

وهاجرت من المدينة إلى القرية، عاشت في السراي الصغيرة في وحدة عميقة، وتركَّزت طيلة الوقت في هواجسها. وكان صوتها يُسمَع وهي تُحاوِر نفسها بلا انقطاع. غرقت في الضياع الذي ذاب فيه زوجها المحبوب.

وتزوَّج عيسى من سميحة. أصرَّ عمه على أن يذهبوا جميعًا إلى القرية ليُقدِّموا فروض الود ويستوهبوا الرضا، ولكنها أبَت أن تلقى أحدًا منهم، ومضت تُردد: ها هو ذا القاتل يُحقق هدفه ويصبُّ ثروة ضحيته في ذريته.

واستفحل العذاب بالأم حتى مزَّق وحدتها. وفي مِحنتها الطاغية أخذت ترى المأساة خلال أبعاد جديدة وافدة من المجهول. تألَّق في باطنها إلهامٌ مُتوثِّب بأن الأشياء تُخلَق من جديد، وطرَق أُذنَيها همسٌ مُضيء دعاها إلى تلبية نداء خفي. تلاشى إيمانها بالجريمة فتبخَّر اليأس وزال، وإذا بها تخرج من عذابها إلى الناس، تمضي في وقارٍ ظاهري وبيدها صورة شيخون. وكلما صادَفها شخصٌ عرضتها عليه مُتسائلةً وهي تنتظر أن يجيئها الجواب الشافي في يوم من الأيام. لم تسأم من تَكرار السؤال، ولم يُثبِّط همتها النفي، وترامت أخبارها إلى عيسى ففكَّر في اتخاذ إجراء حاسم، ولكنه اكتفى بعد تدبُّر ومراجعة بتكليف أحد أتباعه في القرية بحراستها من بعيد. وتتابعت خطوات الزمان وهي مُصرَّة على بحثها العقيم، وتقدَّم بها العمر فلم تهمد ولم تخمد.

وبعد دهر فريد.

كان عيسى يجلس في السلاملك ذات أصيل عندما رأى عجوزًا يتسلل إلى السراي مُتوكئًا على عصاه، رنا إليه مُقطِّبًا بادئ الأمر، ثم اجتاحه الارتياع والذهول فوثب نحوه وهو يهتف: أبي!

حمل ما بقي منه بين يدَيه ومضى به إلى فراش، وسُرعان ما استدعى الطبيب. لم يكن به مرض، ولكن أنهكته الشيخوخة والضعف. وما إن استلقى فوق الفراش حتى تخلَّت عنه قُوى المقاومة فتبدَّل شخصًا آخر. ولما استيقظ من نوم عميق ظنَّ عيسى أنه استردَّ عافيته، فسأله بشغف: أين كنت يا أبي؟ ... ماذا غيَّبك ذلك الدهر الطويل؟

ولكنه لم يُجِب، بل كأنه لم يسمع، وهوَّم في آفاقٍ بعيدة، ورجع عيسى يسأل من جديد، ولكن الأب لم يُبالِه، وتمتم كأنما يُخاطِب نفسه: الجبال الخضراء.

فسأله باهتمام: أكنت في الخارج؟

فمضى العجوز في حديثه الباطني: والبحيرات الزرقاء.

– أين يا أبي؟

فهمس مُتنهدًا: وعش الحب والعناء؟

فهتف عيسى في أسًى: لقد فقدت أمي عقلها.

فعاود الهمس مُتمتمًا: عش الحب والعناء!

ويئس عيسى من الاتصال به، ولكنه قرَّر أن يجمع بين أبيه وأمه، وأمل من وراء ذلك في الشفاء.

وجيء بالأم رغم إرادتها حتى بكت، ولما أجلسوها أمام الراقد فوق الفراش كفَّت عن البكاء. خفق قلب عيسى بالترقب ... ولكن لم يحدث شيءٌ ذو بال. لم يتبادل الزوجان نظرة عتاب أو فرح أو حزن. ترامقا كأنها ينظران في فراغ. غاص كلٌّ منهما في دنيا لا علاقة لها بدنيا الآخر، كأنه لم يعرفها وكأنها لم تعرفه. تفشَّى في الجو توجُّس وأسًى عميق. شعر عيسى بأنه مجهول الأبوَين.

وقامت الأم كأنما ضاقت بالجلوس. اقتربت من الفراش حتى لامسته، ثم بسطت الصورة أمام عينَي العجوز، وطرحت سؤالها الخالد: هل تستطيع أن تدلَّني على صاحب هذه الصورة؟!

الرجُل والآخَر

من دكان الفاكهة خرج الرجل حاملًا قرطاسًا مثل قمع السكر. ابتلعه تيَّار بطيء مُتلاطم في سوق الخضار. ولقامته الطويلة برز وجهه الباسم المُتورِّد فلمحه الآخر من موقفه عند كشك السجائر وقال لنفسه: «أخيرًا ... لن يفلت مني.» وجعل يُتابعه بانتباه حتى تملَّص من الزحام فمرق إلى الميدان. من المهم جدًّا ألا يُثير ريبته حتى تحين الفرصة المُواتية. الرجل يُجيل بصره في الميدان حتى يستقرَّ على محل الحلوى في الجهة المقابلة ويمضي إليه فوق نصف دائرة الميدان الأيمن، فيمضي الآخر نحو الهدف فوق نصف دائرة الميدان الأيسر. دخل الرجل المحل فوقف الآخر تحت عمود النور العالي. جو الخريف عذب. ضوء الأصيل هادئ يهبط من السماء بعد أن توارى قرص الشمس وراء العمارة العالية. الرجل ينتظر أن يفرغ البائع له. عيناه تثبان بنهمٍ بين صفوف الحلوى الشرقية والغربية، والآخر يُراقبه بصبر. ثَمة امرأةٌ تنتظر أيضًا، مليحة ومُتبرجة ومُرحبة بالمجهول. الرجل يرمقها بنظرة مُستطلعة. تُعرِض عنه ولكن شِبه باسمة. يتزحزح خطوة فيقتحم مجالها الحيوي. ها هو يهمس بجرأة. ها هما يتهامسان. قال الآخر إن ذلك يُنذِر بتعقيد الأمور. إضافة جديدة لمتاعبه وتحدٍّ غير مُتوقَّع لخطته. ويجيء دورها لابتياع ما تريد ثم يجيء دوره. يخرجان ووجهه يتهلل ويطفح بالرغبة والظَّفر، يتبادلان كلمات ضاحكة مثل فقَّاعات الشهد، ثم تمضي هي إلى شارع الملاهي، يُتابعها بعينَيه لحظةً ثم يسير على مهَل حاملًا القرطاس واللفة. لا شك أنهما تواعدا على لقاء، والآخر يأمل ألا يؤجل ذلك تنفيذ خطته، يرجو ألا يُهدَر تعبه الطويل وتدبيره الحاذق. قد يكون اللقاء قريبًا فتتعقَّد الأمور، وقد يكون لغد لن يجيء أبدًا. الرجل يسير، لا يُرهقه المشي، ولا يدري أحد متى يفتر نهمه وأشواقه. تجذبه معارض المحال التِّجارية كأنه ربة بيت. الساعات والنظارات

والأدوات المنزلية والملابس وآلات الغيار والأجهزة الإلكترونية، حتى اللوازم الطبية وواجهات الصيدليات تجذبه. يتشمَّم رائحة الكباب والطعمية، يقرأ عناوين الكتب والمكتبات. وكلما جمعه موقفٌ مع امرأة أو فتاة دخل مجالها الحيوي، ولكن لم يحصل تلاحمٌ جديد. ولون المغيب يتشرَّب بالسُّمرة وتنفث النسائم برودة مُنعِشة. دخل محل أقمشة، وخرج بكيس نايلون مشحون ودسَّ لفة الحلوى في الكيس مع القماش المشترى. ابتاع أيضًا كتابًا ... تُرى أي كتاب؟ متى يعتقد أنه سيقرؤه؟ ودَّ لو يعرف اهتماماته الدفينة. إنه لا يكاد يعرف عنه شيئًا ذا بالٍ سوى الاسم والهُويَّة والتاريخ البغيض الغامض. وعطف الرجل إلى دكان مسح أحذية. أخذ مجلسه فوق الكرسي الدوَّار واضعًا حمله فوق كرسي خيزران قديم. ينظر إلى المرأة أمامه مُغازِلًا وجهه بإعجاب وارتياح. يُواجِه الصورة تارةً ويَثني رقبته يمنى ويسرى تارةً أخرى. والآخر يُراقِبه من زاوية فوق الطوار. التقت عيناهما لحظةً فوق سطح المرآة. تضايق وتحرَّك خطوةً نحو الأمام. غاب الرجل عن منظوره. لا يرى الآن إلا الإسكافي العجوز وصاحبة المحل البدينة. خشيَ الآخر أن تلتصق صورته بعين الرجل خاصةً أن وجهه سهل الانطباع؛ وجهه غامق وعيناه حادَّتان وشعره أسوَد كثيف، ولكن الرجل مُستغرِق في ذاته ولم يرَه من قبل. أضاءت مصابيح الشارع وتخايل ظل المساء. ها هو يُغادر الدكان وقد ازداد — بتلميع الحذاء — رضاءً عن نفسه، وارتطم به مارٌّ مُسرِع فارتدَّ بخطوة ملهوجة وهو يُشدِّد قبضته على حمله ويصيح غاضب: هوه!

توقَّف المُسرِع مبهوتًا وصمت، فصاح به مرةً أخرى: على الأقل اعتذر.

فسأله بضيق: أليست لديك لهجةٌ أفضل؟

– كلا.

– إذَن فليس لديَّ اعتذار.

– حيوان!

فبصق المُسرِع على الأرض مُحتجًّا. عند ذلك وضع الرجل حمولته فوق الرصيف ثم انقضَّ عليه فتبادلا ضربات شديدة. أدرك المُسرِع أنه ليس ندًّا لخصمه فتراجع قائلًا: غاوي خناق ... اشهدوا على المعتدي.

وتجمَّع خلق، وجاء الشرطي، والآخر يُراقِب بانفعال وضيق. وعندما قال الشرطي القسم موجود والصلح خير ... بدا أن المُتخاصمين تجنَّبا الذَّهاب إلى القسم، فتناول الرجل حمولته وذهب. تنفَّس الآخر بارتياح وتبعه. نسي الرجل انفعالاته تمامًا أمام محل للعب الأطفال. له أبناء في سن الطفولة! ودخل. ما أعظم إلحاحه وصبره! وخرج بلا إضافة. لعله

لم يشترِ شيئًا، أو لعله اشترى لعبةً كبيرة سيُرسلها المحل إلى مسكنه. في تلك اللحظة قابَله كهلٌ يتأبَّط حقيبة، تصافَحا بحرارة، تبادلا كلمات سريعة، ثم مضى الكهل وهو يقول: لا تنسَ المحكمة يوم عشرة القادم.

أأنت أيضًا من أرباب المحاكم؟! متى تسمع الحكم؟ تُرى أين تذهب بعد ذلك؟ عصير فواكه ... ليَكن، أتعبتني الله يتعبك. للمرة الثانية تتلاقى عيناهما فوق سطح المرآة. انقبض صدره. هل يتذكره؟ كلا ... إنه مأخوذ بمذاق الشراب وعيناه تدمعان. ينظر ولا يرى، ويتملَّى صورته بإعجاب وبراءة.

ها هو يُغادِر الدكان، يعبر الطريق، يغيب في محل ترزي يعدُّ كسوة الشتاء. غاب ربع ساعة ثم عاد إلى الظهور، عرَّج إلى مقهى الحرية ثم دخل. المقهى على ناصية، وله أكثر من مدخل، فلم يرَ الآخر بدًّا من الدخول. جعل يُراقبه من مجلسٍ غير بعيد والرجل يحتسي فنجانًا من القهوة ويكتب خطابًا. أعطى الخطاب الجرسون وقام إلى التليفون. ها هو يقف قريبًا جدًّا منه: آلو ... حسن؟ ... الدكتور موجود؟

– ...

– احجز لي في أقرب موعد.

– ...

– عظيم ... الساعة السادسة مساءً ... شكرًا.

وما كاد يرجع إلى مجلسه حتى لحق به صديق، جالَسه وهو يتساءل: حضرت المأتم؟

– نعم ... علمت مصادفة.

– كلنا لها. هل أطلب النرد؟

– لا وقت.

– عشرة واحدة بجنيه، لي أو لك.

نظر في الساعة، قَبِل التحدي، لعبا من فورهما. يُعلق بسخرية على كل رمية زهر، ماهر في الحرب النفسية، واثق من انتصاره، في أقل من عشر دقائق قام وهو يدسُّ الجنيه في جيبه، فمضى ضاحكًا والآخر يقول له: يا لص، ربنا يرزقك بنشَّال!

قال الآخر لنفسه إنها دعوة مُستجابة غالبًا. يمضي الآن نحو عمارته وسط المدينة. هذه هي الفرصة. ليست مضمونة تمامًا، إذا فشلت فعليه أن يرسم خطةً أخرى. كلما فشلت خطة تعرَّضت التالية لمصاعب جديدة. ها هو يغيب في مدخل العمارة. لحق به ثم دخل المِصعد وراءه. إنهما مُنفردان. الرجل يسأل بكرم دون أن يلتفت إليه: الدور؟

– الأخير.

– وأنا كذلك.

ولكن امرأة أدركت المِصعد قبل أن يتحرَّك. جُن جنون الآخر، غير أن المرأة غادرت المصعد في الدور الثاني، فاستعاد الآخر حيويته ونشاطه. هذه هي الفرصة. الاحتمالات كثيرة، ولكن العواقب لا تهمُّه البتة. ليس في خطته للسلامة إلا واحد في المائة. وبحذر شديد قبض على المطواة المستكنَّة في جيبه.

غادَر المِصعد. لم يُصادف أحدًا. الظروف تخدمه فوق ما قدَّر. ترك باب المِصعد مفتوحًا عن زيق، ثم هبط مُسرعًا. مضى إلى حانة إيديال. شرب كثيرًا ولم يتناول من الطعام إلا الخس. ونعس وحلم حلمًا طويلًا في وقت قصير جدًّا. وغادَر الحانة فعبر أمام العمارة فوق الطوار الآخر، فرأى الشرطة وجمعًا لا حصر له. واصَل سيره إلى فندقه بالعتبة، دخل حجرته وهو يتنهَّد وقد نسي الحُلم تمامًا ... أغلق الباب، أضاء المِصباح. التفت إلى الوراء، رأى الرجل جالسًا فوق الفوتيل يرمقه بهدوء ثقيل كالموت ... ندَّت عنه آهةٌ دامية، تراجع حتى التصق ظهره بالحائط، تعلَّق بالفرار ولكنه لم يتحرك، وتسمَّر في مكانه وبال على نفسه. إنه حقيقة ما يرى، هو هو الرجل. القرطاس بيد والكيس بالأخرى ... الموت يُطلُّ من صورة حية ... يُحدق فيه بعينَين جامدتين عالمتين بكل شيء. شعر بغثيان ويأس، وقال إنه الشِّعر أو الجنون، وأمره بالاستسلام دون أن يتفوَّه بكلمة، يُخاطبه بلغةٍ جديدة وواضحة ونافذة وغير مسموعة. كيف ومتى جاء بهذه السرعة؟ وما معنى تجمهُر الشرطة والناس أمام مدخل العمارة؟ كم عامًا مضت منذ ارتكاب جريمته؟ كم عامًا لبث بالحانة؟ وكلما مرَّ وقت تأكَّد له وجود الرجل بثقله وسطوته غير المحدودة. وشيء حثَّه على أن يدسَّ يده في جيبه، فعثر على المِطواة التي تركها مُنغرِزة في قلب الرجل، فأدرك أن هذا العالم يخضع لقوانين كثيرة لا لقانون واحد.

دقَّت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. تلقَّى أوامر سِرية فتهيَّأ في خنوع لتنفيذها بدقة وطاعة عمياء. قام الرجل ببطء. سار بجلالٍ نحو الباب. فتح هو الباب ومشى بين يدَيه صامتًا مُذعنًا. أراد أن يصرخ، ولكن الصوت تلاشى في حنجرته. هبط السلَّم والرجل يتبعه. التَقى في طريقه بفرَّاش، بمدير الفندق، بموظف الاستقبال، ولكن أحدًا لم يُعِره التفاتًا، لم تسترعِ المعجزة انتباه أحد، لم تُثِر دهشة ولا اهتمامًا.

أمام الفندق وقف حنطور بلا حِصان. اتجه الرجل نحو المقعد وجلس عليه بهدوء. أما هو فاحتلَّ مكان الحصان وتأبَّط العريشين. لم ينظر أحد من المارَّة لما يحدث، لم

يتجمهر أحد، كل فرد مُنشغلٌ بشيء محسوس أو بشيء لا يُرى. أكثر من ذلك ترنَّم أحد السابلة شاديًا: أهل الهوى يا ليل.

وفرقع السوط فراح يجرُّ الحنطور. مضى في رشاقة وهدوء واستسلام. رأى جانبَي الطريق، ولكنه لم يرَ ما يمتدُّ أمامه، فغاص في مجهول. في خطٍّ مستقيم يتقدم أو ينعطف مُتلقيًا توجيهاته من جذبات اللجام. إلى أين يسوقه؟ ماذا يُضمِره له؟ لا يدري، ولا يُبالي. يمضي بلا توقف. يبول ويتغوَّط بلا توقُّف. يصهل أحيانًا ويرفع رأسه، يلمس لجامه بلسانه الجاف، تتابع إيقاعات حافره فوق الأسفلت. إيقاع رتيب يُنذر بمسيرة لا نهاية لها.

الحوادث المثيرة

١

سأذكُر ما حييت حوادث حي الخليفة المُثيرة المُفزِعة. الحق أنها لم تكن كلها مُفزِعة؛ فمنها حكايات تناقلها الناس عن هبات مجهولة من النقود تتسلل بليل إلى بيوت الفقراء، ولكن منها أيضًا حالات التسمم بالجملة، والحرائق، وأكثر من ذلك تَكرارها على وتيرة واحدة مما أشار إلى فاعل واحد. وبثثنا العيون والحراس، وقمنا بدوريات ليلية مُنتظمة. وقلت لرئيسي: المجرم مجنون ولا شك.

فقال لي بحدة: المهم أن نقبض عليه.

وتقضَّت أيام البحث وأنا في غاية من التعاسة؛ فلا نتيجة ولا أثر ولا توقُّف للحوادث، حتى جاءنا خطابٌ غُفْل من الإمضاء، به سطرٌ واحد:

«مُجرم حوادث الخليفة هو مكرم عبد القيوم المقيم بالشقة ٣ بعمارة الفردوس.»

فقرَّرنا بلا تردُّد مراقبته، ولكن سرعان ما انكشف لنا أنه أخلى شقته منذ يومين، وبادرت إلى التحري عنه في العمارة، فقابلت مالكها وهو ساكن بها أيضًا، وقلت له: أريد ما عندك من معلومات عن مكرم عبد القيوم الذي كان يسكن الشقة رقم ٣.

فأجاب الرجل: لقد أخلاها منذ يومين.

– أعرف ذلك، ولكن إلى أين انتقل؟

– لا علم لي بذلك ... لعلك تعرف محل نقل الأثاث الذي حمل أثاثه؟

– إنها شقة مفروشة، وقد حمل حقائبه في تاكسي ومضى.

– أتعرف التاكسي أو سائقه؟

– كلا.

– ما عمره؟

– يصعب تحديده لقوته وصحته، محتمل أن يكون في الثلاثين أو في الأربعين.

– وما عمله؟

– من الأعيان، ولكنه كان موفور النشاط، يُغادِر العمارة في الصباح الباكر، ويرجع في أول الليل، ولكنني لم أتابع خط سيره إلا كلما اتفق لي ذلك.

– وأسرته؟

– إنه وحيد، لم يزُره أحد فيما أعلم.

– معاملته؟

– من وجهة نظري في غاية الكمال، يؤدي الأجرة — مائتَي جنيه — في أول يوم للشهر، ولم أجد منه متاعب على الإطلاق.

– وسلوكه الشخصي؟

– لا غبار عليه فيما أعلم، إنه يحترم نفسه بكل معاني الكلمة.

– ألم تعرفه عن قرب؟

– كلا، مرةً عند تحرير العقد، ومرةً عند فسخه.

– عندك فكرة عن حالته المالية؟

– كلا، ولكنه وجيه المنظر، ثم إنه يدفع إيجارًا لسكنه فقط مائتَي جنيه.

– ألم يترك في نفسك انطباعًا بالشذوذ أو الإجرام؟

– إنه أبعد ما يكون عن ذلك.

– أعطِني فكرة عن منظره؟

– طوله فارع، ضخم، قوي، قمحي اللون، ذو قسمات واضحة وقوية وبارزة، أنيق جدًّا.

– له علامةٌ مميزة؟

– رغم سُمرته فهو ذهبي الشعر والشارب.

– كيف أجَّر الشقة؟

– بوساطة السمسار عزُّوز بأول شارعنا.

٢

لم أجد في أقوال صاحب العمارة أية إشارة ضوئية، فقرَّرت أن أُثنِّي بالبوَّاب. وكان كالمألوف نوبيًّا، ولكنه كان طاعنًا في السن. قلت: أودُّ أن أتحدَّث عن مكرم عبد القيوم.

فقال بحرارة: ربنا يحفظه!

– إنك تحبه فيما يبدو؟

– كيف لا؟ إنه أطيب خلق الله.

وسألته أول ما سألته عن التاكسي الذي حمل حقائبه، فأجاب: وجه السائق غير غريب عني.

فدوَّنت ذلك في مذكرة خاصة، ثم تساءلت: قلت إنه أطيب خلق الله؟

– أجل، ما كلَّفني مرة بعمل إلا نفحني مكافأة، غير المواسم والأعياد، دائمًا بسَّام، يُحيِّيني في الذهاب وفي الإياب، يسأل عن حالي، لا أنسى مساعدته لي عندما كنت أقوم بتجهيز ابنتي، إنه حلم المحروم، ودواء الجريح.

– أعتقد أنه أخبرك عن المكان الذي انتقل إليه؟

– كلا … ولكنه وكَّد لي أنه سيمرُّ بي كثيرًا.

– يعني زيارة خاصة لك؟

– ربما عند زيارته للحي لدى سبب من الأسباب.

– تُرى لماذا غيَّر مسكنه؟

– عندما سألته عن ذلك أجاب بأنه يحب التنقل.

– ماذا تعرف عن صفاته؟

– إنه قوي ومهيب وجميل، وهو أيضًا رقيق العواطف لدرجة لا تتناسب مع قوة مظهره. سمع مرةً صراخًا على ميت في عمارتنا فاغرورقت عيناه بالدموع، وكان يهبني نقودًا لأبتاع خبزًا للقطط الضالَّة التي تحوم حول العمارة، وبلغت به الرقة أنه كان يرمي بحبَّات من الفول السوداني عند بئر السلَّم غذاءً لفأر كان يلمحه كثيرًا.

– جميل هذا كله، ولكنك لا شك تعرف أشياء لا يعرفها أحد عن سلوكه الشخصي؛ فرَجلٌ وحيد لا يستأجر شقة مفروشة لوجه الله.

– لم يدخل شقته أحدٌ قط، هذا الجانب لا يمكن أن يفوتني.

– ولا أصحاب ولا أقارب؟

– ولا أصحاب ولا أقارب.

– وكان يغيب طيلة النهار في الخارج؟

– في بعض الأحيان كان يتغدى في شقته، فيطلب غداءه من أحد المطاعم.

– ألم يلفت نظرَك شيءٌ داخل شقته؟

– لم أدخلها قط.

– ماذا تعرف عن مواعيد رجوعه ليلًا؟

– كان يرجع عادة حواليَ العاشرة، وقد يتأخَّر به السهر إلى منتصف الليل أو حتى إلى مطلع الفجر.

– كيف تُرى لو ثبت لك يومًا أن ذلك الرجل سمَّم أبرياء وأشعل حرائق؟

فأخذ الرجل وقال: يكون نذيرًا بقيام القيامة.

٣

جمَعْنا سائقي التاكسي العاملين في الحي، عرضناهم على البوَّاب فتعرَّف على أحدهم، ويُدعى يونس، باعتباره صاحب التاكسي الذي حمل حقائب مكرم عبد القيوم. ولم يجد السائق صعوبة في تذكُّر الرجل، وقال إنه أوصله إلى سميراميس. وانطلقت إلى الفندق مصحوبًا ببعض المُعاونين، وهناك توكَّد لي أن الرجل بات في الفندق ليلةً واحدة ثم غادَره في الصباح الباكر. رجعت أسال عن هُويَّة التاكسي الذي حمله، لكن الشيَّال وكَّد لي أنه نقل الحقائب إلى سيارة ملاكي مرسيدس بيضاء، وأن البك الضخم الأسمر ذا الشعر الذهبي ساقها بنفسه، أما رقم السيارة فلم يلحظه أحد.

أهو صاحب السيارة؟ لمَ لم يستعملها طوال إقامته في العمارة؟ ... هل امتلكها أمس فقط؟ كلما أحدق الغموض بتصرفاته رسخت تهمة الاتهام في نفسي ... فتوثَّبت غرائز البحث والتحدي في أعماقي.

٤

قصدت بعد ذلك جيرانه المُقيمين معه في نفس الطابق. أولهم مهندس معماري يُدعى رءوف، وما سمعني أردِّد اسمه «مكرم عبد القيوم» حتى تقبَّض وجهه تقززًا، فقلت: يبدو أنك لا تستلطفه؟

– عليه اللعنة! رجل غريب، مُنطوٍ على نفسه لحد الشذوذ، ولا أشك في أنه يمقت البشر.

– للبوَّاب رأيٌ آخر فيه؟

– لا تأخذ بأقوال البوَّاب؛ فإن شلنًا يُدير رأسه، لا أنسى مرةً تلاقينا فيها في مدخل العمارة، بدأته بتحية فردَّ عليَّ بإيماءة مُتكبرة هبط لها قلبي وغلى دمي، إنه وقح وقليل الأدب.

– جديد عليَّ ما تقول.

– أتحدَّى أن تعثر على ساكن واحد من سكان العمارة قد تبادل معه تحية، إنه مُتعجرف بغيض، أما قسوته ...

– تقول قسوته؟

– حكت لي زوجتي أنها رأته يركل قطة بحذائه، صادفته أمام باب شقته، فارتطمت بعنف في الجدار ثم سقطت بين الحياة والموت.

– عجيب هذا.

– في مآتم العمارة يتجاهل الواجب الإنساني بلا مُبالاة، يمرُّ أمام السرادق بلا اكتراث ولا حياء.

– وسلوكه الشخصي؟ ... أعني الشقة المفروشة؟

– لا ... لا ... لم يزُره أحد فيما نعلم، أمثاله يُعانون نقصًا خفيًّا يُدارونه بالعجرفة وأبَّهة المظهر.

– ولكنه ثريٌّ فيما يبدو؟

– لمَ لا؟ ... ما أكثر الأثرياء الأوغاد!

٥

ليست شبهة ولكنها تهمةٌ حقيقية. والبوَّاب صادق كما أن المهندس رءوف صادق. وتُوكِّد ظنوني معرفتي الوثيقة لتاريخ الجريمة. من غيرُ مكرم عبد القيوم يرمي بالنقود إلى شرفات الفقراء ويدسُّ السم في الشوكولاتة للأبرياء؟ ... أليس هو الذي يهب النقود لتغذية القطط الضالة ثم يركل واحدة منها حتى الموت؟!

وذهبت إلى الجار الثاني، مُدرس لغة عربية يُدعى عبد الرحمن. قال: الرجل وحيد حقًّا، ولكنه ليس مُتعجرفًا، والمسألة أن المهندس رءوف كرهه من رد تحيَّته بجفاء، ولعله كان وقتها مُكدَّر البال.

– فماذا تراه أنت؟

– أشهد له بالتقوى، طالما تقابلنا في الجامع عند صلاة الجمعة!

– حقًّا؟

– وماشَيْته مرةً عقب الصلاة فوجدته لطيفًا، دعاني إلى الغداء في مطعم الكورسال، وألحَّ عليَّ فلم أجد بدًّا من الاستجابة، وأعلن لي عن حبه التراث، ورغب في الاستعانة بي للاستزادة منه.

– لعله لم يتعلم؟

– كلا ... لم يكن مُتبحرًا في التراث ... ولكنه تخرَّج في الجامعة بكلية الحقوق، ودرس في السربون القانون والتاريخ.

– لعلك الوحيد الذي خالَطه؟

– لعلِّي، كنا نتقابل في مشرب مينا هاوس، وهناك وضَّح لي أنه كثير الأصحاب، مصريين وأجانب، وكان يُدعى إلى التليفون مرَّاتٍ عديدة حتى خُيِّل إليَّ أنه من رجال الأعمال.

– ألم يخطر لك أن تسأله عن عمله؟

– مرةً سألته بلباقة عما يفعل بوقته، فأجاب بأنه يحب أشياء لا حصر لها، ولكنه غير مُلتزم بعمل مُحدَّد، بمعنًى آخر هو من الأعيان.

– ما مصدر ثروته؟

– أرض، أسهُم وسندات وهلمَّ جرًّا ... ولكن ميزته الأولى في نظري أنه واسع الاطلاع ... وقد طالبته مرةً بأن يؤلف في التاريخ، فابتسم وسألني: «أتُصدِّق حقًّا أنه يوجد شيءٌ اسمه تاريخ؟ فاعتبرت تساؤله دعابة، ولكنه استدرك قائلًا: «يمكن الاستغناء عن التاريخ ببابَي المديح والهجاء في الشعر.»

– طبعًا لم تعرف لماذا تجنَّب الزواج؟

– مرةً شكوت إليه تمرُّد أحد أبنائي، فقال لي بأسًى لم ألمسه فيه من قبل: «إن تمرُّد ابن خليقٌ بأن يُشكِّل مأساة بلا نهاية.» ... ولرنين الأسى في نبرته شيء قال لي إنه ذلك الابن أو إنه الأب المُبتلى، وبشيء من الدهاء قلت له: «لقد أرحت نفسك من ذلك كله.» فنظر إليَّ وابتسم ... ولكنه لم يشفِ غليلي.

– لمَ لم تستوضح تلك النقطة؟

– كنت أُعاشره وأهابه، وأخشى أن أثقل عليه فأخسره.

– طبعًا أخبرك بنية ذَهابه؟

– أبدًا ... فوجئت برحيله ... ولكنني حتمًا سألقاه يوم الخميس في مينا هاوس.

– لا أظن، ومع ذلك سنرى.

– لماذا قلت لا أظن؟

– ألا تدري أن ثَمة شبهة في أنه مُرتكِب حوادث حيِّنا المُثيرة؟!

فاتسعت عينا الرجل في ذهول وقال غير مُصدِّق، بل مُحتجًّا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

٦

تجهَّم الغموض فانقلب ظلامًا، ولكنَّ شعوري — شعور الخبرة والسنين — صار يقينًا أو كاد، وأوشكت على الاكتفاء بما استخلصت من معلومات لأُسرع في المطاردة، ولكني لم أجد بأسًا من لقاء الجار الثالث المُلاصق بابه لباب مكرم عبد القيوم — وهو مُفتِّش الضرائب بكر الهمذاني — ما إن سمع اسمه حتى هتف: المجنون!

– مجنون؟!

– طبعًا، طالما بلغني صوته وهو يُدوِّي كالطبل في صمت الليل، تُرى أيتحدَّث في التليفون؟ ... يُحدِّث نفسه؟ ... يتعارك مع خيال؟ ولا عزيف الريح وجعجعة الرعد، وكان هنالك ما هو أدعى إلى الدهشة.

– حقًّا؟

– كان يُغنِّي ويلعب بأوتار العود.

– شيءٌ جديد تمامًا.

– الحق أن صوته قوي وجميل، ولكنه يُغنِّي أحيانًا أغنيات في غاية الوقار، مثل «يا ما انت واحشني»، أو يُغنِّي أغنيات في غاية الابتذال، مثل «أنا أبله كنت هبلة»، أو تصوَّر ذلك الرجل الضخم الوقور وهو يُغنِّي «يوم ما عضتني العضة»، ولكنه رجلٌ عربيد.

– عربيد؟

– كنت مرةً راجعًا من سهرة مسرحية، فرأيته خارجًا من حانة فلاديمير وهو يترنَّح من شدة السكر ... ويقول بلسانٍ مُلعثَم: «أنا جدع.»

– ما أعجب هذا!

– بل يوجد ما هو أعجب، رجعت مرة من سهرة فرأيته يسبقني بخطوات، دخل شقته ومِلت نحو شقتي، ولسببٍ ما وجدنا شرَّاعة بابه مفتوحة. لاحت مني نظرة فرأيت في نهاية الدهليز حجرةً مُضيئة، ولعلها حجرة جلوس، فتسمَّرت في مكاني لغرابة ما رأيت ...

رأيت خليطًا من عجائب مُتنافرة، على الجدار المُواجِه لي ثُبِّتت أقنعةٌ غريبة، جميلة وبشعة، ورءوس حيوانات مُحنَّطة، وأسلحة من مُختلِف العصور، وأدوات موسيقية، وفي وسط الحجرة ما يُشبِه المعمل الكيماوي … بل معمل كيماوي بالفعل.

– معمل كيماوي؟!

– أجل … مائدة طويلة صُفَّت فوقها أوعيةٌ زجاجية مليئة بسوائل مختلفة الألوان، وأنابيب طويلة مُركَّبة على قوائم معدنية، وبوتقات، ومولدات الطاقة.

– مُدهِش … مُدهِش.

– ذهبت إلى شقَّتي ذاهلًا … أيقظت زوجتي … أخبرتها بما رأيت … اتَّهمتني بالسكر … تحدَّيتها أن تخرج معي لترى بنفسها … كان منظرًا مُذهلًا.

– ألم تتبادل معه تحية أو كلامًا؟

– أبدًا … أُصارحك بأنني كنت أخافه، وقد تشهَّدت حين سمعت برحيله.

٧

في نفس اليوم ذهبت إلى السمسار، لم أكُن في حاجة إلى مزيد من المعلومات عن شخصية «المتهَم»، ولكني أملت أن أجد عنده خيطًا يُوصِّلني إليه، ووجدته مُتذكرًا تمامًا للمعاملة التي جرَت بينهما رغم انقضاء ما يُقارِب العام عليها، بل إنه قال: ذلك يوم لا يمكن أن يُنسى.

– لماذا؟

– تمَّت المساومة في دقيقة، بل لم تكن ثَمة مساومة على الإطلاق، وكان أكرم مما يتصور العقل، ولكني اكتشفت فَقْد حافظة نقودي في ذلك اليوم أيضًا؛ ولذلك فهو لا يمكن أن يُنسى.

– كيف حدث ذلك؟

– سلَّمني النقود فوضعتها على المكتب ثم انصرف، شُغلت دقائق بمكالمة تليفونية، ثم تناولت النقود لأودعها الحافظة فلم أجد للحافظة أثرًا.

– ماذا دار بخلدك؟

– كانت الحافظة معي، لم يدخل دكَّاني إلا مكرم عبد القيوم ومسَّاح الأحذية، وفي الحال شككت في مسَّاح الأحذية، استدعيته، استجوبته، عنَّفت به حتى صرخ، ولكنه أقسم بأغلظ الأيمان وبكى.

– طبعًا لم تشكَّ في الآخر؟

– كلا، الحق كانت تُساوِرني شكوك أحيانًا ولكنها كانت تعزُّ على التصديق، وقد حرقني فقدُ أكثر من مائتَي جنيه، ولكن كيف أُوجِّه تهمة إلى رجل مثله بدا لي أنه من أصحاب النفوذ بلا أدنى شك؟ ... وما جدوى الاتهام إلا أن يُعرِّضني لبطشه؟!

– وسلَّمتَ أمرك لله؟

– كما يحصل في أغلب حوادث النشل. وكنت أراه أحيانًا وهو ماضٍ في الصباح فأُتبعه عينيَّ بِحيرة وأُتمتم: «ربنا عزيز ذو انتقام.»

٨

واجتمعت برئيسي في مساء اليوم نفسه، وعرضت عليه التقارير التي سجَّلتها بعناية تامَّة. راح يقرأ وهو يسند رأسه إلى راحته حتى فرغ منها، ثم طالَعني بوجه مُتجهِّم وقال: علينا أن نستعيد الصورة، توجد حوادث مُثيرة، بعض الفقراء يجدون في شرفات منازلهم صررًا مليئة بالنقود هبطت من مصدر مجهول، آخرون يجدون عُلَب حلوى سليمة، أناسٌ يجدون عُلَب حلوى مسمومة مات بسببها أبرياء، اختفاء أطفال، حرائق تشبُّ في الحوانيت. هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى يجيء جواب من مجهول يُوجِّه الاتهام إلى المدعو مكرم عبد القيوم، وتتحرَّى أنت عن الرجل فتجيئني بمجموعة من التناقضات تُماثِل في غرابتها تناقضات الحوادث. ما رأيك؟

قلت: أصبحت على يقين من أنه المجرم.

– يقين؟!

– إنه شعورٌ داخلي.

– ما يهمُّني هو الدليل القاطع أو الاعتراف.

– لا تنسَ يا صاحب السعادة أن الحوادث توقَّفت منذ رحيله.

– الفترة قصيرة جدًّا ولا تعني شيئًا.

– لا تنسَ أننا أصبحنا مضغة للأفواه.

– سيخونه حِرصه عاجلًا أو آجلًا ... فهو بلا شكٍّ مجنون.

– مجنون؟! محتمل. ومحتمل أيضًا أن يكون عاقلًا وداهية وذا أغراض خفية.

٩

اندفعت في المطاردة بقوة مُتحدِّية، ضاعفت الدوريات والعيون، أبلغت الأوصاف إلى جميع الأقسام، ورسمت خطةً شاملة للمُرشِدين ولأهل الخبرة بأوساط المُجرِمين. لم يخفَ عني أنه تحدٍّ لشخصي ومستقبلي وواجبي، وسيطر الموضوع على يقظتي ومنامي، وفكرت وفكرت ثم قرَّرت تأجيل الاستعانة بالصحف والإذاعة.

١٠

وفيما نحن مُنهمِكون في المطاردة انقضَّت علينا صاعقة، طلعت علينا الصحف بأنباء حوادث مُماثلة لما وقع في حيِّنا، ولكن في طنطا هذه المرة. انطلقت إلى طنطا بلا استئذان، وضعت معلوماتي تحت تصرف المسئولين هناك.

وفيما نحن نرسم خطة جديدة مُعتمِدين أولًا على الاستفادة من التجربة السابقة، طلعت الصحف بأنباء حوادث تقع في أسيوط، وفي الحال سافرت إلى أسيوط وأنا أشعر بأن الجريمة استحالت فضيحةً قومية. وهناك تَلفنتُ إلى رئيسي أُخبره بمقرِّي فإذا به يصيح: أين أنت؟! ... ما هذا التصرف المشين؟!

هممت بشرح الأمر ولكنه صاح بي: احضر حالًا ... لقد عادت الحوادث إلى حيِّنا.

١١

وخطر لي أن أستدعيَ رسَّامًا مشهورًا، جمعت بينه وبين الشهود، وطالبته برسم صورة دقيقة للرجل المجهول من واقع شهادتهم، وقلت له: لا تتركها حتى يُقرُّوا بأنها طبق الأصل.

ونشرت الصورة في الصحف مُطالبًا من يعرف صاحبها بأن يدلَّنا عليه، ودلَّنا مُواطِنون على أكثر من شخص؛ عمدة، تاجر أسماك، تاجر شنطة، بل انطبقت الصورة على مسئول في الدولة له شأن، فاستفحلت الفضيحة حتى انقلبنا سخرية الساخرين ونادرة المُعلِّقين.

وصاح بي رئيسي: لقد أشعلت النار في الإدارة.

فقلت بإصرار: لا غبار على الخطة.

– ها قد جاءنا من لا نبحث عنه، وغاب عنا من نبحث عنه.

– لعله تعمَّد الاختفاء أو التنكر.

– واضحٌ أن الحوادث المُتفشية في جميع الأنحاء ليست من صنع رجل واحد.

– لعله رئيس عصابة.

فهتف بيأس: لقد أشعلت النار في الإدارة.

رجعت إلى حجرتي أعمى تمامًا من الغضب. عند الباب سمعت حوارًا حادًّا بين الحاجب وآخر يريد الدخول لمقابلتي. قلت بحزم: لا وقت عندي الآن لأحد.

فقال الآخر بصوتٍ جَهوَري متَّزِن: أنا مكرم عبد القيوم.

١٢

تأبَّطت ذراعه، دخلنا الحجرة، وقفنا مُتواجِهَين وأنا ألهث، تساءل بهدوءٍ غاضب: ما معنى المنشور في الجرائد؟

فسألته وأنا أمتحنه بعينيَّ: لمَ لم تحضر مباشرةً عقب النشر؟

– كنت في البحر الأحمر بعيدًا عن الجرائد وغيرها.

وفصل بيننا صمتٌ متَّقِد حتى عاد يتساءل: ما معنى هذه التهمة السخيفة؟

فقلت بحنق: سنرى.

وقرَّرت إجراء التحقيق في حجرة رئيسي وتحت إشرافه.

١٣

– ماذا أقول؟ … أجاب الرجل عن كل سؤال فورًا وفي بساطة وثقة، لم نجد دليلًا واحدًا يدينه، عرضناه على أهل الضحايا والمخبرين المبثوثين في أنحاء الحي فلم يشهد أحد بأنه رآه في ليل أو نهار. أذَعْنا رسالة مُوجَّهة للمجهول صاحب الرسالة أن يُنوِّرنا بمعلومات إن كانت لديه فلم يردَّ علينا أحد. وهكذا غادرَنا مكرم عبد القيوم مرفوع الرأس وقد أصابني بضربة قاضية. والعجيب بعد ذلك أن شعوري الباطني باتهامه لم يتزعزع.

١٤

كان لا بد من كبش فداء، فقرَّرت الداخلية نقلي إلى الديوان، وأحلَّت محلِّي من رأته أعظم أهليةً للعمل. وتلقَّيت الأمر بغضب وتحدٍّ، فقدَّمت استقالتي مُعتزمًا الاشتغال بالمحاماة،

وظللت أُتابع أنباء الحوادث والتحقيق وأنا مُشفِق من أن ينجح من حلَّ محلي في القبض على المجرم. إنه شعورٌ مُخجِل، ولكنه مُتوافِق مع الطبيعة البشرية. وما أدري ذات يوم إلا ومكرم عبد القيوم يقتحم عليَّ مكتبي. رمقته بدهشة، فجلس أمام مكتبي وهو يقول: جئتك لأعرض عليك أن تتولَّى إدارة أعمالي وقضاياي.

وكان العرض مُغْريًا لدرجة يتعذَّر معها رفضه، ولكنني سألته: لمَ أنا بالذات ولم أعمل في المُحاماة إلا عامَين؟

– ولكنك ذو خبرة كبيرة، ثم إنني أعدُّ نفسي مسئولًا بعض الشيء عن استقالتك.

فسألته بحذر: نوع من الشماتة؟

فهتف بصدق: معاذ الله، ما ورائي إلا شعور طيب … لمَ لا؟

هكذا أصبحت مستخدمًا في دائرة الوجيه مكرم عبد القيوم.

١٥

وأشهد لقد وجدته وجيهًا بكل معنى الكلمة، وقورًا عالمًا، عذب الحديث، طيِّب المعاشرة، كريمًا ودودًا. وربما فتر حماسي أحيانًا فأتساءل: «ألا يُفاجئني مرةً بتناقض من تناقضاته؟ … ألا يحسُن بي أن ألتزم جانب الحذر؟» ولكنه خيَّب وساوسي، وقرص ضميري بإصراره على كل ما هو طيب.

وذات صباح — وعقب مراجعته لما عرضته عليه — رجع بمقعده الهزَّاز إلى الوراء وقال: أخيرًا قيَّدوا القضية ضد مجهول.

فقلت بشماتة: لتكن هذه اللطمة ردًّا على اللطمة التي تلقَّيتها.

فقال بهدوء عذب: كلا … لقد أخطأت.

– ولكن …

وسرعان ما قاطَعني قائلًا: كان من الخطأ أن تُركِّز الاتهام فيَّ بسبب رسالة سخيفة غُفْل من الإمضاء.

فقلت مُدافعًا: ليس بسبب الرسالة، ولكن بإغراء التحريات غير العادية.

– وبتركيزك الاتهام فيَّ تركت المجرم الحقيقي يفلت من يدَيك.

– لم يكن معقولًا أن أربط بين أقوال الشهود وغرابة الحوادث؟!

– يا أستاذ، هل يخلو مخلوق من تناقضات؟ … ثم ما الغرابة في أن أطعم القطط وأن أركل قطة مريضة هاجمتني؟ … ما العجب في أن أتوادَّ مع رجل … وأُجافي آخَر لسوء

خلقه؟ ... وما الجديد في أن أمضي وقورًا حينًا وأترنَّح من السكر حينًا آخر؟ أيعني هذا أن أُسمِّم الأطفال وأشعل الحرائق؟!

لُذتُ بالصمت مُتفكرًا وحذرًا في نفس الوقت، أما هو فواصَل: بنفس المنطق يا عزيزي يمكن أن تُوجِّه التهمة إليك أنت.

فندَّت مني ضحكة وتمتمت: أنا؟!

– لمَ لا؟ ... لقد استمرَّت الجرائم رغم تشديد الحراسة وبثِّ المُخبِرين. كيف اخترق المجرم سبيله في حي مُلغَّم؟ ... لا شك أنه كان مُطمئنًّا إلى أن أحدًا من رجال الأمن لن يشكَّ فيه، عظيم ... فمن يكون هذا إن لم يكن الرئيس المكلف بالمراقبة؟ ... أو بمعنًى آخر إن لم يكن أنت؟!

فضحكت عاليًا وقلت: وجرائم طنطا؟

– لقد وقعت حوادث طنطا، وثبت أنك سافرت إلى طنطا، أمَّا أن سفرك لحق بالحوادث أو سبقها فلا نعرف عنه شيئًا.

فقلت وما زلت أضحك: عظيم، ولكن ما الدافع وراء الجرائم؟

– هو الدافع الكامن في أعماق المجرم الذي أعياك البحث عنه؟

– في اعتقادي أنه مجنون.

– وغير مُستحيل أن تكون مجنونًا؟!

– هل تجد في عملي معك شبهة جنون؟

– الجنون أنواع، والمجنون آخر من يعلم.

وضحكت مُتظاهرًا بالاستهانة، ولكن حديثه ساءني، وساءني أكثر الجد الذي تناوَل به حديثه حتى خُيِّل إليَّ لحظةً أنه يُوجِّه إليَّ اتهامًا حقيقيًّا، بل إنه يصبُّ اتهامه على الناس جميعًا، ثم تبسَّم فعاد الإشراق إلى وجهه الكبير، وقال بنبرة جديدة: حسنًا، ولنُواصل العمل.

وقلت لنفسي: يا له من رجل مُحيِّر! ... لا شك أن العمل في دائرته فوزٌ مرموق، وأن شخصيته تتعالى عن الاتهام، ولكن ما بال شعوري الباطني باتهامه لا يُفارقني؟


هنداوي